التَّرَابُطُ النَّصِّيُّ في شِعْرِ خليفة التِّلِّيْسِي
دراسةٌ تطبيقيةٌ في ضوء نَحْو النَّصِّ

فايز صبحي عبد السَّلام تركي
أستاذ النَحْو والصَّرْف المُشارك بكلية الآداب، جامعة الملك فيصل

ملخص

تناول البحث هذا الديوان مقتصرا على الإحالَة والاسْتِبْدَال؛ مُبَيِّنًا دَورَهما في التَّرَابُط النَّصِّيِّ، فكان عنوانه " التَّرَابُطُ النَّصِّيُّ في شِعْرِ خليفة التِّلِّيسيّ، دراسةٌ تطبيقيَّةٌ في ضَوء نَحْوِ النَّصِّ "، مُبْتغيًا من ورائه محاولةَ تَلَمُّسِ التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ، من خلالِ الإحالَة والاسْتِبْدَال، وأثر ذلك التَّرَابُط في المعنى النَّصِّيِّ أو البِنْيةِ الكُبرى، بِشِعْر خليفة التِّلِّيسيّ، أي بيانُ دورهما في الاسْتِمْراريَّة الدَّلاليَّة أو تعليقِ الكلامِ بعضُه ببعض، وكيفيةِ فَهْمِ المُتلقِّي هذه الاستمراريَّة الدَّلالية، وذلك في ضوءٍ ممَّا كتبه القدماءُ والمحدثون؛ ومن ثَمَّ محاولةُ فَهْمِها وتفسيرِها من خلال مكوناتِها؛ بالاعتمادِ على المادةِ نفسها، التي تكوَّنَ منها النَّصُّ الشِّعريُّ، من خلال الوسيلتين المُحددتين (الإحالَة والاسْتِبْدَال)؛ وتكمن مُشكلة هذا البحث في السؤالين التَّاليين:

١- هل ثَمَّة دورٌ لكلٍّ من الإحالةِ والاستبدالِ في تحقُّق سِمَة النَّصِّيَّة أو التَّرَابُط النَّصِّيِّ في شِعْرِ خليفة التِّلِّيسيّ ؟

٢- هل يصلُح ديوانُ خليفة التِّليسيِّ لأنْ نختبرَ على مَحكِّه مقولات نَحْو النَّص مُتمثِّلةَ في التَّرَابُط النَّصِّيِّ من خلال الإحالة والاستبدال موضوع البحث؛ ومن ثَمَّ نتمكنُ من إعادة بناء النَّصِّ وبَعثِه، من خلال إبرازِ شبكةِ العلاقاتِ داخلَه؟

مدخلٌ

الحمدُ لله، فتَقَ العقولَ بمعرفَته، وأطلقَ الألْسُنَ بحَمْده وتسبيحِه، وأشهدُ له بالإخلاصِ أنَّه لا إله غيرُه، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليه، وعلى آله، ومَنْ اهتدى بهديهم إلى يوم الدِّين، أمَّا بعدُ ،

فممَّا لاشكَّ فيه أنَّ النَّصَّ إبداعٌ، من خلالِ عمليَّةٍ فِكْرِيَّةٍ، مبْنيَّةٍ على مجموعةٍ من ضفائرِ النِّظامِ اللُّغويِّ، تُصْهَرُ في بَوتقتِها تلك العمليةُ الفكريَّة، وأَعني بتلك الضَّفائرِ النِّظامَ الصَّوتيَّ والنظامَ الصَّرفيَّ، والنِّظامَ النَحْويَّ، والنِّظامَ الدَّلاليّ، تلْكَ الأنْظِمَةُ الَّتي تتضافرُ مع بعضِها داخلَ النَّصِّ، ممَّا يُمكِّنُ المُبدعَ مِنْ نَسْجِ إبداعِه على مِنْوالِ مَا أرادَهُ مِنْ معنًى مَّا، يريدُ إيصالَهُ للمُتَلَقِّي، ذلك المُتَلَقِّي الذي يُفْتَرضُ فيه أَنْ يكونَ قَدْ أُوتِيَ مِنْ الأَدَواتِ مَا يُمَكِّنُه مِنْ مُشَارَكَةِ هذا المُبْدِعِ في إعادَةِ تَشْكيلِ النَّصِّ أو فَكِّ شَفْرَتِه، لاسِيَّمَا المُتَلَقِّي المُتخصِّصُ أو مَنْ له اهتمامٌ باسْتكْناه النُّصُوص . وفي إطارِ إعادةِ التَّشكيلِ أو فكِّ شَفْرةِ النَّصِّ أو مُشاركَةِ المُبْدِع تُوجدُ على السَّاحةِ اللُّغويَّة مَداخِلُ كثيرةٌ، يعرِفُها المتخَصِّصُون، ويَضِيقُ بِهَا المقامُ، وعلى الرَّغمِ مِنْ ذلك أشيرُ إلى مدْخَلِ دِراسَةِ النِّصُوصِ مِنْ طَريقِ نَحْوِ الجُمْلَة، ومَدخلِ دراستِها مِنْ طريقِ نَحْوِ النَّصِّ.

أمَّا عن التَّرَابُط النَّصِّيِّ، فهو مِحْورُ مَا يدورُ حولَه نَحْوُ النَّصِّ أو عِلْمُ النَّصِّ، ذلك النَحْو غيرُ المُنْبَتِّ عن نَحْوِ الجُمْلَةِ، مِنْ مُنْطَلَقِ أنَّ الجُمْلَةَ هي المُكوِّنَةُ للنَّصِّ، أي أنَّه "يبحثُ عن كيفَ ارْتبطَ الأوَّلُ بالآخرِ أو الآخَرُ بالأوَّلِ ؟ كيفَ تَجَسَّدَ هذا الحضورُ؟ ما هو الخيطُ الذي يربطُ بين كلماتِه وجُمَلِه وفقراتِه في كُلٍّ لا يتجزَّأُ دفعةً واحدةً دون النَّظرِ إلى جُزئيَّةٍ مُنفردةٍ؟ فترابُطُ الجُمَلِ بعضُها ببعضٍ وتجاورُها في بنية النَّصِّ الواحدِ يجعلُها ـ كما يقول الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ـ : "مسئولةً عن تكوينِ سياقٍ نَصِّيٍّ مُعيَّنٍ، يُساعدُ على تفسيرِ التَّراكيبِ داخلَ

النَّص. وكلُّ جملةٍ في النَّصِّ لا يُمكنُ فهْمُها إلا مِنْ خلالِ ترابُطِها بأخواتِها في النَّصِّ "(١) وتلك مسئولية نَحْو النَّصِّ من خلال دراسة وسائل التَّرَابُط؛ للكشْفِ عن النِّظامِ الكُلِّيِّ الحاكمِ للنَّصِّ "(٢). وفي هذا الصَّددِ أيضًا يقولُ (هاينة مان) و(ديتر فيهفجر): "تنطلقُ تصوراتُ نَحْو النَّصِّ مِنْ فرضيَّةِ أنَّ النَّصَّ في الأساسِ يُمْكِنُ تحديدُه، بأنَّه مُركَّبٌ بسيطٌ من جُمَلٍ تقومُ بينها علاقاتُ تَناسُقٍ"(٣).

وهكذا، فقد اتَّضحَ لنا أنَّ مَجَالَ نَحْو النَّصِّ هو ما تَخَطَّى حدودَ الجُمْلَةِ، أي تناوُلُ النَّصِّ على أنَّه وَحْدَةٌ واحدةٌ، مع مُلاحظةِ أنَّه "ليس لأحَدِ الاتجاهين أنْ يُلْغِي الآخرَ، فالاعترافُ بالنَّصِّيَّة لا يُلْغِي الدِّراساتِ التَّحليليةِ، ولا تُغْنِي الدِّراساتُ التَّحليليةُ عن الاعترافِ بالدِّراسةِ النَّصِّيَّة، وفى تراثنا العربيِّ مِنْ الدلائلِ مَا يشيرُ إلى ضرورةِ الجَمْعِ بين المنهجين"(٤). هُنَا أُشيرُ إلى أنَّ نَحْوَ النَّصِّ لا يدرسُ أبنيةَ النَّصِّ فقط، بل يدرسُ أيضًا صفاتِ التَّوظيفِ الاتِّصاليِّ للنَّصوص؛ ومِنْ ثَمَّ

(١) منهجٌ في التَّحليلِ النَّصِّيِّ للقصيدة، د. محمد حماسة عبد اللطيف، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج ١٥، ع ٢، ١٩٩٦ م، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) نَحْوُ النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدَّرسِ النَحْوي، د. أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠١ م، ص ٩٧، ويُنْظَر: عِلْمُ لغة النَّص: المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٩٩٨ م، ص ١٣٣-١٦١ حيثُ الفصلُ المُعَنونُ بنَحْوِ النَّصِّ، ويُنْظَر: بلاغة الخطاب وعِلْمُ النَّصِّ، د. صلاح فضل، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ١٩٩٢م، ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٣) مدخل إلى عِلْم اللُغَة النَّصِّيّ، فولفجانج هاينة من، وديتر فيهفيجر، ترجمة د.فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، السعودية، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩م، ص ٢٥.

(٤) النَّصُّ والخطاب والإجراء، دي بوجراند، ترجمة د.تمام حسان ،عالم الكتب، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨ م، ص٤ حيثُ مقدِّمَةُ الدكتور تمَّام حسّان، ويُنْظَر: عِلْمُ لُغَةِ النَّصِّ المفاهيم والاتِّجاهات، د. سعيد بحيري ص ١٢٦، ١٣٢ - ١٣٤، ٢١٨، ونَحْوُ النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ١٣٣، ٦٥ وما بعدها، ونَحْوُ النَّصِّ بين الأصالة والحداثة، د. أحمد محمد عبد الراضي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨ م، ص ٤٢ - ٤٣، أمَّا عن حقيقة نَحْوِ النَّصِّ، فيُنْظَر ص ١٣٣ - ١٦١ من عِلْم لُغَة النَّصِّ المفاهيم والاتِّجاهات.

يُوصَفُ بأنَّهُ حدثٌ تواصليٌّ municative occurence، يلزمُ لكونه نَصًّا أنْ تتوافرَ له سبعةُ معاييرَ مُجتمعةٍ، ويزولُ عنه هذا الوصفُ إذا تخلَّفَ واحدٌ من هذه المعاييرِ، فيما يُصْطَلَحُ عليه بمعاييرِ النَّصانيَّةِ أو معاييرِ النَّصِّيَّة(١)، وهي: السَّبْك cohesion – الحَبْك coherence – القَصْد intentionality – القبول acceptability – الإعلام informatlvity – المقامية situationality –التَّناص intertextuality)(٢). وهذا يأخذُنا إلى الإقرارِ بأنَّ نَحْوَ النَّصِّ يختصُ بالقَصْدِ والتَّناصِ والمقاميةِ، والإعلاميةِ، والقبول، ويشاركُ نَحْوَ الجُمْلَةِ في السَّبكِ والحَبْكِ والانسجامِ، وهو ما

(١) مِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ النَّصِّيَّة مُحصِّلةُ الإجراءات الاتصالية المتّخذة من أجل استعمال النص من خلال المعايير السَّبعة التي يكونُ بها النَّصُّ نصًّا؛ ومن ثَمَّ تكونُ النَّصِّيَّةُ أساسًا مشروعًا لإيجاد النصوص؛ ومن ثمَّ استعمالها :يُنظَر: النَّصُّ والخطاب والإجراء، دي بوجراند، ترجمة د.تمام حسان، ص ٩٥، ٩٧، ودراسات لغوية تطبيقية، د.سعيد بحيري، مكتبة الآداب، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، ص ١٠٧.

(٢) يُنْظَر في ذلك: النَّصُّ والخطاب والإجراء، ص ١٠٣ – ٢٠٥، ومدخل إلى علْم اللُّغَة النَّصِّيّ، فولفجانج هاينة، ترجمة د. فالح العجمي، ص ٧ – ١٢، ٩٣ – ٩٥، وعِلْم لُغَةِ النَّصِّ : المفاهيم والاتجاهات، ص ١٤٦، ونَحْو أجرومية للنَّصِّ الشِّعريِّ، د. سعد مصلوح، مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد العاشر، العددان الأوَّل والثاني، يوليو، أغسطس،١٩٩١م ، والدَّلالة والنَّحْو، د. صلاح الدين صالح حسنين، مكتبة الآداب، الطَّبْعَة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ص ٢٢٦ – ٢٣٤، ونَحْوُ النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدرس النَّحْويِّ، د. أحمد عفيفي، ص ٦٥ – ٩٢، ، والعلامتية وعِلْمُ النَّصِّ، إعداد وترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربيّ، الدَّار البيضاء، المغرب – بيروت، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠٤ م، ص١٣٢ – ١٣٦ حيثُ حديثُه عن التَّماسك والانسجام وشعريَّة النَّصِّ وغير ذلك، وعِلْمُ اللُّغَة النَّصِّيِّ بين النَّظرية والتَّطبيق، د. صبحي الفقي، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠ م، ١/ ٩٣ – ١٠٢، ورَبْط الجملة الفرعية بالضَّمير أو بالواو ودوره في تماسك النَّصِّ " دراسة في كافوريات المتنبي"، د. فايز صبحي عبد السلام تركي، مجلة علوم اللُّغة، العدد الأوَّل (٤١)، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٨ م، ص ١٤ وما بعدها، وعِلْمُ اللُّغَةِ النَّصِّيِّ بين النَّظرية والتَّطبيق الخطابة النبوية نموذجًا، د.نادية النجار، مجلة علوم اللُّغة، مجلد٢، ع ٣٤، ٢٠٠٦ م، ص ٣٣٢ وما بعدها، والإِحَالَة ودورها في التَّماسُك النَّصِّيِّ، رواية في سبيل التَّاج للمنفلوطي نموذجًا، دنيا بن قسمي، رسالة ماجستير، بكلية الآداب، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، ٢٠٠٩ – ٢٠١٠ م، ص ٢ – ٢٣ حيثُ حديثُها أيضًا عن مفهوم النَّصِّ بين المنظورِ العربيِّ والمنظورِ الغربيِّ .

يؤكِّدُ القولَ بعدَمِ انفكاكِ نَحْوِ النَّصِّ عَنْ نَحْوِ الجُمْلَةِ(١). ذلك السَّبْكُ الذي يَعْنِي " إحكامَ علاقاتِ الأجزاءِ، ووسيلةُ ذلك إحسانُ استعمَالِ المناسَبةِ المُعْجَميَّةِ مِنْ جهةٍ، وقرينَةِ الرَّبْطِ النَحْويِّ مِنْ جهةٍ أُخرى، واستصحاب الرُّتَبِ النَحْويَّةِ إلا حين تدعو دواعي الاختيارِ الأسلوبيِّ، ورعايةِ الاختصاصِ والافتقارِ في ترتيب الجُمَل"(٢).

وبناءً على ذلك فإنَّ نَحْوَ النَّصِّ يكتنفُه إيثارُ التَّرابطِ النَّصِّيّ (التَّرَابُط النَحْويّ والدَّلاليّ)، وفي هذا يقولُ (هاينة مان) و(ديتر فيهفجر): "تنطلقُ تصوراتُ نَحْوُ النَّصِّ مِنْ الفَرْضِ القائلِ: إنَّ النُّصوصَ في الأساسِ يمكنُ تحديدُها بأنَّها تكوينٌ بسيطٌ من الجُمَل، تنشأُ بينها علاقاتُ تماسُكٍ"(٣). وهو - أي التَّرَابُطُ النَّصِّيُّ - "الذي يخلقُ بنيةَ النَّصِّ، هذه البِنْيةُ لا يمكنُ أنْ تكونَ مُجرَّدَ تتابُعٍ للعلامات، ولكنَّها تملكُ تنظيمًا خاصًّا من داخلها ورؤيةً دلاليَّةً من ذاتِها، تخصُّها"(٤).

(١) يُنْظَر: نَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدرس النَّحْويِّ، د. أحمد عفيفي ص ٧٥ - ٩٢، والحذف التَّركيبيّ وعلاقته بالنَّظم والدَّلالة - د. فايز صبحي عبد السلام تركي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠١١ م، ص١٤ - ١٥.

(٢) موقف النقد العربي التراثي من دلالات ما وراء الصِّياغة اللُّغويَّة، ضمن كتاب (قراءة جديدة لتراثنا النقدي)، د. تمام حسّان، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، العدد ٥٩، ١٩٨٨م، ٢/ ٧٨٩، ويُنْظَر: لسانيات النَّصّ "مدخل إلى انسجام الخطاب"، د. محمد خطابي، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، الدَّار البيضاء، الطَّبْعَة الأولى، ١٩٩١ م، ص ٥، وعِلْمُ اللُّغَة النَّصِّيِّ بين النَّظرية والتَّطبيق، د. صبحي الفقي ١/ ٤١، والإحَالَة ودورها في التَّماسك النَّصِّيِّ، رواية في سبيل التَّاج للمنفلوطي نموذجًا، ص ٢٨- ٣٢.

(٣) مدخل إلى عِلْمِ لُغَة النَّصِّ، فولفجانج هاينة وديتر فيهفجر، ترجمة د.سعيد بحيري، زهراء الشرق، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠٤ م، ص ٢١.

(٤) نَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدرس النَّحْويِّ، د.أحمد عفيفي ص ٩٧، ويُنْظَر: عِلْمُ لُغَة النَّصِّ المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص ١٢٢، وبلاغة الخطاب وعِلْمُ النَّصِّ، د. صلاح فضل، ص ٢٤٣ حيثُ الإشارةُ إلى أنَّ التَّماسكَ النَّصِّيَّ ليس مُجَرَّدَ خاصيةٍ تجريديةٍ للأقوال، ينبغي أنْ نعالجَها في عِلْمِ الدلالة أو في نظرية الخطاب أو في نَحْو النَّصِّ، ولكنَّه ظاهرةٌ تأويليةٌ ديناميكيةٌ من الفهم المعرفيِّ، تتدخل فيها أنواعٌ عديدةٌ من المعارف الذَّاتية.

وذلك التَّرَابُطُ له أشكالُه ووسائلُه المختلفةُ، حيث إنَّ أشكالَه تكمُنُ في التَّرابُطِ الرَّصفيِّ، والتَّرابُطِ المفهوميِّ(١). أمَّا وسائلُه، فتكمنُ في إعادةِ اللَّفظِ ـ التَّضام ـ التَّعريف ـ الإحالَة ـ الاسْتِبْدَال ـ الحذف ـ الرَّبْط الرصفيّ(٢)، وهو ما يؤدِّي في النِّهاية إلى التَّرَابُطِ أو الاتِّساق؛ ومن ثَمَّ يكونُ نجاحُ النَّصِّ(٣)، ذلك التَّرَابُطُ أو الاتِّساقُ الذي عرَّفَه كلٌّ من هاليداي ورقية حسن بأنَّه "مفهومٌ دَلاليٌّ يشيرُ إلى علاقاتِ المعنى الموجودةِ في طيَّاتِ النَّصِّ، ويحدثُ عندما يعتمدُ تأويلُ عنصرٍ مَّا في الخطابِ على تأويلِ عنصرٍ آخَرَ، بمعنى أنَّه لا يمكنُ فكُّ شَفْرةِ الأوَّلِ على نَحْوٍ فاعلٍ، إلا بالتماسِ العَونِ من العنصرِ الآخرِ، عندها تنشأُ علاقةُ الاتّساقِ، ويكونُ العنصران متكاملَيْنِ بالقوةِ على الأقلِّ في نَصٍّ مَّا. وهذه إحدى الطرائقِ لتقريبِ مفهومِ الرَّابطِ"(٤)، وهو ما وُجِدَتْ ملامُحُه عند القدماءِ العربِ، النَحْويينَ،

(١) يُنْظَر : النَّصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص ١٢٧، ١٧١، ٣٠٠، ونَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدرس النَّحْويِّ ص ١٠٣ – ١٠٥، والبيان والتبيين، ، للجاحظ ت ٢٥٥ هـ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥ م، ١/ ٦٧، ومدخل إلى عِلْم النَّصِّ "مشكلات بناء النَّصِّ" زتسيسلاف واورزنياك، ترجمة د. سعيد بحيري، الطَّبْعَة الأولى، مؤسسة المختار، ٢٠٠٣ م، ص ٦٠ حيث إشارتُه إلى أنَّ نَحْو النَّصِّ هو الذي يصف وسائل التَّعبير المسؤولة عن عملية تشكيل النَّصِّ .

(٢) يُنْظَر : نَحْوُ النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدرس النَّحْويِّ، ص ١٠٥ – ١٢٩، وتحليل الخطاب الشِّعري من منظور اللِّسانيّات النَّصِّيَّة، تحوُّلات الخطاب النَّقدي المعاصر، أحمد مداس بن عمار، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٦ م، ص ٤٩٥ .

(٣) يُنْظَر: دورُ نَحْو الجملة في تفسير النَّصِّ، د.ليلى يوسف حميد يوسف، ضمن كتاب "العربية بين نَحْو الجملة ونَحْو النَّصِّ"، المؤتمر الثالث للعربية والدِّراسات النَّحْويَّة بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٢٣٢ حيثُ الحديثُ عن شروط نجاح النَّصِّ، فقد حَصَرَتْهَا في التَّناسق والانسجام الصوتي داخل النَّصِّ، والتَّماسك الدَّلاليّ، وهو الوجه الآخَرُ الضِّمنيُّ للترابطِ النَّحْويِّ، وموافقة السِّياق، وقبول المعلومات والمعارف المُتضمنة في النَّصِّ .

(٤) الاتِّساقُ في العَربيَّة" دِرَاسَةٌ في ضَوءِ عِلْمُ اللُّغَة الحَديث"، جبار سويس حنيحن الذهبي، رسالة ماجستير، بكلية الآداب، جامعة المستنصرية، العراق، ٢٠٠٥ م، ص ٤٨، ويُنْظَر:

Halliday (M.A.K.) and Ruqaya Hassan,(1976) Cohesion in English ,Longman, New York, ,p.2,and see ,p.11

واللُّغويينَ، والبلاغيينَ، والمفسِّرينَ، والشُّعراء، والكُتَّاب، وشُرَّاحِ الدوواينِ والقصائدِ الشِّعريَّة، وكتبِ الأمالي، والاستدراكات، والإغفال(١).

لكنْ ما دورُ القارئ أو المُحلِّلِ تجاه مَا يستخدمُهُ المُتكلِّمُ أو الكاتبُ منْ وسائلِ التَّرابط النَّصِّيِّ أو الاتِّساق أو التَّماسُك، سواءٌ أكان النَّصُّ أو الخطابُ نثرًا أم شعرًا ؟

إنَّ ذلك يكمنُ في إدراكه كيفيةَ ذلك التَّرابُطِ النَّصِّيّ ـ من خلال مجموعةٍ من الوسائل، منها الإحالةُ والاستبدالُ اللَّذانِ سيقتصرُ البحثُ عليهما، على سبيل المثال، طلبًا للإيجاز ـ من خلال النَّصِّ أو المقام(٢)، وبيان ذلك التَّرابطِ مُرتبطًا بموضوع النَّصِّ؛ ومن ثمَّ كان ما كان من تحليلاتٍ، تتَّصل بمظاهرِ التَّرابُط، لدى المُفسِّرين وشُرَّاح الدَّواوين الشِّعريَّة، ومؤلِّفي كُتب الأمالي، وغيرهم؛ من مُنطلق أنَّ النَّصَّ مُوجَّهٌ للمُتلقِّي، الذي يستطيعُ فَكَّ رموزه.

وبناءً على ذلك، فإنَّ إقبالَه على نصٍّ من النصوصِ مُتناولاً إيَّاه في ضوءِ نَحْوِ النَّصِّ أو لسانياتِ النَّصِّ ما كان ليأخذَهُ إلا أنَّه وجدَ فيه استخدامَ وسائلِ التَّرابُطِ النَّصِّيّ (الإحالة، والاستبدال، والحذف، والتكرار... إلخ) استخدامًا ملحوظًا، واستشْعَرَ فيه مظاهرَ الانسجامِ النَّصِّيِّ ـ سواءٌ منها ما يتعلَّقُ بمُنشئِ النَّصِّ أو مُتلقِّيه ـ وهي السَّبكُ، والحبكُ، وغيرُ ذلك، ممَّا سبق ذِكْرُه.

ولَمَّا كانت تلك المظاهرُ في نظرنا ونظرِ المُهتمين بالدراسات النَّصِّيَّة يتصلُ بعضُها

---

(١) يُنْظَر : الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطَّبْعَة الثانية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨ م، ٢ / ١٤ ـ ١٥ حيثُ حديثُه عن بَدَلِ المعرفةِ من النَّكرةِ وبدلِ المعرفة من المعرفة، والمقتضب، للمُبَرِّد، تحقيق محمد عبد الخالق عُضَيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطَّبْعَة الثَّالثة، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤ م، ٤ / ٢١١، وشرح الرَّضِيِّ على الكافية، للرضي الاستراباذى، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، جامعة بنغازي، ليبيا، ١٩٧٨ م، ٢ / ٣٨٠ ـ ٣٨١، ٤٧٢، والاتِّساقُ في العَربيَّة" دِرَاسَةٌ في ضَوءِ عِلْم اللُّغَة الحَديث " ص ٤٨، ص٧٦ ـ ١٠٥ حيثُ حديثُه عن وسائلِ الاتِّساقِ في الكلامِ العربيِّ.

(٢) يُنْظَر: نَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدرس النَّحْويِّ، ص ١١٧ .

بُمنتجِ النَّصِّ أو مُتلقيه (القصد والقبول)، فإنَّه من الجديرِ بالذِّكرِ أنَّ بعضَها يتَّصلُ بالأسلوبية (التناص)، وبعضُها (المقامية والإعلام) يتَّصلُ بالبلاغة، وذلك يوضِّح لنا أنَّ نَحْو النَّصِّ نَحْوٌ هجين، يتكونُ من مجموعةٍ من الفروعِ اللُّغويَّة والأدبيَّة والنَّقديَّة والنَّفسيَّة، أي أنَّ وَصْفَ الأشكال النَّصِّيَّة أو الأبنية النَّصِّيَّة وتحليلَها، وبيانَ العلاقاتِ النَّصِّيَّة، يكونُ من خلال الاستنادِ على مجموعةٍ من المُقاربات، من خلال علومِ البلاغة، والنَّقد، والأسلوبيَّة، واللسانيات العامَّة، واللِّسانيات الاجتماعيَّة، وعِلْمِ النفسِ (المعرفيِّ والإدراكيِّ)، والسيميائية، والتداوليَّة؛ لأنَّ القاسمَ المُشْتَرك بين هذه العلومِ والمعارف هو النَّصُّ(١)؛ ومن ثَمَّ لا يُسْتغربُ توظيفُ المُتلقي أو المُحلِّلِ مُعطًى أسلوبيًّا مَّا، أو توظيفه مُعْطًى تداوليًّا مَّا ـ على سبيل المثال ـ هُنا أو هُناك؛ من أجْلِ بيانِ دورِ التَّرَابُطِ أو التَّماسُكِ أو الاتِّساقِ في نصٍّ مَّا، من خلال وسائله المُختلفة أو بعضِها، على نَحْو ما تُطالعنا به كثيرٌ من الدِّراساتِ النَّصِّيّة النَّظريةِ والتَّطبيقية(٢)، التي يُشكلُ بحثي هذا امتدادًا لها، مُستفيدًا منها.

(١) يُنْظَر: السَّابق ص ٧٧، والنَّص والخطاب والإجراء :روبرت دي بوجراند ص ٣٠٠ حيثُ إنَّه هو صاحبُ الوصفِ بكلمة (هجين)، وعِلْمُ النَّصِّ "مدخل متداخل الاختصاصات"، فان دايك، ترجمة د.سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠١ م، ص ١٤– ١٥، وعِلْمُ لُغَة النَّصِّ المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري ص ١٢٤–١٢٦، والعلاماتية وعِلْمُ النَّصِّ، إعداد وترجمة د. منذر عياشي ص ١٨٨ حيثُ الإشارةُ إلى أنَّ النَّصَّ نظامٌ مُتداخل العلوم، ويُنْظَر: عِلْمُ النَّصِّ "تحريات في دلالة النَّصِّ وتداوله"، فهيمة لحلوحي، مجلة كلية الآداب واللغات، العدد العاشر والحادي عشر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ٢٠١٢ م، ص ٢٢٧–٢٢٨، ولسانيات النَّصِّ "نَحْو منهجٍ لتحليل الخطاب الشعري، د. أحمد مداس، عالم الكتب، إربد، الأردن، الطَّبْعَة الثانية، ١٤٣٠ هـ– ٢٠٠٩ م، ص ٤–٥ حيثُ إشارتُه إلى الجَمْعِ بين المناهجِ النقديَّةِ الحديثةِ في اللسانياتِ النَّصِّيَّة؛ لاشتراكها في العنصر اللِّسانيِّ، ودراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، د. سعيد حسن بحيري، ص ٩٤، ١٦٣، وعناصر السَّبك بين القدماء والمحدثين، د. نادية النجار، ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النَّحْوية "العربية بين نَحْو الجملة ونَحْو النَّصِّ، دار العلوم، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٥٦٤ .

(٢) فيما يتَّصل بهذه الدراسات يُنْظَر على سبيل المثال: الدَّلالة والنَّحْو، د. صلاح الدين حسنين ص ٢٣٢–٢٥٢، والعلاماتية وعِلْمُ النَّصِّ، إعداد وترجمة د. منذر عياشي، ص ١٦٦–١٩١، وبنية النَّصِّ في سورة =

وإنْ أنْسَ لا أَنْسَى قولَ القائلِ "ويُمكنُ لعلْم النَّصِّ عند مُمارسة تحليلِ النصوصِ الأدبيَّة الإفادةُ منْ جميعِ المُنجزاتِ التي حقَّقتْها الأسلوبيةُ والبلاغةُ والشِّعريةُ الحديثةُ، بالإضافة إلى المقولاتِ التَّنظيميَّة النَّصِّيَّة "(١).

هذا، وقد كثُرت الدِّراساتُ والأبحاثُ في مجالِ التَّرابُطِ النَّصِّيّ أو نَحْوِ النَّصِّ أو علْمِ النَّصِّ أو التَّماسُكِ أو اتِّساقِ النَّصِّ، بين النَّظريَّة والتَّطبيق في النَّثرِ والشِّعرَ، سواءٌ أكانت رسائلَ جامعيةً أَمْ أبحاثًا ومقالاتٍ في المجلَّاتِ والدورياتِ العلميَّةِ المُحكَّمَة أَمْ مقالاتٍ، نطالعُها على شبَكَة المعلوماتِ الدَّوليَّة، ممَّا يضيق المقام بذكرها . يُضاف إلى ذلك الندواتُ والمؤتمراتُ التي عُقدَت في مجال اللسانيات عامَّةً ومجال نَحْوِ النَّصِ خاصة، لاسيَّما المؤتمرُ الدوليُّ الثَّالث بكليةِ دار العلومِ، بجامعة القاهرة، الموسومِ بعنوانِ " العَرَبيّة بين نَحْو الجُمْلَة ونَحْو النّصّ"، المُنعقد يوميّ ٢٢، ٢٣ / ٥ / ٢٠٠٥ م، فقد اشتملت توصياتُه على ضرورةِ الإفادةِ من مُعطيات علْم النَّصِّ في قراءة النصوصِ الإبداعية قراءةً مُتكاملةً، وتوجيه النَّقد العربي الحديثِ في ضوء هذه النَّظرةِ المُتكاملة(٢)، وهو ما دعت إليه كثيرٌ من الأبحاث المعنية بالتَّرَابُط النَّصِّيِّ ووسائله في نَحْو النَّص(٣)، بالإضافة إلى غيره من

= الكهف "مقاربةٌ نصيَّة للاتِّساق والسِّياق، شعيب محمودي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٠ م، وأثرُ التكرار في التماسُكِ النَّصِّيِّ "مقاربة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات د.خالد المنيف، د. نوال بنت إبراهيم الحلوة، مجلة جامعة أم القرى، العدد الثامن، السعودية، مايو ٢٠١٢ م، والاتِّساق في الخطابِ الشِّعري "من شموليةِ النَّصِّيَّة إلى خصوصية التَّجربة الشعريَّة"، إبراهيم بشار، مجلة المخبر، العدد السادس، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ٢٠١٠ م، والإحالة بالضمائر ودورها في تحقيق الترابط في النَّصِّ القرآني، نائل محمد إسماعيل، مجلة جامعة الأزهر، مج ١٣، ع ١(B)، غزة، فلسطين، ٢٠١١ م، ص ١٠٦١ – ١١٠٠ .

(١) بلاغة الخطاب وعلْمُ النَّصِّ، د. صلاح فضل، ص ٢٥٠ .

(٢) يُنْظَر: العربية بين نَحْو الجملة ونَحْو النَّصِّ "كتاب المؤتمر الثَّالث للعربية والدراسات النَّحْوية"، كلية دار العلوم، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ص ٩٨٨ .

(٣) يُنْظَر على سبيل المثال: الإحالة في نَحْو النَّصِّ "دراسة في الدلالة والوظيفة "مع التطبيق على مجموعتين =

المؤتمرات الدَّولية المُنْعقِدَةِ في تحليل النَّصِّ أو الخطاب، وما تزامن مع إنجازِ هذا البحثِ وتنقيحه، مِنْ إعلانٍ عن مؤتمراتٍ قادمَةٍ، تضمَّنت محاورُها الدِّراساتِ النَّصِّيةَ التَّطبيقيةَ، نَحْوُ المؤتمر العلميّ الدوليّ الثاني، لقسم اللُّغة العربية، بكلية الآداب، بجامعة الزيتونة بالأردن، والمُعنون بالنَّصِّ بين النظريَّات النَّقدية واللِّسانيات الحديثة، والمُزمَعِ عَقْدُه في ٣٠-٣١ أكتوبر ٢٠١٣ م، لاسيَّما المحورُ السَّادسُ منه "لسانياتُ النَّصِّ ومقارباتها العِلْميَّة "، وكذلك المؤتمر الأول لقسم اللغة العربية بكلية الألسن ، بجامعة عين شمس، والمُعنوَنِ بالدِّراسات العربيَّةِ في عالَمٍ مُتغيِّرٍ، في ٢٥ -٢٧ نوفمبر ٢٠١٣م، وهو ما يَدْعَمُ بدوره مشْروعية هذا البحث، ويَنْفي عنه القولَ بأنَّ ما قِيلَ هُنا يُمكنُ أنْ يُقالَ عَنْ أيِّ كاتبٍ أو شاعرٍ، مِنْ مُنْطَلَقِ أنَّ لكلِّ نَصٍّ خُصوصيَّتَهُ.

وبعدُ، فقد كان ـ فيما تقدَّم ـ ما يمكنُ اعتباره مدخلاً منهجيًّا لموضوع بحثي، مُشيراً إلى أنَّ باعثَ مَوضعِ تطبيقه ما قام به مَجْمَعُ اللُّغةِ العربيَّة بطرابلس، بليبيا، فقد عَقَد ندوةً حول أعمالِ الشَّاعر والنَّاقد والمؤرِّخ والمُترجم خليفة مُحمد التِّلِّيسيّ يوم ٢٢/ ١١/ ٢٠١٠ م؛ مِنْ باب مَا يُعدُّ تأصيلاً لأعمال هذا الرَّجل فوق كونه اعتزازاً برصيده، ضِمْنَ الاعتزاز برصيد أُمَّتنا العربيَّة؛ ومن ثَمَ كان التَّفكير في الولوج إلى شعر هذا الشَّاعر، الذي يُعدُّ ظهوره في ليبيا والوطن العربيّ ظاهرةً أدبيةً فريدةً، من جهةِ انطلاقه من اللُّغة، فلم تكن التَّجربَةُ لديه نقطةَ انطلاقٍ بقَدْرِ ما كانت اللُّغةُ نفسُها بداية هذا الانطلاق، على نَحْو يبيِّن أنَّ النَّحو عِلْمٌ نصِّيٌّ، وأنَّ اللُّغة لديه هي مادتُه التي يبدعُ بها معانيه إبداعًا، وأنَّها غايتُه التي يهدفُ إلى نَقْلِها في تراكيبه وألفاظه؛ ليشكِّلَ بها عمليةَ الإبداعِ الشِّعريِّ لديه.

= قصصيتين، د. أحمد عفيفي، ضمن كتاب "العربية بين نَحْو الجملة ونَحْو النَّصِّ"، المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النَّحْوية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٥ م ، ص ٥٥٧ .

وفي إطار التَّعريف بهذا الرَّجل (خليفة محمد التِّلِّيسيّ) أقولُ :كان مولدُه بطرابلس في ٩ / ٥ / ١٩٣٠ م، وكانت وفاته يومَ الأربُعاء ١٣ / ١ / ٢٠١٠ م، وأنهى دراستَهُ النِّظاميةَ سنة ١٩٤٨م. وهو حاصلٌ على شهادة الدراسة الثانوية، ودبلوم التعليم، والدكتوراه الشَّرفية من جامعة نابولي (معهد الدراسات الشرقية) . ولقد عمل بالتدريس في مطلع حياته، منذ عام ١٩٤٨ م حتَّى ١٩٥١، ثُم عَمِل موظَّفًا إداريًّا بمجلس النواب سنة ١٩٥٢، ثم أمينًا عامًّا له سنة ١٩٦٢، فوزيراً للإعلام والثقافة من عام ١٩٦٤ حتَّى ١٩٦٧م، ثم سفيراً لدى المغرب سنة ١٩٦٨م، وتولى رئاسة اللَّجنةِ العليا للإذاعة ، وعُيِّن رئيساً لمجلس إدارة الدَّار العربيَّة للكتاب سنة ١٩٧٤م، واختير أمينًا لاتحاد الأُدباء والكتَّاب الليبيين، وانتُخِب نائبًا للأمين العام لاتِّحاد الأُدباء العرب سنة ١٩٧٨م، واختير سنة ١٩٨١م أمينًا عامًّا للاتحاد العام للناشرين العرب، وكان عضو رابطةِ الأدباءِ والكُتَّاب بليبيا، وأوَّل رئيسٍ لها، كما كان عضو مجمع اللُّغة العربيَّة بكلٍّ من ليبيا، والأردن، وعضو المجلس التأسيسيّ للموسوعةِ العربيَّة، بالمنظمة العربيَّة للتَّربيةِ والثَّقافةِ والعلوم، وشارك في رئاسة وَفْدِ مؤتمراتِ الأدباءِ العربِ في ليبيا وتونس والجزائر، وشارك في مؤتمرات الكويت والمغرب ...إلخ.

وقد وصلت مؤلفاتُه المنشورةُ إلى ما يربُو على أربعين مؤلَّفًا، بالإضافة إلى مخطوطِه المُسمَّى بالنَّفيس، وهو معجمٌ لغويٌّ في عدة أجزاء، وهذه المؤلفات في مجالات الشِّعر، والتاريخ، والترجمة، والقصة.

ومن أهمها: الشَّابي وجُبران، طرابلس ١٩٥٧م، ورفيق شاعر الوطن، المطبعة الحكومية، طرابلس ١٩٦٥م، وقصيدةُ البيت الواحد، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٠م، ومُعجم معارك الجهاد في ليبيا، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٢م، وكراسات أدبية، الدَّار العربيَّة للكتاب، تونس ١٩٧٥م، ومُختارات من روائع الشِّعر العربيّ،

الدَّار العربيَّة للكتاب ١٩٨٣م في جزأين، ومعارك الجهاد من خلالِ الخطط الحربية الإيطاليةِ، الدَّار الجماهيرية ١٩٨٠م، ومُختارات خليفة التِّلِّيسِيّ، من روائع الشِّعر العربيّ، توزيع الدَّار العربيَّة للكتاب ١٩٩١م، في أربعةِ أجزاء، وليبيا منذ الفتح العربيِّ حتى سنة ١٩١١م، (ترجمة)، دار الثقافة ١٩٧٤م، وحكاية مدينة ، الدَّار العربيّة للكتاب، تونس، ١٩٨٥م، وديوان خليفة محمد التِّلِّيسِيّ، الدَّار العربيّة للكتاب، تونس – ليبيا ١٩٨٩م(١).

هذا، وقد لفت انتباهي ديوانُه هذا، حيثُ الشُّعورُ بأنَّه يمثِّل ظاهرة أدبيَّة في ليبيا والوطن العربي، تستحقُّ الوقوفَ أمامها مليًّا، والشُّعورُ بأنَّ اللُّغةَ لديه هي مادةُ تجربته، يبدعُ فيها على نَحْوٍ، يتَّضح من خلاله امتلاكُه ناصيةَ التَّعبيرِ وأدواتِ التَّرابُطِ أو الاتِّساقِ أو التَّماسُكِ النَّصِّيِّ، مُضافًا إلى ذلك اهتمامُ مجمعِ اللُّغة العربيَّة بطرابلس به عاقدًا ندوتَه المُشار إليها آنفًا، بجانبِ كونه مجالاً لكثيرٍ من أبحاث الماجستير والدكتوراه بجامعات الوطن العربي، يتَّضح من خلالها أنَّها لا تتعارضُ مع هذا البحثِ؛ ومن ثَمَّ اخترتُ ديوان التِّلِّيسِيّ كُلَّه مجالاً للتَّطبيق، بعدما اتَّضح لي أنّه لا توجد قصيدةٌ واحدةٌ أو قصيدتان، تتركَّز بهما ضروب الإحالة المُختلفة، وكذلك الاستبدال بضروبه المتنوِّعة، وهو ما يُعدُّ مُبرِّرًا - من وِجهة نظري - لقائلٍ مَّا، يمكن أنْ يقولَ: "تمنَّيْتُ أنْ لو انقطَعْتَ لقصيدةٍ واحدةٍ كاملةٍ ترى فيها نَصَّانيةَ

(١) يُنْظَر: خليفة محمد التِّلِّيسِيّ ناقدًا وأديبًا، مصطفى محمد جحيدر، الدَّار الجماهيرية للنشر والتوزيع، مصراتة، ليبيا، الطَّبْعَة الأولى، ١٩٨٦ م، ص١٣ –٣٣، وخليفة محمد التِّلِّيسِيّ، ثبتٌ ببوغرافيٌّ، مجلة الفصول الأربعة، رابطة الأدباء والكتاب بليبيا، ملف العدد (خليفة التِّلِّيسِيّ)، العدد ٦٦، ١٩٩٢ م، ص ١٧٦– ١٩٢، وهنا أُشيرُ إلى أنَّني شاركتُ بمؤتمرِ مجمعِ اللُّغة العربية بطرابلس في بدايةِ الأمرِ بمقالةٍ، بعنوان "نَحْو النَّصِّ من خلال الإحالة والاستبدال في ديوان خليفة التِّليسي "، ثُم اختُصرت إلى "نحو النَّصِّ من خلال الإحالة في ديوان خليفة التِّلِّيسِيّ "، لكنَّها لم تُنْشر، ولم تَرْقَ إلى كونها بحثًا، وبناءً على أنَّ هذا لا يتنافى مع مَا نحن بصدَده في هذا البحث، أردت إكمالَ هذا الموضوع، بحيثُ يكونُ بحثًا مُكتملَ الأركانِ، فكانَ على ما هو عليه الآن.

النَّصِّ رَأي العينِ أو لقصيدتين متواردتين، تستوضحُ بينهما تلك النَّصانيةَ على أصدق مَا تؤدِّيه الموازنةُ.

ولَّما كان التَّحليل في ضوء ما تقدَّم عرْضه "عملية فكِّ البناء لغويًّا وتركيبيًّا من أجْلِ إعادةِ بنائه دلاليًّا، وهذا يستدعي ضرورةَ تحديد الأجزاء المُرادِ تحليلُها "(١)، فإنَّه آن الأوانُ أنْ أُشيرَ هُنا إلى قَصْرِ تناولي هذا الديوان على الإحالَة والاسْتِبْدَال - وهو ما لم يتضمَّنُه عُنوانُ البحث؛ رجاءَ الإيجازِ والاختصارِ - مُبَيِّنًا دَورَهما في التَّرَابُط النَّصِّيِّ، فكان عنوانه " التَّرَابُطُ النَّصِّيُّ في شِعْرِ خليفة التِّلِّيسيّ، دراسةٌ تطبيقيَّةٌ في ضَوءِ نَحْوِ النَّصِّ "، مُبْتغيًا من ورائه محاولةَ تَلَمُّسِ التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ، من خلالِ الإحالَةِ والاسْتِبْدَال، وأثر ذلك التَّرَابُط في المعنى النَّصِّيِّ أو البِنْيةِ الكُبرى، بشِعْرِ خليفة التِّلِّيسيّ، أي بيانُ دورهما في الاسْتِمْراريَّة الدَّلاليَّة أو تعليقِ الكلامِ بعضُه ببعض، وكيفيةِ فَهْمِ المُتلقِّي هذه الاستمراريَّة الدَّلالية، وذلك في ضوءٍ ممَّا كتبه القدماءُ والمحدثون؛ ومن ثَمَّ محاولةُ فَهْمِها وتفسيرِها من خلال مكوناتِها؛ بالاعتمادِ على المادةِ نفسها، التي تكوَّنَ منها النَّصُّ الشِّعريُّ، من خلال الوسيلتين المُحددتين (الإحالَة والاسْتِبْدَال)(٢)؛ ومن ثَمَّ يمكنُنا صياغةَ مُشكلة هذا البحث في السؤالين التَّاليين:

---

(١) الإبداع الموازي :التَّحليل النَّصِّيِّ للشِّعر، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للنَّشْر والتَّوزيع، القاهرة، ٢٠٠١ م، ص ١٥ .

(٢) يُنْظَر : السَّابق ص ١٦، ولَعلَّه من المُفيدِ الإشارةُ إلى أنَّ هذه الدِّراسةَ للتَّرابُطِ النَّصِّيِّ، باعتباره محورَ نَحْوِ النَّصِّ، من خلالِ الإحالةِ والاسْتِبدَالِ في ديوان خليفة التِّلِّيسيّ، لم تأتِ على جُلِّ ملامحِ التَّرابُطِ النَّصِّيِّ، فالأمرُ كما تبيَّن لي يحتاجُ إلى دراسةٍ شاملةٍ، مُسْتَفيضَةٍ – لا يُكَبِّلُها اشتراطُ المجلَّات العلْميَّة المُحَكَّمَة عدداً مُحدَّداً منَ الصَّفحاتِ – تُغطِّي جوانب هذا الموضوعِ، وتستوفي جميع أركانه، وبَسْطِ القول فيما اختُزِلَ بالإحالة عليه بهوامش البحث، فالديِّوانُ حريٌّ بالبحث والتَّأصيلِ، وقمينٌ بالرَّصد والدَّرْس والتَّحليلِ، مُعربًا عن شرعيَّة بَحْثِ وسائلِ التَّرابُطِ النَّصِّيِّ به، فلعلَّ الله يُحْدِث بعد ذلك أمرًا، ويقيِّضُ مَنْ يُكمِلُ مَا بُدِءَ، ويَبْني عليه، ويقوِّمُ اعوجَاجَهُ، ويوضِّحُ مُبهَمَهُ.

٣- هل ثَـمَّة دورٌ لـكلٍّ من الإحالةِ والاستبـدالِ في تحقُّق سِـمَة النَّـصِّيَّـة أو التَّرَابُط النَّصِّيِّ في شِعْرِ خليفة التِّلِّيسِيّ؟

٤- هل يصلُح ديوانُ خليفة التِّليسيِّ لأنْ نختبرَ على مَحكِّه مقولات نَحْو النَّص مُتمثِّلةَ في التَّرَابُط النَّصِّيِّ من خلال الإحالة والاستبدال موضوع البحث؛ ومن ثَمَّ نتمكنُ من إعادة بناء النَّصِّ وبَعثه، من خلال إبرازِ شبكة العلاقات داخلَه؟(١).

أمَّا عن المنهج المُتّبع في هذا البحث، فهو المنهجُ الوصفيُّ الاستقرائيُّ التَّحليليُّ لدور كلٍّ من الإحالَة والاسْتِبْدَال في الدِّيوان عن طريق عددٍ من الأمثلة ـ وذلك من خلال استقرائه قراءةً كاملةً أكثر من مرَّةٍ؛ لبيان مدى توظيف الشَّاعر لهما، ودورهما في تحقُّقِ النَّصِّيَّة ـ ومن ثَم اتِّضاحُ الصورة لدى المُتَلَقِّي، لاسيَّما أنَّ ما يقومُ به الشَّاعرُ في سبيل بناء قصيدته وإنتاج نصِّه ليس عبثًا، بل يجرى موازنةً دقيقةً بين التَّراكيب بناءً على ما في ذِهْنه مِنْ بدائلَ لغويةٍ، جاعلاً ذلك هدفًا شخصيًّا(٢).

(١) يُنْظَر: دور نَحْو الجملة في تفسير النَّصِّ، د. ليلى يوسف حميد يوسف، ص ٢٣٨ حيثُ ترى أنَّ الهدفَ الذي يسعى إليه التحليلُ النَّصِّيُّ أكبرُ من مُجرد استقراء معايير وقواعد مُعينة لضبط النَّصِّ، وإنَّما هو إعادة بناءٍ وتشكيلٍ وبَعْثٍ للنصِّ من خلال إبرازِ شبكة العلاقات والخطوط الدقيقة داخل النَّصِّ.

(٢) يُنْظَر: النَّصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص ٤٢٤، والتَّفكير اللِّسانيُّ في الحضارة العربيّة، د. عبد السلام المسدي، الدَّار العربيَّة للكتاب، طرابلس- تونس، ١٩٨٦م، ص ٣٠٩، وهكذا تكلم النَّصُّ، د. محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ص ٣٠، والجملة في الشِّعر العربيّ، د. محمد حماسة عبد اللطيف، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٩٩٠م، ص ٩٧، ١٢٧، ١٣١، وبناء الجملة العربيَّة، د. محمد حماسة، دار الشروق، القاهرة، الطَّبْعة الأولى، ١٩٩٠م، ص ٢٥٠، والتَّضمين العروضي في الطويل وبناء شعر الأعشى " دراسة نصية في ضوء العلاقات النَحْويّة الرَّأسية والأفقية ، د. فايز صبحي عبد السلام تركي، مجلة الثقافة والتنمية ،المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، يوليو ٢٠٠٣ م، ص ٦٣، والبديع في عِلْم العربيّة، ابن الأثير ت ٦٠٦ هـ، تحقيق ودراسة د. فتحي أحمد عليّ الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطَّبْعَة الأولى، ١٤٢١ هـ، الجزء الأوَّل، المجلد الثاني ص٣٢٠، ويُنْظَر Halliday (M.A.K.) and Ruqaya Hassan,(1976) Co-hesion in English ,Longman, New York, ,p.1 حيثُ إشارةُ كلٍّ من هاليداي ورقية حسن إلى أهمية المتلقي، ويُنْظَر: الاتِّساقُ في العَربيَّة "دِرَاسَةٌ في ضَوءِ عِلْم اللُغَة الحَديث"، جبار سويس، ص ٢٣٥ هامش ١.

ولكي أضعَ الأمورَ في نصابِها في إطارِ الحديث عن المنهجِ أُشيرُ إلى أنَّه من المعلوم إجرائيًّا عرْضُ مُلخصٍ دلاليٍّ للموضعِ المُمَثَّل به؛ يُدْرَكُ منه كُنْهُ موضعِ الإحالة أو الاستبدال، وأثرُه في النَّصِّ، وهو ما يمكنُ أنْ يكونَ مُحفِّزًا لقائلٍ مَّا ـ على نَحْو ما نقرأ في ملاحظات بعض مُحكِّمي الأبحاث ـ أنْ يقول: إنَّ الكلامَ في هذا الموضعِ أو ذاك من قبيلِ نَثْرِ مضمونِ الأبياتِ المُمَثَّلِ بها على نَحْوٍ لا يفيدُ في بيانِ أثرِ الإحالة أو الاستبدالِ في التَّرابُط.

فأقولُ: إنَّ ذلك النَّثرَ أو التقديمَ أو التَّلخيصَ للنَّصِّ مرْجعُهُ مراعاةُ وَصْفِ أهدافه، في إطارِ بنيتِه الكبرى التي تُوصَفُ بأنَّها ذاتُ طبيعةٍ دلاليَّة، وهو ما يُسهمُ في كَشْف أبنيته، تلك البنيةُ الكُبرى هي التي تصفُ الانسجامَ الدَّاخليَّ الذي هو استمرارٌ على مستوى المعنى، ذلك المعنى المُشتملُ على المفاهيمِ والعلاقاتِ التي تُقابلُها مفاهيمُ وعلاقاتٌ في معرفتنا للعالَم(١). وربَّما لن أكونَ مُستطرِدًا إذا

(١) يُنْظَر: بلاغة الخطاب وعلْمُ النَّصِّ، د.صلاح فَضْل ص ٢٤١، ودراسات لغوية تطبيقية، د. سعيد بحيري ص ١٦٣ ويُنْظَر به أيضًا على وجه العموم ص ٩٣– ١٦٣، وعِلْمُ لُغَة النَّصِّ المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري ص ١٣٠ – ١٣٢، والعلاماتية وعِلْمُ النَّصِّ، إعداد وترجمة د. منذر عياشي ص ١٥٨ – ١٦٦، والإحالة في نَحْو النَّصِّ، د.أحمد عفيفي ص ٥٤٦ – ٥٥٦ وما بعده حيثُ التَّطبيقُ، ولسانيات النَّصِّ أو "لسانيات ما بعد الجملة وما قبل الخطاب"، كورنيليا فون راد صكوحي، ضمن كتاب "مقالات في تحليل الخطاب"، تقديم حمادي صمُّود، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، ٢٠٠٨ م، ص ٦٥، والمسافة بين التنظير النَّحْوي والتطبيق اللغوي، د. خليل عمايرة، دار وائل، عمان، الأردن، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠٤ م، ص ٣٥٧ حيثُ حديثُه في الفصلِ المُعنونِ بـ" من نَحْو الجملة إلى نَحْو النَّصِّ" عن المكنونِ المعرفيِّ المقصودِ به أكثر من إطارٍ، مِمَّا له أهميةٌ في فهمِ النَّصِّ أو إعادةِ بنائه، كما له أهميةٌ في إبداعِ النَّصِّ وإنتاجه. ومن هذه الأطرِ مخزونُ الفردِ المُبدعِ أو المُتلقي من المعلومات حول موضوعِ البناء النَّصِّيِّ، فما أنْ يقرأ أو يسمع شيئًا عن هذا الموضوعِ حتَّى تبدأ هذه المعلومات بالتَّدخلِ لصُنعِ صورة أو وضْعِ بُعدٍ لفهم المُتلقي. ويُنْظَر: عِلْمُ اللُّغَة النَّصِّيّ بين النظرية والتطبيق، د. صبحي الفقي ص ١ / ٥٦ حيثُ إشارتُه إلى التحليلِ، بإبراز دور الرَّوابط المُسهمة في تحقيق التماسُك النَّصِّيِّ مع العناية بالسِّياق والتَّواصلِ، ويُنْظَر: التَّرابط النَّصِّيّ في رواية النداء الخالد، لنجيب الكيلاني "دراسة تطبيقية في ضوء لسانيات النَّصِّ"، عيدة مسبل العمري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، السعودية، ١٤٣٠ هـ، ص ١٠٩– ١١٠.

استأنستُ بقولِ الدكتور صلاح فضل: "وإذا كانت البنيةُ الكُبرى للنَّصِّ ذاتَ طبيعةٍ دلاليَّةٍ كما رأينا، وكانتْ مُتعلِّقةً ومشروطةً بمدى التَّماسك الكلِّيِّ للنَّص، فإنَّ الذي يُحدِّد إطارها نتيجةً لذلك هو المُتلقِّي؛ لأنَّ مفهوم التَّماسُكِ ينتمي إلى مجالِ الفَهمِ والتَّفسيرِ الذي يُضيفُه القارئُ على النَّص. ونتيجةً لأنَّ تأويل النَّصِّ من جانب القارئ لا يعتمدُ فحَسْبُ على استرجاعِ البياناتِ الدَّلاليةِ التي يتضمَّنها هذا النَّصُّ، بل يقتضي أيضًا إدخالَ عناصرَ القراءةِ التي يملكُها المُتلقِّي داخلَ ما يُسمَّى بكفاءةِ النَّصِّ أو إنجازه، فإنَّ نُظُمَ العقائدِ والأعرافِ والأبنيةِ العاطفيةِ، وما يُطلقُ عليه الشفرات المُساعدة، تُسْهِمُ كلُّها في صُنْعِ هذا التَّماسُكِ للخطابِ النَّصِّيِّ، ومعنى هذا أنَّ القارئ لا يقومُ فحَسْبُ بعمليةِ ترجمةٍ للبياناتِ الواردةِ دلاليًّا في النَّص، بل هو الذي يضعُ لها نوعَ الإطارِ الذي يراها من خلاله"(١).

فالتَّرابُطُ أو التَّماسكُ "خاصيَّةٌ دلاليَّةٌ للخطابِ تقومُ على فَهْمِ كلِّ جُمْلةٍ مُكوِّنةٍ للنَّصِّ وربْطِها بما يُفْهَمُ من الجُملِ الأُخرى"(٢)، وبناءً على ذلك فللقارئ "دورٌ فعَّالٌ في عمليةِ إنتاجِ النَّصِّ ذاتِها، فليست العلاقةُ بين النَّصِّ والقارئ علاقةً تسيرُ في اتجاهٍ واحدٍ"(٣). وفي هذا أيضًا يقول الدكتور صلاح الدين حسنين: "إنَّ

(١) يُنْظَر: بلاغة الخطاب وعِلْمُ النَّصِّ، د.صلاح فَضْل، الصَّفحة نفسُها، ويُنْظَر: نَحْو النَّصِّ في ضوء التحليل اللِّساني للخطاب، د.مصطفى النحاس، دار السلاسل، الكويت، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠١ م، ص ٤ حيث يرى أنَّ نَحْو النَّصِّ هو دراسةُ الوظيفة الدلالية لبعض العناصر النَّحْوية ورَبْطها بشبكة الدلالة في النَّصِّ.

(٢) يُنْظَر: بلاغة الخطاب وعِلْمُ النَّصِّ، د.صلاح فَضْل ص ٢٤٤، ويُنْظَر: أثر التكرار في التَّماسك النَّصِّيِّ، د.نوال بنت إبراهيم الحلوة، ص ١٦.

(٣) عِلْمُ لُغَة النَّصِّ المفاهيم والاتِّجاهات، د. سعيد بحيري ص ١٧٧، وحول "فَهْم النَّصِّ" يُنْظَر به أيضًا ص ١٦٢ – ١٩٠، والعلاماتية وعِلْمُ النَّصِّ، إعداد وترجمة د.منذر عياشي ص ١٧٤ – ١٨٠ حيثُ الحديثُ عن السياق الإدراكيّ: فَهْم النَّصوص، لاسيَّما ص ١٧٥، ويُنْظَر: الانسجام النَّصِّيُّ وأدواته، الطيب العزالي، مجلة المخبر "أبحاث في اللُّغَة والأدب الجزائريّ"، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد الثامن، ٢٠١٢ م، ص ٦٧ حيثُ الحديثُ عن عَلاقة التماسُكِ النَّصِّيِّ بالمُتلقِّي.

الاتِّساقَ يشرحُ طبيعةَ عِلْمِ النصوصِ بأنَّها نشاطاتٌ إنسانيةٌ، فالنَّصُّ لا يحقِّقُ معناه بنفسِه، ولكنَّه يحقِّقُ معناه بتفاعلِ المعرفةِ التي تُقدِّمُها النصوصُ مع المعرفةِ المُختزَنةِ لدى الشَّخصِ عن العالَم، وينتجُ عن هذا أنَّه يجبُ على "عِلْمِ لُغةِ النَّصِّ" أنْ يتعاونَ مع المعرفةِ السيكولوجيةِ؛ ليكتشفَ أمراً أساسيًّا كمعنى النَّصِّ"(١).

وترتيبًا على ما سبق، واستقرائي الدِّيوانَ، وفَهْمِيَ المتواضعَ، فقد تمثَّل لي البحثُ ـ بعد هذا المدخل ـ مُقسَّمًا على فصلين، كما يلي :

الفصل الأوَّل: الإحالَة ودَورُها في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ

ويتضمّنُ خمسةَ مباحثَ، هي :

المبحث الأوَّل: الإحالَة بالضَّمائر ودَورُها في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ:

المَطلبُ الأوَّل: الإحالَةُ الخارجيَّة .

المَطلَبُ الثَّاني: الإحالَةُ الدَّاخليَّة .

المبحث الثَّاني: الإحالَةُ بالموصولِ ودَورُه في التَّرَابُطِ النَّصِّيّ .

المَطلبُ الأوَّل: الإحالةُ بالموصولِ الاسميِّ المُختَص .

المَطلَبُ الثَّاني: الإحالةُ بالموصولِ الاسميِّ المُشْتَرك.

المَطْلَبُ الثَّالث: الإحالةُ بالموصولِ الحرفيِّ (أل) .

المبحث الثَّالث: الإحالَةُ بالإشارة ودَورُها في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ:

– المطلب الأوَّل: الإحالَةُ القريبة

– المطلب الثَّاني: الإحالَةُ الوسْطَى .

– المطلب الثَّالث: الإحالَةُ البُعْدى .

المبحث الرَّابع: الإحالَةُ بـ (أل) غيرِ الموصولةِ ودَورُها في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ.

المَطلبُ الأوَّل: أل العهديَّة.

---

(١) الدلالة والنَّحْو، د. صلاح الدين صالح حسنين، ص ٢٣٠ .

المَطلَبُ الثَّاني: أل الجِنْسيَّة .

المبحث الخامس: الإحالَةُ بالمقارنةِ ودَورُها في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ.

المَطلبُ الأوَّل: المُقارَنةُ العامَّة .

المَطلَبُ الثَّاني: المُقارَنَةُ الخاصَّة.

الفصل الثَّاني: الاسْتِبْدَالُ ودَورُه في التَّرَابُط النَّصِّيّ .

ويتضمّن ثلاثة مباحثَ، هي :

المبحث الأوَّل: الاسْتِبْدَالُ الاسميُّ ودَورُه في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ.

المبحث الثَّاني: الاسْتِبْدَالُ الفعليُّ ودَورُه في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ.

المبحث الثَّالث: الاسْتِبْدَالُ القوليُّ ودَورُه في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ.

هذا، وقد تُوِّجَ البحثُ بخاتمةٍ، مُنْهيًا إيَّاه بقائمةِ المصادرِ والمراجعِ، القديمةِ منها والحديثة.

الفَصْلُ الأوَّل

الإحالَةُ ودَورُها في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ

توطئةٌ:

تعدُّ الإحالَةُ ـ على نَحْوِ ما سبقَ بمدخلِ البحث ـ مِنْ وسائلِ التَّرابُطِ النَّصِّيِّ، نجدُ فيها مُحيلاً ومُحَالاً عليه، أي أنَّ " العناصرَ المُحيلةَ كيفما كان نوعُها لا تكتفي بذاتِها، مِنْ حيثُ التأويلُ، إذْ لابدَّ من العودةِ إلى مَا تُشيرُ إليه؛ مِنْ أجْلِ تأويلِها، وتتوفرُ كلُّ لُغةٍ طبيعيَّةٍ على عناصرَ، تملكُ خاصيَّةَ الإحالَة، وهي الضَّمائرُ وأسماءُ الإشارةِ وأدواتُ المقارنة "(١)، والأسماءُ الموصولةُ، وأدواتُ التعريف(٢). ولَّما كانت الإحالَةُ علاقةً دلاليةً بين الطرفين، فقد ذكرَ الدكتور محمد خطابي أنَّها " لا تخضعُ لقيودٍ نَحْويَّةٍ، إلاَّ أنَّها تخضعُ لقيدٍ دلاليٍّ، وهو وجوبُ تطابق الخصائصِ الدَّلاليَّةِ بين العُنصرِ المُحيل والعُنصُرِ المُحَالِ عليه"(٣).

وبناءً على ذلك يمكنُ القولُ: إنَّها علاقةٌ معنويَّةٌ بين ألفاظٍ أو أسماءٍ مُعيَّنةٍ وما

---

(١) لسانيات النَّصِّ، د.محمد خطابي، ص ١٦ – ١٧، ويُنْظَر : عِلْمُ اللُّغَة النَّصِّيِّ بين النظرية والتطبيق، د. صبحي الفقي ١ / ٣٨ – ٣٩، وكذلك:

A- Cohesion in English, p.33.

B- Raphael salkie , (1995) Text and discourse analysis ,Richard Hudson , London and New York ,p65.

(٢) يُنْظَر : نَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدَّرس النَّحْويّ، د.أحمد عفيفي ص ١١٨، والإحالة وأثرها في دلالة النَّصِّ وتماسكه، د. محمد محمد يونس علي، مجلة الدِّراسات اللُّغويّة، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلامية، السعودية، المجلد السادس، العدد الأول، المحرم – ربيع أول ١٤٢٥ هـ – أبريل– يونيه ٢٠٠٤ م، ص ١٥٩ – ٢٠٢ حيث تناولَ في بحثه هذا أقسامَ الإحالةِ المختلفة، ويُنْظَر أيضًا :عِلْمُ لُغَة النَّصِّ المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري ص ١٢٣، ودراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، د. سعيد حسن بحيري، ص ٩٦ .

(٣) لسانيات النَّصِّ ص ١٧، ويُنْظَر: الإحَالَة ودورها في التَّماسك النَّصِّيِّ رواية في سبيل التَّاج للمنفلوطي نموذجًا، دنيا بن قسمي، ص ٣٣ – ٣٧، وكذلك : Cohesion in English ,p p.31 -33

تُشيرُ إليه مِنْ مُسمَّياتٍ أو أشياءَ أو معانٍ أو مواقف ـ داخل النَّصِّ أو خارجه ـ يدلُّ عليها السِّياقُ أو المقامُ، عن طريق ألفاظٍ أو أدواتٍ مُحدَّدةٍ مُحيلةٍ، كالضميرِ واسمِ الإشارةِ واسمِ الموصولِ، والتَّعريفِ، والمقارنةِ، وتشيرُ إلى مواقفَ سابقةٍ أو لاحقةٍ في النَّصِّ، تُعطي معناها عنْ طريقِ قَصْدِ المتكلِّمِ أو الكاتبِ إلى ذلك التَّرابُطِ في سياقِه(١)، ومُعظمُ صورِها قائمةٌ على مبدأ (الاختصارِ)، حيثُ هي عَودٌ للضميرِ إلى مرجعٍ أو إشارةٍ إلى ذلك المرجعِ أو وَصْفٍ له بالموصولِ أو بوسيلةٍ أُخرى غيرِ الموصول(٢)؛ ومن ثَمَّ كانت المَقصديَّةُ "تعزيزَ مبدأ القَصْدِ اللُّغويِّ الدَّلاليِّ، أي أنَّك تُنْشئُ هذه الجُملةَ لقَصْدٍ مُحدَّدٍ أو لغايةٍ مُحدَّدةٍ، وهذا يعزِّز مسألة التَّكامُلِ الحاصلِ فيما بين النَّحو والدَّلالةِ، أو التَّركيبِ وهدفه "(٣).

وتنقسمُ الإحالةُ على نوعين رئيسين هُما:

١- الإحالَةُ الخارجيَّة Exophora، أو المقاميَّة Situational، وهي كما يرى هاليداي ورقية حسن: "تساهمُ في خَلْقِ النَّصِّ؛ من مُنطلَقِ أنَّها تربطُ اللُّغةَ بسياقِ المقام... لكنَّها لا تُسْهم في تماسُكِه بشكلٍ مباشرٍ "(٤)، وتكمن في "الأنماطِ اللُّغويَّة التي تشيرُ إلى الموقفِ الخارجيِّ عن اللُّغةِ، غير أنَّ هذا الموقفَ يشاركُ الأقوالَ اللُّغويَّة"(٥).

(١) يُنْظَر: النَّصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص ١٧٢، والإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٢٧، والإحالة بالضمائر ودورها في تحقيق الترابط في النَّصِّ القرآني، نائل محمد إسماعيل، ص ١٠٦٤.

(٢) يُنْظَر: مقالات في اللُّغَة والأدب، د.تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٦ م، ١/ ١٩٥.

(٣) العناصر المرجعية (الضميرية) في سورة الكهف دراسة نصِّية وظيفية، عبد المهدي الجراح، إبراهيم الكوفحي، ومحمد القضاة، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٥، ع ٣، الأردن، ٢٠٠٨، ص ٥٤١.

(4) Cohesion in English ,p37.

ويُنْظَر: لسانيات النَّصِّ، د. محمد خطابي ص ١٧.

(٥) عِلْمُ اللُّغَة النَّصِّيِّ بين النَّظرية والتَّطبيق، د. صبحي الفقي ١/ ٤١.

٢ – الإحالَةُ الدَّاخليّة Endophora، ، أو النَّصِّيَّة Textual، وتنقسمُ بدورها إلى إحالةٍ داخليَّةٍ أو قبليَّةٍ Anaphora؛ من منطلقِ أنَّها تُحيلُ على عنصرٍ سابقٍ، مُتلفَّظٍ به، فهي "نوعٌ من الإحالَةِ المشتركةِ يأتي فيه الضَّميرُ بعد مَرْجِعه في النَّصِّ السَّطحيِّ"(١). أمَّا القِسْمُ الآخرُ من هذه الإحالَةِ الدَّاخليَّة، فهو الإحالَةُ البَعْديَّةُ Cataphora، وفيها يُحالُ على عُنْصرٍ لاحقٍ في الكلام.

هذا، ومِنَ المعلومِ أنَّ الإحالة "قادرةٌ على صُنْعِ جسورٍ كُبرى للتَّواصلِ بين أجزاءِ النَّصِّ المُتباعدةِ والرَّبْطِ بينها رَبْطًا واضحًا، وهذا ما يؤكِّد أهميةَ الإحالةِ في الرَّبطِ النَّصِّيِّ"(٢). ولَّما كان ذلك كذلك، فإنَّ دورَ الإحالةِ لا يقتصرُ على الرَّبْطِ الرَّصْفيِّ، بل يتَّصلُ أيضًا بالرَّبْطِ المفهوميِّ، أي أنَّه "إذا كانت الإحالةُ مُرتبطةً بالنَّصِّ وكلماته، مِنْ حيثُ التَّرَابُطُ اللَّفظيُّ الملحوظ، فإنَّنا لا نغفلُ أنْ تكونَ الإحالةُ من قبيلِ التَّرَابُطِ المفهوميِّ، فهو الهدفُ والغايةُ، ومن هنا سنعطي لها أهميةً من هذين الاعتبارين، ولن نغفل مثلما فعله هاليداي ورقية حسن، من التَّركيزِ على الارتباطِ

(١) النَّصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص ٣٠١، ويُنْظَر: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدَّلالة، د. سعيد حسن بحيري، ص ٨٤–٩١، حيثُ الفصلُ المُعنونُ بـ "من أشكال الرَّبْط في القرآن الكريم" تضافر العناصر الإشارية والعناصر الإحالية في تماسك النَّص"، ونَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدَّرس النَّحْويّ، د.أحمد عفيفي ص ١١٦ – ١٢٢، ونسيج النَّصِّ "بحث فيما يكون الملفوظ به نصاً"، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربيّ، الدَّار البيضاء، المغرب، الطَّبْعَة الأولى، ١٩٩٣ م، ص١١٨– ١١٩ حيثُ مفهومُ الإحالَةِ وأنواعها، وكذلك: وصْف اللُّغَة العربيّة دلاليًّا في ضوء الدَّلالة المركزية "دراسة حول المعنى وظلال المعنى"، د. محمد محمد يونس، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، ليبيا، ١٩٩٣م، ص٨٧، ٨٨، حيثُ توضيحُ الفرق بين الإشارةِ والإحالَةِ، ويُنْظَر: تحليل الخطاب، جليان براون، وجورج يول، ترجمة محمد لطفي الزليطي، ومنير التركي، جامعة الملك سعود، دار النَّشر العلمي والمطابع، الرياض، السعودية، ١٩٩٧م، ص ٢٣٨ –٢٣٩، وعِلْمُ اللُّغَة النَّصِّيِّ بين النَّظرية والتَّطبيق، د. صبحي الفقي ١/ ٣٨، ٤٠، ٢/ ٢٩.

(٢) الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي، ص ٥٢٤، وكذلك ص ٥٩ – ٦٠ حيثُ الحديثُ عن أهميةِ الإحالةِ في التَّرابط النَّصِّيِّ، ويُنْظَر: النَّصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص ٣٢٧، ودراسات لغوية تطبيقية، د.سعيد بحيري ص ١٠٧.

الملحوظ (اللَّفظيِّ) وعدم إعطاءِ كبيرِ انتباهٍ للارتباطِ الملحوظِ (المعنويّ غير الملفوظ)"[1]، وفيما يلي عَرْضُ مباحثِ الإحالةِ في شِعْرِ التِّلِّيسِيّ .

المبحثُ الأوَّل: الإحالَةُ بالضمائر ودَورُها في التَّرَابُط النَّصِّيّ

من المعروفِ في الدَّرْسِ النَحْويِّ أنَّ الضَّمائرَ علاماتٌ على ذواتٍ أو أشياءَ أو أحداثٍ؛ ومن ثَمَّ ارتبطت بالعلامة mark، فالضَّمائرُ كلُّها مجموعةٌ من العلامات، يبدو ذلك في قولِ سيبويه: "إنَّ المُضمرَ المرفوعَ إذا حدَّثَ عن نفسه، فإنَّ علامتَه أنا، وإنْ حدِّثَ عن نفْسه وعنْ آخَرَ قال نحن، وإنْ حدَّثَ عنْ نفْسه وعن آخرين قال نحن... وأمَّا المُضمرُ المُخاطبُ، فعلامتُه إنْ كان واحداً أنت... وأمَّا المُضمَر المُحدَّث عنه، فعلامتُه هو..."[2].

ولَمَّا كان الضَّميرُ قد وضِعَ لمتكلمٍ أو مخاطبٍ أو غائبٍ، أى أنَّه يُستعملُ بدلاً منَ الاسمِ، فإنَّه يُعَدُّ أحدَ صورِ الإحالَةِ في التَّراكيبِ النَحْويَّة؛ ومن ثَمَّ في النَّصِّ

(١) الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٢٤، ويُنْظَر: النَّصُّ والخطاب والإجراء ص ٣٠ .

(٢) الكتاب، لسيبويه ٢/ ٣٥٠-٣٥١، ويُنْظَر به أيضاً ٢/ ٨١، ١٠٥، والمقتضب، للمُبَرِّد ١/ ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧٠، ٤ / ٢٧٩ - ٢٨٠، وشرح التسهيل، لابن مالك ت ٦٧٢، تحقيق د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، دار هجر، القاهرة، د. ت، ١٢٠/١، وشرح المُفَصَّل، لابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، د. ت، ٣/ ٨٤ - ١٢٤، وارتشاف الضَّرْب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي ت ٧٤٥هـ، تحقيق د . رجب عثمان محمد، مراجعة د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، الطَّبْعَة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨ م، ص ٩١١، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين، المكتبة المصرية، بيروت، لبنان، ١٩٩ م، ١ / ٦٠. والعلامة في النَّحْو العربيّ، د. محمود ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٦ م، ص٣٢-٣٣ ، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، د.ت، ٢/ ٢٨١، ومرجع الضَّمير في القرآن الكريم "مواضعه وأحكامه وأثره في المعنى والأسلوب"، د. محمد حسنين صبرة، دار الهاني للطباعة والنشر، شبرا الخيمة، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٩، وقضايا التقدير النَّحْويّ بين القدماء والمحدثين، د. محمود سليمان ياقوت، دار المعارف ١٩٨٥م، ص ٣٨٩- ٣٩٠، ونسيج النَّصِّ ١١٥، والتَّعريف والتنكير بين الدَّلالة والشَّكل، د. محمود نحلة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢١١، والاتِّساقُ في العَربيَّة، جبار سويس، ص ٧٨ - ٨٣.

كلِّه؛ وذلك من أجْلِ الإيجازِ والتَّركيزِ الدَّلاليِّ، ورَفْعِ الالتباس(١)؛ ومن ثَمَّ يكونُ التَّرابُط. ولمَّا كان الضَّميرُ من المبهماتِ في النَّحو العربيِّ؛ ومن ثَمَّ يحيلُ على مرجعٍ يتَّضحُ به المقصودُ منه، وهذا المرجعُ أو المُحالُ عليه قد يكونُ خارجيًّا، وقد يكونُ داخليًّا، وإذا كان داخليًّا، فقد تكونُ الإحالَةُ قبليةً، وقد تكونُ بعديةً؛ فإنَّه ممَّا يطبعُ ديوانَ خليفة التِّلِّيسيّ، شأنُه شأنُ غيره من النصوصِ الإبداعيَّةِ وغيرِ الإبداعيَّة، مع مُلاحظةِ المقصديَّة في النَّصِّ الإبداعيِّ ـ من خلال الاستقراء ـ أنَّ الضَّميرَ قد شكَّلَ عنصراً إحاليًّا يفوقُ كلَّ أنواع الإحالَة، لاسيمّا ضميرُ الغائبِ أو الغائبة. وهو أمرٌ نلاحظُه في القرآنِ الكريم وكلامِ العرب، أي في المدوناتِ الأدبيَّة وغيرِ الأدبية، لكنَّ استخدامه في الشِّعرِ يمكنُ أنْ يكونَ مظهراً من مظاهر التَّرابُطِ خادماً جانبين، جانبَ الدَّلالة، وجانبَ الوزنِ والقافية، وكلاهما يندرجُ ضمن ما يُسمَّى بالمعنى النَّصِّيِّ.

وعلى ذلك فإنَّ فرضيةً مَّا مُفادها أنَّ التَّرابُطَ النَّصِّيَّ، عن طريقِ (الإحالةِ بالضميرِ) ـ مثلاً ـ يقعُ في النصوصِ العاديةِ والإبداعية، وأنَّ (الإحالةَ) أساساً لا تنطوي على جانبٍ إبداعيٍّ، يجبُ أنْ تواجه مثلُ هذه الفرضياتِ بالقول بأنَّه على الرَّغمِ من كَوْنِ ذلك كذلك في الكلام العاديّ، فإنَّه لا يُسفرُ عنْ وجودِ خواص أسلوبيَّةٍ مَّا(٢)، بخلاف النَّصِّ الأدبيّ، سواءٌ أكان نصًّا شعريًّا أم نثريًّا، فمنَ المعلومِ

(١) يُنْظَر: شرح الرَّضيّ على الكافية، ٢/ ٤٠١، حيثُ قولُه: "اعلم أنَّ المقصودَ من وَضْعِ المُضمرات رَفْعُ الالتباس، فإنَّ "أنا"، و"أنت"، لا يصلحان إلا لمُعيَّنين، وكذا ضميرُ الغائب، نصٌّ في أنَّ المُرادَ هو المذكور بعينه في نَحْو: جاءني زيدٌ وإيَّاه ضربت، وفي المُتَّصل يحصل رَفْع الالتباس: الاختصار. وليس كذا الأسماء الظاهرة، فإنَّه لو سمِّي المُتكلِّمُ والمخاطب بعلميهما، فربَّما التبس، ولو كُرِّر لفظ المذكور مكان ضمير الغائب فربَّما تُوهِّم أنَّه غيرُ الأوَّل".

(٢) يُنْظَر: بلاغة الخطاب وعِلْم النَّصِّ، د.صلاح فضل ص ٢٤٨، والنَّصُّ والسياق "استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"، فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٠ م، ص ٣٠ حيثُ يرى أنَّ التَّراكيبَ والعناصرَ المُكوِّنة ومستويات التَّحليل والقواعد المُتضمِّنة لذلك تختلف كلُّها في الخطاب الإبداعيِّ عن تلك المُستعملة في التركيب النَّحْويِّ للُغَة الطبيعية ودلالتها=

أنَّ الإحالةَ ـ وكذلك الاستبدالُ والحذفُ على سبيلِ المثالِ ـ مِنْ وسائلِ التَّرابطِ أو السَّبكِ أو التماسك، والتَّرابطُ أو السَّبكُ أو التَّماسكُ وسيلةٌ لبيان قُدرةِ الكاتبِ أو المُبدعِ؛ ومن ثَمَّ إظهارُ مهاراته في توظيفِ هذه الأدوات؛ ليجعلَ اللُّغة أكثرَ تأثيراً وتفاعُلا(١)، وهو ما يدلِّلُ على أنَّ الإحالةَ ـ كغيرها من وسائلِ التَّرابُطِ ـ تَنْطوي على جانبٍ إبداعيٍّ، يتمثَّل في كيفيَّةِ توظيفِها في إطارِ البِنْيَةِ الكُبرَى للنَّصِّ؛ ومِنْ ثَمَّ تَتحقَّقُ النَّصِّيَّة، مع ملاحظةِ كَونِها (الإحالة) أكثرَ إبداعيَّةً في الشِّعرِ منها في النَّثرِ؛ بسببِ كَونِ الشِّعرِ مَحْكُومًا بالوزنِ والقافية، فتلك قيودٌ لا نجدُها عند الكاتبِ في النَّصِّ النَّثريِّ، ممَّا يجعلُه حُرًّا في استخدامِ الرَّوابطِ النَّصِّيَّة أكثرَ من الشَّاعر(٢).

ولنَقْتَرِبْ أكثرَ، فأقولُ: نَعَمْ، من المعلومِ أنَّه "تُوجدُ في الخِطَابِ العاديِّ علاقاتٌ كثيرةٌ، تتخطَّى حدودَ الجُمْلَة. وعلى سبيل المثال نجد هذه العلاقات في استعمالاتِ الضمائرِ، حيثُ يكونُ ما تعودُ إليه مُتحقِّقًا أو مذكوراً في جُملٍ سابقةٍ. أو في أنماط أُخرى من التَّطابقِ بين عناصرَ واقعةٍ في جُملٍ مُتعدِّدةٍ ومُتتابعةٍ، مثلُ تطابقِ العددِ وزمنِ الفعلِ، هذا النَّمطُ من التَّطابُقِ اللُّغويِّ ضروريٌّ، لكنَّه لا يُنتِجُ غالبًا خواص أسلوبية. أمَّا نمطُ العلاقاتِ التي تدخلُ في دائرةِ اهتمامِ التَّحليلِ الأدبيِّ لنصوص، فهي تلك التي تقضي إلى وجودِ بنيةٍ فوق هذه البِنْيَة المُستخلَصَة

= وتداولها، ويُنْظَر: دراسات لغوية تطبيقية، د.سعيد بحيري ص ١٠٧ حيث إشارتُه إلى أنَّ الإحالة تقومُ بدورٍ بارزٍ في إنشاء التماسك الدلاليّ للنَّصِّ؛ إذْ إنَّ شيوعَ ورود صيغ الإحالة الممكن تحديدها في كلِّ نصٍّ تبرِّر أنَّ الإحالة تشغلُ ضِمْنَ العناصر المؤثِّرة في تماسك النَّصِّ مكانًا بارزًا، ويكون بَحثُها من خلال نحو النَّصِّ لتقديم القواعد التي يجبُ أنْ تفي بقيودِ ما يسمَّى بالنَّصِّية.

(١) يُنْظَر: نظرية علْم النَّصِّ، د.حسام أحمد فرج، مكتبة الآداب، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠٧ م، ص ٨١ –٨٢، وأثر التكرار في التماسك النَّصِّيِّ "مقاربة معجمية تطبيقية"، د.نوال بنت إبراهيم الحلوة ص ١٦.

(٢) يُنْظَر: لسانيات النَّصِّ: د.محمد خطابي ص ٢٢٩، والترابط النَّصِّيِّ في رواية النداء الخالد لنجيب الكيلاني "دراسة تطبيقية في ضوء لسانيات النَّصِّ"، عيدة مسبل العمري، ص ٢٢.

من الاستعمال العاديِّ للُّغة، مثل بِنْية الإيقاعِ في الوزنِ والقافية "(١).

وفيما يتصل بالنَّصِّ الشِّعري وكَوْنِ اشتمال الكلام العاديِّ على وسائلِ التَّرابُط الموجودةِ في النصوصِ الأدبية، الشِّعريَّةِ منها والنَّثرية، أستطردُ بعض الشَّيء، فأرى أنَّه من الإفادة الإشارةُ إلى أنَّه "إذا كان كلُّ نصٍّ لابدَّ أنْ يتَّصف بالوَحْدَة، ويُحقِّقَ التَّماسكَ، وإلَّا أصبح مُجردَ مُتواليات من الكلمات، فإنَّ وَحْدَةَ النصُوصِ غيرِ الشِّعريَّة تُشْتَقُّ عادةً من الثباتِ النِّسبيِّ للموضوع، ومن عناصرِ التَّرابُط اللُّغويِّ والتَّعالقِ والتكرار، ممَّا يُفضي إلى تكوينِ أبنيَته. ومع ذلك فحينما نَحصُرُ ذلك في النَّصِّ لا نكونُ بحاجةٍ لتوجيه اهتمامنَا نَحْوَ ما يتعلَّقُ باختيارِ مفرداته بقَدْرِ ما نهتمُّ بمدَى كفاءتها في توصيلِ دلالتهَا القارَّة، كما لا نهتمُّ كثيراً بترتيبهَا مادامتْ تحقِّقُ درجةَ النَحْويَّة المطلوبَة . فإذا أولينا اهتمامَنَا لعمليات الاختيارِ والتَّرتيب، ووضعنا هذه العنايةَ موضعَ التَّطبيقِ، فإنَّ النَّصَّ يسمو في هذه الحالاتِ على وَضْعِ اللُّغة العادية؛ لكي يكتسبَ خصائصَ أسلوبيةً مُعيَّنة. وبهذا فإنَّ النصوص التي تدخلُ في مجالِ الشِّعريَّة يتوفَّر لها نمطٌ من الوَحْدَة المُتبلورة بنيويًّا، وهي وَحْدَةٌ لا تنجُمُ عن مُجرَّدِ حضورِ الموضوعِ القار، ولا عن الرَّوابطِ النَحْويَّة، ولا عن استخدامِ المواصفاتِ الإصلاحيةِ للشِّعر، بل تكمُنُ في رأي بعض الباحثين فيما يطلقونَ عليه "بنية الازدواج.. هذا الازدواجُ هو الأداةُ الشِّعريةُ المكوِّنةُ لبنية القصيدةِ والضامنةِ

(١) بلاغة الخطاب وعلْم النَّصِّ ص ٢٤٨، ويُنْظَر:البنيات اللِّسانية في الشِّعر، ليفين صمويل، ترجمة الولي محمد والتوازني خالد، المغرب، ١٩٨٩م، ص ١٩، ويُنْظَر: قلق النص وحرية الإبداع ، د. عناد غزوان إسماعيل، مجلة اللغة العربية وآدابها، العدد السادس، العراق، حزيران، ٢٠٠٨ م، ص ١٣ حيثُ الإشارةُ إلى أنَّ لكل نص نظامًا أو بناءً فنيًّا خاصًّا مرتبطًا بعلائق دلالية وثوابت أسلوبية ـ بنائية تُرشِّحه ليكون نصًّا إبداعيًّا، والاَّ فهو أقرب إلى كونه نصًّا قلقًا ولاسيَّما إذا أخفق النص في تحقيق الاستجابة في نفس متلقيه/ القارئ الذي يعدُّ ركنًا جوهريًّا من أركان العملية النقدية، أي أنَّ القراءةَ النَّصِّيَّة هي المعيارُ النقديُّ الذي تُوزنُ بوساطتها جودةُ النَّصِّ / ثباته الفنيّ أو رداءة النص / قلقه الفنيّ؛ ومن هنا قيل :إنَّ نصًّا بلا قراءةٍ ليس نصًّا على الحقيقةِ ولا هو نصٌّ على الإطلاق .

لوَحْدَتِها، ويقتضي كشرطٍ ضروريٍّ وكافٍ تحقُّقَ صيَغٍ مُتماثلةٍ صوتيًّا أو دلاليًّا في مواقعَ مُتماثلةٍ أيضًا، سواءٌ كانت هذه المواقعُ مُحدَّدةً من وِجهةِ نَظَرٍ دلاليةٍ مَرِنةٍ، أو اصطلاحيَّةً مضبوطةً مثل الوزنِ والقافية"(١).

المطلبُ الأوَّل: الإحالَةُ الخارجيَّةُ:

في الإحالَةِ الخارجيَّةِ يكون توجيهُ المخاطَبِ إلى شيءٍ أو شخصٍ في العالم الخارجيِّ، أي خارج النَّصِّ، وهو ما يُسمَّى بالإضمار لمرجع مُتصَيِّد، أو بالإحالَة لغير مذكورٍ(٢)، فالمُحالُ عليه غيرُ موجودٍ بشكلٍ مباشرٍ داخلَ النَّصِّ في بنائه، وعندئذٍ تعتمدُ الإحالةُ على التَّأويلِ(٣)، فَمِنَ المعلوم أنَّ " مجالَ اللِّسانيات الحديثة هو التَّفسيرُ والتَّأويلُ، فقَدِ انْتقلَ مجالها من البحثِ في اللُّغةِ إلى البحثِ في نَحْوِ اللُّغَةِ، أي في أنساقِ الذِّهْنِ التي تُنْتِجُ ظواهرَ اللُّغة، وهو مجالٌ جاوزَ الوَصْفَ إلى مبادئ التَّفسير "(٤).

ومثالُها بالضَّميرِ ما وردَ في قصيدةِ خليفة التِّلِّيسيّ، التي تحملُ عنوانَ (ليبيا)، حيثُ قولُه: (من البسيط)

(١) بلاغة الخطاب وعِلْمُ النَّصِّ، د.صلاح فضل، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ .

(٢) يُنْظَر النَّصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص٣٠١، ٣٣٣، ونَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدَّرس النَّحْويّ، د. أحمد عفيفي ص١٢١، وكذلك : Cohesion in English ,p33

(٣) يُنْظَر: الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٢٨، حيث الإشارةُ إلى أنَّ الإحالةَ تأخذُ بعينِ الاعتبارِ العلاقاتِ بين أجزاء النَّصِّ وتجسيدها، وخَلْق علاقاتٍ معنويَّةٍ من خلالِ تلك العناصرِ الإحالية، ويتمُّ ذلك عن طريقين : أولهما: طريقٌ مباشرٌ، وهو القصدُ الدلاليُّ إلى ما يشيرُ إليه اللفظ مباشرة، فالعنصرُ المحيلُ - أيًّا كان نوعُه - والمحالُ عليه، لابُدَّ أن يكونا بارزَيْنِ، دون حاجةٍ إلى التَّأويل، ويرتبطُ ذلك بالإحالاتِ داخل النَّصِّ، قبليَّةً أو بعديَّة . أمَّا الآخرُ، فهو التأويلُ وذلك في حالةِ عدمِ وجودِ المُحالِ عليه بشكلٍ مباشرٍ داخل النَّصِّ.

(٤) من ظواهر الأشباه والنَّظائر بين اللُّغويات العربية والدَّرس اللساني المعاصر "التَّرادف"، د. عبد الرحمان بودرع، حوليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٥، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، مارس، ٢٠٠٥ م، ص ٤١ .

أَعْطَيْتُها مِـــنْ حياتِي خَيْرَ مَا فيها
ولا أَمُـــنُّ عَـطـائـي مِنْ أَيـادِيـهـا
جَـــادَتْ علَيْنا فَجُدْنا مِنْ شَمَائلِهَا
الـشُّحُّ يُـفْـقِـرُهَـا والجُـــودُ يُـغْـنـيـها
أَعْطَيْتُها بَعْضَ مَـا أعْطَتْ ومَا أَخَذَتْ
إلاَّ استَـزَدْتُ رَصِيـداً مِـنْ غَـوالِـيـهَا
فـالـفَـضْلُ أَوَّلُـــــهُ مِنْـهَا وآخِـرُهُ
إلى الأولَى رَفَعُوا ذِكْري بِـنَادِيـها(١)

ولـمَّا كان مِن المعلُوم أنَّه "لابدَّ أنْ يوجد تفاعلٌ بين المُتلقِّي والنَّصِّ، من خلالِ إعادةِ اللَّفْظِ المُحيلِ إلى مَا يحيلُ إليه، وربْطِه بذلك الموقفِ الخارجيِّ، ذلك الموقفُ الذي يحتاجُه المُتلقِّي لتأكيدِ الاستمرارِ الحقيقيِّ مع النَّصِّ"(٢)، فإنَّه مِن المُلاحظِ أنَّ الشَّاعرَ قدْ بدأ قصيدتَه بقولِه: (أعطيتُها)، بدون الإعرابِ عن مَرْجعِ ضميرِ الغائبِ الذي يتَّصفُ بأنَّه "عارٍ عن المُشاهدةِ، فاحْتِيجَ إلى ما يُفسِّره"(٣)، مِمَّا يجعَلُ المُتَلَقِّي يتساءَلُ عن مرجعِهِ أو المُحالِ عليه.

(١) ديوان خليفة التِّلِّيسيِّ، الدَّار العربيّة للكتاب، تونس ـ ليبيا، ١٩٨٩ م، ص ١٧، ويُنْظَر به أيضًا ٣٤ / ٥، ١٩ / ١، ٢، ٣، ٤-٢٠ / ٦، ٢٤ / ٣، ٥، ٢٨ / ١، ٣٨ / ١، ٤١ / ١، ٤٢ / ٥، ٥١ / ٦، ٥٢ / ٢، ٥٤ / ١، ٦٥ / ١، ٧٩ / ٢، ٨٥ / ١، ٨٩ / ١، ٩٧ / ١، حيثُ الإحالَةُ بضميرِ الغائب وغيرِه من الضَّمائرِ البارزةِ، وهنا أشير إلى أنَّ الرَّقم المذكورَ على يمينِ الخطِّ المائلِ ـ فيما تقدم من إحالات، وما هو آت في ديوان التِّلِّيسيِّ ـ يشيرُ إلى رقم الصفحةِ بالدِّيوان، أمَّا الرَّقمُ على يسَارِها، فيشيرُ إلى رقمِ البيتِ بتلك الصفحة.

(٢) الإحالةُ في نحو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي، ص ٥٤٧، ويُنْظَر به أيضًا ص ٥٤٣ .

(٣) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لجلال الدين السيوطي، تحقيق أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ١ / ٢١٨، ويُنْظَر: الضَّمائر في اللُّغَة العربيّة، د. محمد عبد الله جبر، دار المعارف، بيروت، الطَّبْعَة الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ص ٩٥ .

وهو مَا حدث في أوَّلَ بيتٍ بالأبياتِ السَّابقة، قد بدأه الشَّاعرُ بالإحالة، بالضميرِ في الجُمْلَةِ الفعْلِيَّةِ الخبريَّة المُثْبَتَة (أعطَيْتُها) المُتَّخذَة نَمَطَ (الفعْل + الفاعل + المفعول به). وإعمالَ العقْلِ منذ اللَّحظة الأولى يرشدُنا إلى أنَّ هذا النوعَ من الإحالَة يُسمَّى بالإحالَة الخارجيَّة أو خارجَ النَّصِّ Exophora أو المقامية situational، ذلك الإعمالُ الذي يُرشدُنا إلى أنَّ المُحالَ عليه هو كلمةُ (ليبيا)؛ ومن ثَمَّ عادَ الضَّمير عليها مُؤنَّثًا، في قوله: (أعطيتُها- فيها - أياديها - شمائلُها - يُفقرُها - يُغنيها - غواليها - منها - بناديها)، وهو مَا يتَّضحُ من خلاله أنَّه ضميرٌ بارزٌ، أمَّا في قوله: (جادَتْ - أعطتْ - أخذتْ) فالضَّميرُ العائدُ على (ليبيا) ضميرٌ مستترٌ، تقديرُه: هي(١). والملاحظ في كل هذه الكلمات أنَّ الضَّميرَ قدْ تطابقَ مع المُحالِ عليه، فجاء مُفردًا مؤنَّثًا، وهو ما أشارَ إليه القدماءُ في أكثر من موضعٍ(٢). وفي عودِ الضمائر مؤنَّثةً على المُحال عليه إحالةً خارجيةً، وما تبع ذلك من تفصيلاتٍ، تعضيدٌ لقولِ القائلِ بأنَّه "يمكنُ أنْ يتحمَّل النَّصُّ بعضَ التفصيلاتِ

(١) هذا الضميرُ المُستترُ على سبيل المثال قد لا نعرفُ على مَن يحيلُ إلا بعد معرفة البنيةِ المفاهميةِ التي تُبنى عليها البنيةُ السَّطحيةُ النَّحْويةُ، وهو ما يؤكِّد أنَّ المستويين يمكن أنْ يؤثِّر بعضُهما في بعضٍ عند عملية إنتاجِ الخطابِ وتقبُّله، مثالُ ذلك: ضرب الرجلُ ابنَه، فبكى. إنَّ تعويضَ كلمة "ابن" بالضمير المُستترِ في "بكى" يعتبر اتِّساقًا سطحيًّا. ولكن كيف نعرفُ أنَّ الضميرَ لا يرجعُ إلى الرَّجلِ؟ ذلك يرجعُ إلى معرفتنا للعالم، أي إلى مستوى الانسجامِ الداخليِّ الذي نحاولُ إعادة بنائه عند تلقِّي النَّصِّ: يُنْظَر: لسانيات النَّصِّ أو "لسانيات ما بعد الجملة وما قبل الخطاب"، كورنيليا فون راد صكوحي، ص ٦٥، وهامش ١ من الصفحة نفسها، ويُنْظَر: أصول تحليل الخطاب في النَّظريةِ النَّحْوية العربية تأسيسُ نَحْوِ النَّصِّ، د. محمد الشاوش، جامعة منوبة، تونس، الطَّبْعَة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ص ١٠٦ - ١١٨، وعِلْمُ اللُّغة النَّصِّيّ ودوره في شرح الحديث وفهمه "أحاديث الجهاد والسير في صحيح البخاري نموذجًا، د. عاصم شحادة علي، المجلة العربية للدراسات اللغوية، معهد الخرطوم الدولي للُغَة العربية، العددان ٢٩، ٣٠، الخرطوم، السودان، ديسمبر ٢٠١١م، ص ١٤، ١٨، ١٩.

(٢) يُنْظَر: المقتضب، للمُبَرِّد ١ / ٢٦٤، ٣ / ١٨٦، ومغني اللَّبيب، ابن هشام، تحقيق: مازن المبارك، وآخر، مراجعة: سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ص٦٣٥ وما بعدها، والضَّمائر في اللُّغَة العربيّة، د. محمد عبد الله جبر، ص٩٨ .

التي تُساعدُ المُتلقِّي على تحديدِ المرجعِ غيرِ المذكورِ، كأوصافِ رجلٍ، أو تفصيلاتٍ عن حيوانٍ مَّا، أو مجموعةٍ من النَّاس...إلخ. غيرَ أنَّه من المُؤكَّدِ أنَّ المُتلقي عليه أنْ يتأمَّل الموقفَ خارجَ النَّصِّ؛ ليُحدِّدَ مرجعَه"(١)، وهو ما حدَّث في نَصِّ التِّلِّيسيّ، فقد ساعدَت التَّفصيلات المذكورة فيما بعدَ جُملةِ (أعطيتُها) في التَّوصُّلِ إلى أنَّ المقصودَ بمرجعِ الضَّميرِ كلمةُ (ليبيا).

وكأنِّي بالشَّاعر قد أرادَ إخبارَنَا من وراء الإضمارِ قبلَ الذِّكرِ، بأنَّه يُفخِّمُ المُحالَ إليه (ليبيا)، ويعظِّمُه، ويرفعُ من شأنه، وهذا ما تنبَّه له القدماء، فقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٩٧] علَّق عليه الزَّمخشريُّ بقوله: "الضميرُ في (نَزَّلَه) للقرآن، ونَحْوُ هذا الإضمارِ - أعني إضمارَ ما لم يسبق ذكرُه - فيه فخامةٌ لشأنِ صاحبه، حيث يُجعَلُ لفَرْطِ شُهرته كأنَّه يدلُّ على نفسِه، ويكتفي عن اسمه الصَّريح بذِكْرِ شيءٍ من صفاته"(٢).

وهنا أشير إلى قول الدكتور محمد يونس بخصوص عدمِ إسهام الإحالَة الخارجيَّة في التَّماسُك النَّصِّيِّ - شأنه شأن الدكتور محمد خطابي، فيما أشرنا إليه آنفًا، والدكتور أحمد عفيفي فيما اعتمَدَ فيه على ما قاله كلٌّ من هاليداي ورقية حسن، حيث قول الدكتور محمد يونس: " وهذا النوع من الإحالَة لا يمنحُ النَّصَّ سِمَةَ التَّماسك؛ لأنَّه لا يربطُ عنصرين معًا في السِّياق"(٣)، وعلى الرَّغمِ من ذلك، فإنَّني أشير إلى الإقرار بضعْفِ التَّرابُط النَّصِّيِّ معها عنه مع الإحالةِ الداخليةِ أو المقامية أو

(١) الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي، ص ٥٤٧ .

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري "جار الله أبي القاسم محمود ت ٥٣٨"، تحقيق ودراسة عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، الطَّبْعَة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٨٨م، ١/ ٣٠٢ .

(٣) الإحالَة وأثرها في دلالة النَّصِّ وتماسكه، د. محمد يونس، ص ١٦٧، ويُنْظَر: لسانيات النَّصِّ، د. محمد خطابي، ١٧، ونَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدَّرس النَّحويّ، د. أحمد عفيفي ص ١٢٢، والإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٣٣، وكذلك : Cohesion in English ,p18.

النَّصِّيَّة، وهذا ما يؤنسُه إشارةُ (براون ويول) في جُزئها الأوَّل إلى أنَّها" تُضْعِفُ الاتساقَ وتقلِّلُ التآخذَ ولا تلعبُ دوراً في ترابطِ النَّصِّ "(١).

لكنْ في مُقابلِ ذلك أُشيرُ إلى أنَّه إذا كانت الإحالةُ الداخليَّةُ أو النَّصِّيَّة تؤدِّي إلى سَبْكِ النَّصِّ لُغويًّا فإنَّ الإحالةَ الخارجيَّةَ أو المقاميَّةَ تقومُ برَبْطِ النَّصِّ بالسِّياقِ الذي قيل فيه قصداً، على نحو ما جاء عند التِّلِّيسيّ، زيادةً على تفسيرِها المُبهماتِ (العناصر الإحالية) عن طريق تعريفِها بالعناصر الإشاريةِ التي تُحيلُ عليها(٢).

يُضافُ إلى ذلك ـ كما يقول الدكتور أحمد عفيفي في موضعٍ آخرَ ـ أنَّه في الإحالةِ الخارجيَّةِ "لابُدَّ من التأكيدِ على موافقةِ العنصرِ الإحاليِّ مع ما يُحيلُ إليه، فالاتفاقُ بينهما جُزءٌ أساسيٌّ في عمليةِ الرَّبْطِ عن طريقِ الإحالةِ "(٣)، ولمَّا كانت الإحالةُ الخارجيَّةُ تُسهمُ في الاستمراريةِ الدَّلاليةِ في النَّصِّ، فإنَّه "لابدَّ أنْ يوجد تفاعلٌ بين المُتلقي والنَّصِّ من خلال إعادةِ اللَّفظِ المُحيلِ إلى مَا يحيلُ إليه ورَبْطِه بذلك الموقفِ الخارجيِّ "(٤).

ويتابع الدكتور أحمد عفيفي إسهامَ الإحالةِ الخارجيَّة في التَّرَابُط النَّصِّيِّ، مع وجود فرقٍ بينها وبين الدَّاخلية، في قوله: "وبناءً على ما سبق لا يمكنُ أنْ تتساوى الإحالة النَّصِّيَّةُ الداخليَّةُ مع الإحالةِ المقاميَّة لغير مذكور، ولا يمكنُ أنْ تُلغي جميعُ الفروقِ بينهما في عمليةِ الرَّبطِ؛ ومن هنا لسنا مع مَنْ ذهبَ إلى أنَّ الإحالة المقاميَّة لا تُسهم في خَلْقِ النَّصِّ، حيثُ إنَّ هذه الإحالةَ تساهمُ في خَلْقِ النَّصِّ؛ لكَوْنِها

(١) تحليل الخطاب: جليان براون ويول، ص ٢٣٠.

(٢) يُنْظَر:السبك النَّصِّيُّ في القرآن الكريم "دراسة تطبيقية في سورة الأنعام"، أحمد حُسين حيال، رسالة ماجستير بكلية الآداب، الجامعة المُستنصرية، بغداد، العراق، ٢٠١١ م ص ١٧١.

(٣) الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٤٧.

(٤) السَّابق، نَفْسُه.

تربطُ اللُّغة بسياقِ المقامِ، إلا أنَّها لا تُسهمُ بشكلٍ مباشرٍ في عمليَّةِ الرَّبطِ، بينما تقومُ الإحالةُ النَّصِّيَّة بدورٍ فعَّالٍ في خَلْقِ النَّصِّ واتِّساقه "(١).

وعلى الرَّغم من ذلك أُشيرُ إلى أنَّ ضَعْفَ التَّرابُط من خلالها هو ما يمكنُ القولُ به في الجُمْلَة الأوَّلى (أعطيتُها) حيث عدمُ وجودِ المُحالِ عليه في البنيةِ الرَّأسيةِ للقصيدة، أمَّا في بقية الجمل بعد ذلك فقد شكَّل الضَّميرُ الممثِّل للإحالة الخارجيَّة عنصراً من عناصر التَّرابُطِ، مُفادُه الاسْتِمْراريَّةُ الدَّلاليَّةُ الناتجةُ عن إعمالِ ذِهْنِ المُتَلَقِّي في كلِّ جُمْلةٍ بها إحالةٌ خارجيَّةٌ، ممَّا يجعلكَ دائمَ البحثِ عن هذا المرجعِ؛ مِنْ أجْلِ اسْتمرارِ التَّفسيرِ المَفْهوميِّ، فإذا بك تنتهي من الأبيات بدون النَّصِّ عليه، وهو ما يترتبُ عليه أنَّ ثَمَّة قَصْدِيةً سياقيَّةً مُعينةً، أو ما يُسمَّى بالرَّبطِ المُحدَّدِ بالمقصديَّةِ السِّياقية، وتلْكَ وظيفةٌ نَصِّيَّةٌ للضمائرِ، تُسْهم في عمليةِ التَّواصلُ والتَّأثيرِ المُكثَّفَيْنِ(٢)، تلْك القَصْديَّةُ التي قصدها الشَّاعرُ من وراء هذه الإحالَة المُتكررة، تكمنُ في إعلامِ المُتَلَقِّي أنَّ المُحالَ عليه هو كلمةُ (ليبيا)، لاسيَّما أنَّه جعلها عنوانًا للأبيات، وهو ما يمثِّل مكانةً بالغةَ الأثرِ لدى الشَّاعرِ، فقد جعل حياتَه وقفًا عليها؛ ولذلك أعطاها خيرَ حياته، مُخبراً إيَّانا بأنَّ الإفصاحَ عن هذا العطاءِ لم يكنْ من قبيلِ المَنِّ، فذاك النَّبْتُ من تلك البذرةِ؛ ومن ثَمَّ كان جُودُه ضرباً من جُودِ بلاده، وما أعطى كلَّ العطاءِ، بل بعضَه.

وعلى الرَّغم من كلِّ شيءٍ يُفصحُ الشَّاعرُ عَنْ مبدأٍ ينبغي أنْ يُحتذَى به، وهو نِسْبة الفضلِ لأهله، مُشيراً إلى أنَّ مَكانَ ترعرُعِ الفضلِ بها دون غيرِها، وآخرُه يرجعُ

(١) السَّابق، ص ٥٤٩.

(٢) يُنْظَر: العناصر المرجعية (الضميرية) في سورة الكهف دراسة نصِّية وظيفية، عبد المهدي الجراح، إبراهيم الكوفحي، ومحمد القضاة، ص ٥٤١، وبها أشار أيضاً إلى أنَّ ثَمَّة مجموعةً من الوظائف النَّصيَّة، تؤدِّيها الضمائر، هي: الرَّبط المُحدَّد بالمقصدية السِّياقية، وتعزيز بنية التَّعدُّد المَرْجعيِّ، وتوجيه الخطاب نَحْوَ النَّصِّ نفْسه، وتوجيه الخطاب نَحْوَ المقام (سياق الحال).

إلى أهلِها الذين رفعوا ذِكْرَهُ بكلِّ مكانٍ فيها (بناديها)، وهو ما أسهمَ في تحقُّقِ الاسْتِمْراريَّةِ الدَّلاليَّةِ على مدارِ الأبياتِ حتَّى آخرِ كلمةٍ فيها، ممَّا يؤكِّد القولَ بإسهامِ هذه الإحالَةِ في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ، منْ طريقِ رَبْطِها النَّصَّ بسياق المقامِ الذي قِيْلَ فيه، لكنَّ أهميتها لا تتساوى مع أهميَّة الإحالةِ الدَّاخليةِ؛ ومن ثَمَّ فإنَّ فيما تقدم ما يُعدُّ من باب الدعوةِ إلى إعادة النظرِ فيها، بناءً على أنَّ السِّياق أو المقام ـ الذي من خلاله يُسْتَنبطُ المُحالُ عليه ـ جزءٌ من النَّصِّ أو جزءٌ من المعنى النَّصِّيِّ.

وفي موضعٍ آخرَ يمكنُنا ـ اتِّكالاً على السِّياقِ أو المقامِ بمفهومِه الواسعِ ـ أنْ نُحدِّدَ الأشياءَ أو الأشخاصَ، أو العناصرَ اللُّغويَّةَ التي تُحيلُ عليها العناصرُ المُحيلةُ(١)، وهو ما تتضحُ فيه أيضًا تلك الأهميةُ المُشارُ إليها آنفًا، فنرى الشَّاعرَ في قصيدة (وَقْفٌ عليها الحبُّ)(٢) يقولُ: (من الكامل)

وَقْفٌ عَلَيهَا الحُبُّ شَدَّتْ قَيْدَنَا
أَمْ أَطْلَقَتْ للكونِ فِينَا مَشَاعِرَا
وَقْفٌ عَلَيها الحُبُّ سَاقَطَ نَخْلُها
رُطَبًا جَنِيًّا أَمْ حَشِيْفًا ضَامِرَا

(١) يُنْظَر: كيف نقرأ النَّصَّ القديم، د. محمد حماسة عبد اللطيف، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، ج٢١، مج ٩، رجب ١٤٢ هـ - سبتمبر٢٠٠٥ م، ص٤٧، والإحالَة وأثرها في دلالة النَّصِّ وتماسكه، د.محمد يونس، ص ١٦٦، وكذلك: Cohesion in English ,p20.، وحول اهتمام القدماء بالسياق يُنْظَر: الكتاب، لسيبويه ١/ ٢٥ -٢٦، والبيان والتبيين، للجاحظ ١/ ١٣٨ - ١٣٩، والإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، الطَّبْعَة الرابعة، ١٩٩٨م، ص ٣٧، ٣٩، ٤٨، ٧٠، ١٢٠، والإحَالَة ودورها في التَّماسك النَّصِّيِّ "رواية في سبيل التَّاج للمنفلوطي نموذجًا، دنيا بن قسمي، ص ٧ - ٨٤.

(٢) ديوان خليفة التَّلِّيسيِّ ص ١٨ / ١- ٤، وحشيفًا: منْ أردأ التَّمر، قال ابن فارس: الحاء والشين والفاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على رَخَاوة وضعفٍ وخلوقة، فأوّل ذلك الحَشَف، وهو أردأ التَّمر: مقاييس اللُّغَة (حشف).

وَقْفٌ عَـلـيـهـا الحُـبُّ أَمْـطَـرَ غَـيْـمُـهـا
أَمْ شَحَّ؟ أَو نَـسِـيَـتْ مُـحِـبًّـا ذاكِـرَا
وَقْفٌ عَـلـيـهـا الحُـبُّ كُـرْمَى عَـيْـنِـهـا
تَـحْـلُـو مُـنـازَلَـةُ الخُـطُـوبِ حَـواسِـرَا

ففي هذه الأبيات نلمسُ تَرَابُطًا مَّا، هدفَ إليه الشَّاعرُ من وراء هذه الإحالَةِ الخارجيَّة التي اسْتُخْدِمَ فيها الضَّميرُ، في الجُملة الاسميَّة الخَبَريَّة المُثبَتَة (وَقْفٌ عليها الحُبُّ) المُتَّخِذَة نَمَطَ (الخبر المُقدَّم جوازًا + الجارّ والمجرور + المُبتدأ المُؤخَّر جوازًا)، ومن خلاله يتَّضحُ أنَّ الضَّميرَ في (عليها) يُحيلُ إحالةً خارجيَّةً على مُحالٍ عليه، يجبُ على المُتلقِّي البحثُ عنه، من خلال التَّفاعُلِ مع السِّياق، ذلك السياقُ الذي يُشكِّلُ النَّصَّ، ويكونُ محوراً للتفصيلات التي تُحيلُ عليها الضمائر في هذه اللَّوحة؛ ومِنْ ثَمَّ يكونُ توجيه الخطاب نَحوَ سِياقِ الحالِ (المقام) مِنْ وظائف الإحالة بالضمائرِ في شِعْرِ التِّلِّيسيّ، فَمِنَ المعلومِ أنَّ الضميرَ من أبرزِ العلامات اللُّغويَّة التي تربطُ المقال بالمقام(١).

ولـمَّا كان الضميرُ غائبًا في (عليها)، فقد تكرَّر بعد ذلك، بارزاً أو مُسْتتراً، في (أطْلَقَت، عليها، نَخلها، غَيْمها، نَسِيَتْ)، وهو ما يتَّضحُ من خلاله تكثيفُ

(١) يُنْظَر: العناصر المرجعية (الضميرية) في سورة الكهف دراسة نصِّية وظيفية، عبد المهدي الجراح، إبراهيم الكوفحي، ومحمد القضاة، ص ٥٤٤، وتبادل الضمائر في سورة الكافرون دراسة تحليليَّة، د.آلاء طارق محمود، د. عائشة خضر، مجلة كلية التَّربية والعلْم، ج ١٧، ع ٤، بغداد، العراق، ٢٠١٠ م، ص ٨٢، وأقنعة النصِّ، سعيد الغانمي، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ١٩٩١ م، ص ٥٠ – ٥١ حيث إشارته إلى أنَّ الضمير ينطوي على ازدواجيَّةٍ صريحة، فهو كُلِّيٌّ في اللغة جُزئيٌّ في الكلام: (أنا) أو (أنت) أو (هو) ضمائرُ يمكنُ أنْ يقولها أيُّ شخصٍ، فتعنيه بذاته .وهذه الازدواجيَّةُ التي يحملها الضميرُ تسمح لنا أنْ نميِّزَ بين الضَّمير والشَّخص، فالضَّميرُ هو الملفوظُ اللُّغويُّ في صيَغِه المعروفة (أنا، أنت، هو)، والشَّخصُ هو المعنى الخارجيِّ، والعلاقات اللُّغوية الداخليَّة هي التي تحدِّد الضميرَ، والعلاقات اللُّغويَّة الخارجيَّة هي التي تُحدِّد الشَّخص" .

الضمائرِ، من أجْلِ تحديدِ المعلوماتِ الأساسيَّةِ والثَّانويةِ، وبيانِ الفكرةِ الأساسيَّةِ في النَّصِّ، وزيادةِ التَّرابُطِ والتَّماسُكِ(١). ويمكنُ القولُ - من خلال هذا التكثيف الدلاليِّ الذي استعاضَ به الشَّاعرُ عن عدم الاتصالِ اللُّغويِّ بين الضميرِ وما يحيلُ عليه - بأنَّ المقصودَ من خلالِ هذه الإحالاتِ هو (ليبيا)، هذه البلادُ التي جعلَ الشَّاعرُ حُبَّه وقفًا عليها؛ ومن ثَمَّ كانت جملتُهُ الأولَى في القصيدة (وَقْفٌ عَليها الحُبُّ)، ولم يكتَفِ بذلك بل كرَّرَها، في إيحاءٍ منه إلى أهميةِ هذه الجُمْلَةِ، لاسيَّما في هذا المكان.

وهنا يحضُرُني قولُ القائلِ: "فالاستهلالُ يحتلُّ مكانةً بارزةً، من حيثُ أهميتُه من ناحيةٍ، ومن حيثُ علاقتُه ببقيةِ أجزاءِ النَّصِّ من ناحيةٍ أُخرى، وتحكُّمُه كذلك في هذه الأجزاءِ. ففي الغالب يركِّز المُرسِلُ كلَّ جهودِه في هذه الجُمْلَة، إذْ يكونُ ما بعدَها غالبًا تفسيرًا لها. وتُمَثِّلُ كذلك المحورَ الذي يدورُ عليه النَّصُّ فيما بَعْدُ، إذْ تتعلَّقُ الأجزاءُ الباقيةُ من النَّصِّ بالجُمْلَةِ الأولى بوسيلةٍ مَّا"(٢).

وعلى الرَّغم ممَّا تُحدثُه الإحالةُ الخارجيَّةُ - على نَحْوِ ما سبقتْ الإشارةُ إليه - من عدَمِ الاتِّصَالِ اللُّغويِّ بين الضَّميرِ وما يحيلُ عليه، على صَعيدِ المُستوى الرَّصْفيِّ في النَّصِّ، وهو مَا يترتَّبُ عليه البحثُ خارجَ النَّصِّ ومَا يتَّصلُّ به من سياقٍ مقاميٍّ عن المُحالِ عليه؛ ومن ثَمَّ تأويلُه، في إطارٍ من المعاييرِ النَّصِّيَّةِ المُتمثِّلة - فيمَا نحنُ بصدده - فيما قصدَه الشَّاعرُ أو قريبًا منه، ويقبلُه المُتلقِّي، فإنَّني لا أودُّ أنْ أبرحَ المكانَ بدون تقييد دعوتي بخصوصِ إعادةِ النَّظرِ في قيمةِ الإحالَةِ الخارجيَّة،

(١) يُنْظَر: الإحالة في نَحْوِ النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٢٨، حيثُ إشارتُه إلى أنَّ للإحالة طريقين، أحدهما طريقٌ مباشرٌ، وهو القَصْدُ الدلاليُّ إلى ما يشيرُ إليه اللَّفظُ مباشرةً، فالعنصرُ المُحيلُ والمُحالُ عليه، لابُدَّ أنْ يكونا بارزَين دون حاجةٍ إلى التَّأويل. والآخرُ: التَّأويل، وذلك في حالةِ عدمِ وجود المُحالِ عليه بشكلٍ مباشرٍ داخلَ النَّصِّ.

(٢) عِلْمُ اللُّغَة النَّصِّيِّ بين النظرية والتطبيق، د. صبحي الفقي ٦٥/١، ويُنْظَر: التَّضمين العروضيُّ في الطَّويل وبناء شعر الأعشى، د. فايز تركي، ص ٦٨.

بقولي: إنَّ ما تُحقِّقه الإحالَةُ الخارجيّةُ من استمراريةٍ دَلاليَّةٍ لا تتساوى فيه كلُّ الضَّمائر، فعندما يكون الضَّميرُ ضميرَ الغائب ـ على نَحْوِ ما تقدَّم ـ تكون الاسْتِمْراريَّةُ الدَّلاليَّةُ في أبْهى صورِها، ممَّا ينعكسُ على التَّواصلِ بين المُبدعِ والمُتَلَقِّي. أمَّا عندما تكونُ الإحالَةُ الخارجيَّةُ باستخدامِ ضميرِ المتكلِّم (أنا) أو (نحن) ...الخ، أو بضميرِ المُخاطَب، نَحْوُ (أنت)، و(ياء المخاطبة)، فإنَّ تلك الاسْتِمْراريَّةَ لا تكونُ بالقدْرِ الذي يحملُه ضميرُ الغائب، حيثُ إنَّ هذين النوعين من الضَّمائرِ تكونُ الإحالَة بهما إحالةً خارجيَّةً دائمًا، ولعلّ مسوِّغ ذلك كونُهما حاضرين في المقام التخاطبيِّ، يُفسِّرهما المُشاهدةُ، على حدِّ قولِ السيوطيّ(١)؛ ومن ثَمَّ تكونُ الاسْتِمْراريَّةُ الدَّلاليَّةُ أقلَّ كمًّا وكيفًا منها مع ضميرِ الغائب، مِنْ مُنْطَلَقِ أنَّ تَحْفيزَ المُتلقِّي مِنْ أجْلِ البَحْثِ عن المُحالِ عليه، مع ضميرِ الغائب يكونُ أكثرَ منْه مع بقيَّة الضمائر، فالقول بأنَّ (عليها) يتساوى في اسْتِمْرَاريته الدَّلاليَّة مع (علَيْك) قولٌ تَعُوزُه الدِّقَّةُ؛ لأنَّ ضميرَ المُخاطَبِ أوِ المُتَكَلِّمِ يُرافقهُما الحضورُ التَّخاطبيُّ والمُشاهدَةُ، حقيقةً أو مجازًا، وهو ما يمثِّلُه قولُ خليفة التِّلِّيسيّ(٢):

أنَـا لا أَقُـولُ الـشِّـعـر أَبْـغِي رُتْـبَـةً
تَـعْـلُـو بِـهَـا رُتَبي وتُـكْـسِبُ وافِـرَا

فالبيتُ من قصيدةٍ (وَقْفٌ عَليها الحُبُّ) بعد أربعةَ عشرَ بيتًا، سبقتهُ، يشيرُ فيه ـ مُستخدمًا ضميرَ المتكلِّمِ (أنا)، وهو لفظٌ كمِّيٌّ وجوديٌّ؛ لكونه يصدق على

(١) يُنْظَر: همع الهوامع، للسيوطي ١ / ٢١٨، وارتشاف الضَّرْب، لأبي حيان ص ٩٤١، والتذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان الأندلسي، تحقيق الدكتور حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ١٤١٩ هـ-١٩٨٨م، ٢/ ١٢٨ - ١٧١، ٢٥٢ - ٢٦٩، والدَّلالة والنَّحْو، د. صلاح الدين صالح حسنين ص ٢٤٨ -٢٤٩، والإحالَة وأثرها في دلالة النَّصِّ وتماسكه، د. محمد يونس ص ١٧٢، والضمائر في اللُّغَة العربية، د. محمد عبد الله جبر، ص ٩٥.

(٢) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ص ١٨، ويُنْظَر ص ٢٥ / ٣ - ٣٠/ ٥ -٣٢/ ٤ -٣٦ / ٤ - ٤٦ / ٤، ويُنْظَر: الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي، ص ٥٣٦.

مُخاطَبٍ موجودٍ في عالم الحقيقة(١) ـ إلى أنَّه لا يقرضُ الشِّعرَ مُبتغيًا من ورائه تحقيقَ مرتبةٍ تُعْلي مراتبَه العاليةَ في أصلها، أو تحقيقَ مَكْسَبٍ مَّا. هنا أستطيعُ القولَ بأنَّ المُتلقِّي لم يكُنْ مُتحفِّزًا لمعرفة المُحال عليه بقَدْر تحفُّزِه مع ضميرِ الغائب، فبمجرَّد قولِه (أنا) عُرِف المُحالُ عليه، وهو ما يمكِّنُنا من القول بأنَّ الاسْتِمْراريَّةَ الدَّلاليَّةَ مع هذا الضَّميرِ مرهونةٌ بالبيتِ الذي وُجدَ به، أمَّا إذا أتَى الشَّاعرُ به في أبياتٍ أُخَر من القصيدة، فإنَّ ذلك يخرجُ من باب الإحالَة الخارجيَّة بالضَّميرِ إلى باب التِّكرار، الذي يُعدُّ مِنْ وسائلِ التَّرابُطِ النَّصِّيِّ أيضًا، ما لم يَكُنْ تكرارًا مَمْجُوجًا.

هذا، وإنْ كان مَا تقدَّم مِنْ تمثيلٍ للإحالةِ الخارجيّة باستخدامِ الضَّميرِ البارزِ ـ سواءٌ أكان للغائب أمْ للمتكلمِ أمْ للمخاطَب ـ فإنَّ الإحالةَ بالضَّميرِ المُستترِ في ديوان الشَّاعرِ خليفة التِّلِّيسيّ قدْ أسهمَتْ في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ أيضًا(٢)، ومثالُه في الإحالَة الخارجيَّة قوله(٣): (من الكامل)

قُلْ فتِّشُوا قَلْبِي فَفِي أَعْمَاقِه
حُبٌّ يَعُمُّ أَبَاعِدًا وَأَقَارِبَا

وهنا يحضُرُني قولُ الدكتور محمد خطابي في تعليقه على قَولِ هاليداي ورقية حسن: "أمَّا الضمائرُ التي تؤدِّي دورًا هامًا في اتِّساق النَّصِّ، فهي تلك التي يسمِّيها المؤلفان "أدوارًا أُخرى" (other roles)، وتندرج ضمنها ضمائرُ الغيبة إفرادًا أو تثنيةً وجمعًا (هو، هي، هُم، هُنَّ، هما). وهي ... تُحيلُ قبليًّا بشكلٍ نمطيٍّ إذْ تقومُ بربْطِ أجزاءِ النَّصِّ، وتصلُ بين أقسامه"(٤).

(١) يُنْظَر: الإحالةُ في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٣٠، والنَّص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص ١٧٢.

(٢) الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٤٦.

(٣) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ص ٣٤.

(٤) لسانيات النَّصِّ، د. محمد خطابي ص ١٨، ويُنْظَر: Cohesion in English ,p51

وبناءً على ذلك وما سبقَ عَرْضُه مِن أنَّ الإحالة بضميرِ الغيابِ تُقدِّمُ استمراريةً دَلاليَّةً لا تقدِّمُها الإحالةُ بضَميرِ المتكلِّمِ أو المخاطَب، إنْ وَاجَهَهُ قَولُ قائلٍ مًّا :بأنَّ هذا أمرٌ غيرُ مُسلَّمٍ به؛ فماذا لو أنَّنا استبدَلْنا بعنوانِ إحدى قصائد التِّلِّيسيّ، وهو (وقْفٌ عليها الحُبُّ) العنوانَ (وقْفٌ عليكِ الحُبُّ)؟ أليستْ الإحالةُ بضميرِ المخاطَبة مِمَّا يُمَكِّنُ من استحضارِ المخاطَبِ غيرِ المُعرَّفِ سَلفًا بحسَبِ عبارةِ الباحث؟ أَوَليس مِن شأنِ ذلك أنْ يُثيرَ في المتلقي إعمالَ ذِهْنِه في استجلاءِ المقصودِ بهذا الضَّميرِ، تمامًا كضَميرِ الغَيْبة؟

وأنَّ ما يتَحدَّثُ عنهُ الباحثُ مُجرَّدُ افتراضاتٍ غيرِ لازمةٍ ولا مُلزمةٍ . كلُّ ما في الأمرِ في الإحالةِ الضَّميريَّة التي أشارَ إليها الباحثُ أنَّها ليستْ عَصيَّةً على التفسيرِ، ومن ثَمَّ فهي تُسْهِمُ في إبرازِ التَّرابُطِ النَّصِّيِّ، للغيبةِ كان الضميرُ المُحيلُ أو للخطابِ .

أقولُ: إنْ كان ذلك كذلك، فإنَّ قولَ المُفترِضِ: فماذا لو أنَّنا استبدلنا بعنوانِ إحدى قصائد التِّلِّيسيّ، وهو (وقْفٌ عليها الحب) العنوانَ (وقْفٌ عليكِ الحب) - يمكنُ أنْ يُردَّ عليه بأنَّ الحضورَ والمُشاهدةَ في ضميرِ المُخاطَبِ وضميرِ المُتكلِّم - سواءٌ أكانت مُشاهدةً حقيقيَّةً أم غير حقيقةٍ - يجعلانِ الاستمرايةَ الدَّلاليةَ في الإحالةِ بهما أقلَّ من الإحالةِ بضميرِ الغائبِ، وهو ما عليه قولُ زُهير بن أبي سلمى(١): (مِن الطَّويل)

وَمَا الحَرْبُ إلا مَا عَلِمْتُمْ، وذُقْتُم
وَمَا هُو عَنْهَا بِالحَدِيْثِ المُرَجَّمِ

ونظيره مِنْ شِعْرِالتِّلِّيسيّ قولُه(٢): (من البسيط)

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، شَرْح أبي العبَّاس ثَعلب، قدَّم له ووضَعَ فهارسه د. حنا نصر الحِتِّي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ص ٤٢، والمُرَجَّم : المظنون .

(٢) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ٢٨ / ١، ويُنْظَر ١٩ / ٣، ٥ .

مَا جِئْتُ رَوْضَكِ مُجْتَاحًا يُنازِعُنِي
شَوْقٌ إِلى زَهْرةٍ قَدْ عزَّ جَانِيهَا
بَلْ جِئْتُهُ أَتَمَلَّى صُنْعَ خَالقه
والنَّفْسُ يُقْنِعُها إِعْجَازُ بَارِيهَا

فالشَّاعرُ في بدايةِ قصيدته (النَّخلة الكريمة) يُحيلُ إحالةً خارجيَّةً، من خلال الجملةِ الفِعْليَّة الخبريَّة المنفيَّةِ (مَا جِئْتُ رَوْضَكِ مُجْتَاحًا) المُتَّخذَة نَمطَ (حرف النَّفي + الفعل + الفاعل + المفعول به + المضاف إليه + الحال) حيثُ أحال بضميرِ المُخاطَبَةِ على (النَّخلة الكريمة) الحاضرةِ في سياق الكلام، ممَّا يجعلُ الاستمراريةَ الدَّلاليةَ معه أقلَّ منها مع ضمير الغائب؛ ومن ثَمَّ كان السيوطيُّ على حقٍّ في قوله السَّابقِ ذِكْرُه، مُضافًا إليه أنَّه لَمَّا كانت سياقاتُ الخطابِ والتكلُّمِ أقلَّ من سياقات الحديثِ عن الغائب، حيثُ سَرْدُ الأحداث وما يتعلَّقُ بها من وَصْفٍ وغيرُه، فإنَّ الضَّميرَ الغائبَ يشكِّلُ تفوُّقًا في كثيرٍ من النُّصوصِ، الشِّعريَّةِ والنَّثريَّة، إنْ لم يكُنْ فيها جميعًا[(١)]، على نَحوِ ما هو ملموسٌ لدى التِّلِّيسيّ.

نعودُ إلى ما اقتطعناه من حديثٍ فأشيرُ إلى أنَّ الشَّاعرُ في قصيدَته (قَدَرُ المواهبِ) يتحدَّثُ قبل هذا البيتِ (قُلْ فتِّشُوا قَلْبِي) بعدَّة أبياتٍ عن الحراسةِ التي تصدُّه عند الحدودِ مُهدِرةً الكرامَةَ، وذلك من وحْيِ مُعامَلَةٍ سيئةٍ بأحدِ المطارات العربيَّة[(٢)]، لدرجةِ أنَّ بشَاعةَ هذه الحراسَةِ لم تُقدِّرْ وشائجَ القرَابة، مُشيرًا إلى أنَّ ثَمَّةَ أصواتًا في العربِ تشكُّ في كلِّ قادمٍ، مِنْ مُنْطَلَقِ أنَّه خَطرٌ أو أنَّه عدوٌّ غاصبٌ، فيقولُ[(٣)]: (من الكامل)

(١) يُنْظَر: التَّرابطُ النَّصِّيُّ في رواية النداء الخالد، عيدة مسبل العمري، ص ١٠٩، حيث إنَّها من الدراسات التطبيقية التي خرجت بتفوقِ ضمائرِ الغيبةِ على ضمائرِ الخِطابِ والتكلُّمِ، والإحالة في نَحْوِ النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٣٦.

(٢) يُنْظَر: خليفة محمد التِّلِّيسيّ ناقدًا وأديبًا، مصطفى محمد جحيدر، ص ٢٢١.

(٣) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ص ٣٣.

وتَصُدُّني عِنْدَ الحُدُودِ حِراسَةٌ
جَعَلوا لَها هَدْرَ الكَرامَةِ واجِبا
ذَخَرَتْ بَشاعَتَها وجَفْوَةَ طَبْعِها
للأَقْرَبِين وشائِجا ومَناسِبا
في العُرْبِ أوصَوْا أَنْ تَشُكَّ وأَنْ تَرى
خَطَرًا يُهدِّدُ أو عَدُوًّا غاصِبا

وهو ما يُلاحظ منْ خلالِها أنَّ في كلٍّ مِن الأفعال (قُلْ، وتَشُك، وتَرى) ضميرًا مُستترًا، تقديرُه: أنت، وأنَّ هذا الضَّميرَ المُسْتترَ يُحيلُ على شخصٍ خارجيٍّ موجودٍ في عالَم الحقيقة، لكنَّه غيرُ مذكورٍ في النَّص[١]، ممَّا يَحْمِلُ المُتَلَقِّي على التَّفكيرِ فيه ومشاركةِ الشَّاعرِ في تشكيلِ المعنى النَّصِّيِّ للأبيات، وهو مَا يُشْعِرُك بأنَّ ثَمَّة تماسُكًا، أحدَثه ذلك الضَّرْبُ مِن الإحالَة الخارجيَّة، بين أبيات القصيدة، وبينها وبين العالم الخارجيِّ من جهةٍ أُخرى حيثُ المُحالُ عليه المُتمثِّلُ في المُخاطَبِ، باستخدام الضَّميرِ المُستتر[٢].

هذا، ولا يخفى علينا مَا في الفِعل (ذَخَرَتْ) من إحالةٍ أيضًا، لكنَّها داخليةٌ، باستخدامِ الضَّميرِ المُسْترِ (هي) - بالإضافة إلى البارز المُحيل على الحراسة أيضًا في

---

(١) قد يكون مرجع الضَّمير غير مذكورٍ في البنية السَّطحية للنَّصِّ، فهو من قبيل المُحدَّد غير الصَّريح، يُنْظَر على سبيل المثال ديوانه: ٣٣ / ١ حيث قوله:

خَمْسون منْ عُمْرِ الزَّمانِ وَهَبْتُها ... للفكْرِ أَرْفَعُ كُلَّ يومٍ جَانبَا

فالتقدير: خمسون سنةً، فحذفَ التمييزَ للعِلْم به، وأعادَ الضَّميرَ عليه في (وَهَبْتُها). يُنْظَر: ظاهرة الحذف في الدَّرس اللُّغوي، د. طاهر سليمان حمودة، الدَّار الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢ م، ص ٢٥١، وشرح المُفَصَّل، ابن يعيش، ٢ / ٧٠، وتحليل اللَّفظ وتقويم المعنى وأثرهما في التراث النَّحْوي، د. عبدالسلام السيد حامد، رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٤٣، والحذف التَّركيبيِّ وعلاقته بالنَّظم والدِّلالة، د. فايز صبحي تركي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠١١ م، ص ١٠٢ - ١٠٤.

(٢) من الدِّراسات التي تحدَّثتْ عن حُدوث الاتِّساق بالضمير المُستتر دراسة: الاتِّساق في الخطاب الشعري "من شمولية النَّصِّيَّة إلى خصوصية التَّجربة الشعرية"، إبراهيم بشار، مجلة المَخبر، العدد السادس، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ٢٠١٠ م، ص ٧، والتَّرابُط النَّصِّيٌّ في رواية النداء الخالد: عيدة العمري، ص ١٠٩.

(لها) ـ لخَلْقِ علاقةٍ بين أجزاءِ النَّصِّ، يمكنُ للمُتلقِّي تلمُّسهَا، فإذا به يُلاحظُ أنَّ الضميرَ يُحيلُ على (الحراسَة) في البيتِ السَّابقِ، مُحقِّقًا الإيجازَ بجانبِ الرَّبْطِ، وهو مَا عليه الأمْرُ في الفعل (يُهدِّدُ)، فالضميرُ المُستترُ فيه يُحيلُ أيضًا إحالةً داخليَّةً قبليَّةً على كلمة (خَطَر).

وهنا تظهرُ مهارةُ الشَّاعرِ في استخدامِ مَا أتاحهُ له النِّظامُ النَحْويُّ من استتارِ الضميرِ في الفِعْل، مِنْ أجْلِ الوفاءِ بالتَّرَابُطِ النَّصِّيِّ والمعنى المُراد، وتحقُّقِ الوزن، فالأبياتُ من بحر الكامل، ولو قال على سبيلِ المثال: ذَخَرَتْ الحراسةُ بشاعتَها وجَفْوَةَ طَبْعِهَا، لَمَا استقامَ الوزنُ، ولَمَا صَحَّتْ القافية برويِّها المُراد، بالإضافة إلى أنَّ تكرارَ الظَّاهر (الحراسة) هنا مَمْجُوج.

هنا أشيرُ إلى أنَّ ثَمّةَ انتشارًا للضَّميرِ المُسْتَترِ في شِعْرِ خليفة التِّلِّيسي(١)، سواءٌ أكان مُحيلا على خارج النَّصِّ أَمْ غيرَ مُحيلٍ على خارجه ـ حيثُ مثَّل غيرُ المُحيلِ على خارجِ النَّصِّ رابطًا بين الجُمَل، لاسيَّمَا الفرعيَّةُ منْها، وهو مَا أسْهَمَ في التَّرَابُطِ على مستوى الجُمْلَة، ومن ثَمَّ النَّصُّ ـ في إطارِ اعْتمادِ الشَّاعرِ على الإيحاءِ في الخطابِ الأدبيِّ؛ ومن ثَمَّ تقلُّص التَّصريح، وهو ـ أي الإيحاءُ ـ ما يُعرفُ "بأنَّه مجموعُ الطَّاقاتِ الإيحائيةِ في الخِطَابِ الأدبيِّ، وذلك أنَّ الذي يُمَيِّزُ هذا الخطابَ هو كثافةُ الإيحاءِ وتقلُّصُ التَّصريحِ، وهو نقيضُ مَا يطَّردُ في الخِطَابِ العاديِّ أو ما اصْطلَحنَا عليه بالاستعمالِ النَّفْعيِّ للظاهرةِ اللُّغويَّة، والحقيقةُ أنَّ الطَّاقةَ الإيمائيةَ في اللُّغَةِ لا يُمكنُهَا أنْ تستقلَّ بذاتها، إذْ قدْ يكونُ تصريحٌ بلا إيماءٍ، ولكنْ يتعذرُ الإيماءُ بلا تَصْريحٍ، ولَعَلَّ ماهيَّةَ الأسلوبِ تتحدَّدُ بنسيجِ الرَّوابطِ بين الطَّاقتَين التَّعبيريَّتَين في الخطابِ الأدبيِّ، طاقةِ الإخبارِ وطاقةِ التَّضمين"(٢).

(١) يُنْظَر على سبيل المثال ديوانه: ٢٦ / ١ـ ٥.

(٢) الأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المسدي، الدَّار العربيّة للكتاب، طرابلس- تونس، الطَّبْعَة الثَّالثة، =

وما كان ذلك إلاَّ مِنْ مُنطلَقِ أنَّ موضوعَ الكلامِ لدى الشَّاعرِ يزاحمُهُ، ممَّا جعلَه يستغني عن تكرارِ اللَّفظِ المعبِّرِ عنْ موضوعِ الحديثِ، ويعبِّرُ عنه بالضَّمائرِ، سواءٌ أكانتْ بارزةً أَمْ مُسْتترةً(١)، وهو الأمرُ الذي دَعَا أستاذى الدكتور زين الخويسكى - عند حديثه عن استتارِ الفاعلِ في شِعْرِ المتنبي - إلى قوله: "وعلى هذا فإنَّ السِّمةَ الغالبةَ هي استتارُ الفاعلِ، واسْتِتارُ الفاعلِ بهذه المناسَبَةِ الكبيرةِ بدرجةٍ تلفتُ النَّظرَ مرجعُهُ - فيمَا أرَى - إلى أنَّ المُتنبي في لُغتِه اعتمدَ كثيراً على الإيحاءِ؛ وذلك لأنَّ موضوعَ كلامِه كان يشغَلُ حَيِّزاً كبيراً في ذِهْنه؛ ومِن هنا كان يَستغني عن تكرارِ اللَّفظِ المعبِّرِ عن موضوعِ الحديثِ، ويعبِّرُ عنه بالضَّمائرِ"(٢)، فالجُمْلَةُ " قد تُصَاغُ بطريقةٍ معيَّنةٍ، وتحتملُ عِدَّةَ معانٍ مُختلفةٍ بعضُها بطريقِ التَّضمينِ، وبعضُها بطريقِ الإيحاءِ أو الرَّمزِ إلى آخرِه"(٣)، وهو ما سيتضحُ أكثر في تناولِنا الإحالَةَ الدَّاخليَّة، فيما هو آت.

= ١٩٨٢ م، ص٩٥-٩٦، ويُنْظَر: الأسلوب وعلْم الأسلوب، د. موريس أبو ناصر، الثقافة العربيّة، السنة الثانية، العدد التاسع، سبتمبر، ١٩٧٥م، ص٤-٤٦، وتجدر الإشارةُ إلى أنَّ للتَّضمينِ طاقتُه وأثرُه في التَّرابُط عند التِّلِّيسيّ: يُنْظَر ديوانه ٦١ -٦٢ / ٤-٢، ٦٨ / ٤-٥، ٢١٥ / ٢ -٣، ٢٣٩ - ٢٤٠ / ٦-٧.

(١) تجدر الإشارةُ إلى أنَّه عندما يكون الإظهارُ واجبًا وأفضلَ لعدم اللَّبس، فإنَّ التِّلِّيسيّ كان يلجأُ إلى ذلك، كما في٤٧ / ٤- ٥، ٨٩ / ١، ١٢٨ / ٢، ١٣٢ / ١، ١٥٧/ ٣، ١٦٠ / ١، ١٦٥، ٤، ٦، وكان يلجأُ إلى الإظهار في موضع الإضمار، نَحْو ١٣٥ / ٣، ١٤٢/ ٣، ١٦٥/ ٦، وهو الأمرُ الذي وُجِدَ عند فحول الشُّعراء، يُنْظَر: ديوان امرئ القيس ص ٣٧.

(٢) الجملة الفعليَّة بسيطة وموسعة "دراسة تطبيقية على شعر المتنبى، د. زين الخويسكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ١/ ٤٣٠، ويُنْظَر: أيضًا: ظاهرة الاستغناء في قضايا النَّحْو والصَّرف، د. زين الخويسكي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٦م، ص٣٩-٥٧، وعلْمُ اللُّغَة النَّصِّيِّ بين النظرية والتطبيق، د. صبحي الفقي ١/ ١٩٨ - ١٩٩.

(٣) النَّحْو والدَّلالة "مدخل لدراسة المعنى النَّحْويِّ الدَّلاليِّ"، د.محمد حماسة عبد اللطيف، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٣ م، ص ١٠، ويُنْظَر: التَّفكير اللِّسانيُّ في الحضارة العربيّة، د. عبد السلام المسدي ص٣٢١-٣٢٢ حيث يرى أنَّ من مميزاتِ الخطابِ اعتمادَه على الطاقةِ الإيحائيةِ إلى جانب طاقاته التَّصريحيَّة، وهنا أشيرُ إلى أنَّ ثَمَّة دراسةً بعنوان " الصورة الرمزية في الشِّعر العربيِّ الحديث شعر خليفة التِّلِّيسيّ نموذجًا" للباحثة نجاة عمار الهمالي، نَشْر مجلس الثقافة العام، ليبيا، لكنَّ يدي لم تقع عليها.

وإنْ أنْسَ لا أنْسَى الإشارةَ إلى أنَّ ما نحنُ بصدَده مِنْ تَتابُع أو تواتُر للضمائر المُختَلِفَة في اللَّوحة السَّابقة ـ سواءٌ أكان ما تُحيلُ عليه واحدًا أمْ مُتعدِّدًا ـ يفضي بنا إلى أنَّ مِنْ وظائف الإحالة بالضمائر في شِعرِ التِّليسيِّ، تعزيزَ بِنْيَة التَّعدُّد المرجعيّ أو التَّعدُّد الإحاليِّ، فعلى سبيل المثال أحال الضَّميران في (لها، وذخرت) على الحراسة، مُسْهِمان في التفصيلات التي يتَّضحُ بها المُحالُ عليه الذي قد يكونُ جُزءًا من الحدَث كاملاً، على نَحوِ ما نحنُ بصدده في قصيدة (قَدَر المواهب)، أو قَدْ يكونُ الحدثُ كاملاً، على نحو ما سبق في قصيدة (ليبيا) حيث الإحالة عليها إحالةً خارجية في أوَّلِ بيتٍ، في قوله (أعطيتها)؛ ومن ثَمَّ تتابعت الضمائر بعد ذلك، بسبب تتابع التفصيلات، المَبنيَّة على أنَّ المُحال عليه (ليبيا) هو الذي يصنعُ الأحداثَ المُتعاقبةَ داخلَ نَصِّ التِّلِّيسيّ. وبناءً على ذلك يتَّضح لنا حَقًّا أنَّ قيمة هذا التُعدُّد المَرْجعيّ أو التَّعدُّد الإحاليِّ، تكمُنُ في تعزيز هذا التَّعدُّد، مِنْ جهة تحفيزِه القارئَ وتنشيطه على فَهْمِ المُحتوى المفهوميِّ للأحداث المُتعاقبة عَبْرَ البِنْيَة النَّصِّيَّة وإدْراكِه بطريقةٍ جيِّدَة(١)، على نحو ما سبق من تحليل.

ووصلاً بما سبق أعودُ للإشارةُ إلى أنَّه رُبَّما يقولُ قائلٌ: إنَّ ما أوردَه الباحثُ مِنْ إشارةٍ إلى عدمِ خُلُو ديوانِ التِّليسيِّ من إحالةٍ بضميرٍ مستترٍ، أمرٌ غريبٌ؛ فالمسألةُ هنا هي الإحالةُ بالضميرِ، وليس لِمَا أطلقَ عليه النُّحاةُ (الضمير المستتر) مِنْ مَزِيَّةٍ في عمليةِ الإحالةِ. وإذا كان هناك مِنْ مَزِيَّةٍ فللإحالة بالضَّميرِ، مُسْتتراً كان أو بارزاً. والضَّميرُ ـ بارزًا أو مستترًا ـ قد يُحيلُ على الدَّاخلِ وقد يُحيلُ على الخارج؛ وعليه لا أرى أهميةً أو فائدةً لِمثْلِ هذه الإشارة.

أقولُ: إنَّ مَا أطلقَ عليه النُّحاةُ ضميراً مُستترًا هو نوعٌ من الضَّميرِ، مِنْ مُنطلقِ

(١) يُنْظَر: العناصر المرجعية (الضميرية) في سورة الكهف دراسة نصِّية وظيفية، عبد المهدي الجراح، إبراهيم الكوفحي، ومحمد القضاة، ص ٥٤٢، ٥٤٣، والنَّص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص٣٠١.

كَوْنِ الضمائرِ ضربًا منْ ضروبِ الإحالةِ، وأنَّ الإشارةَ إلى شيوع الضَّميرِ المُسْتترِ هدفُها الإشارةُ إلى كثافةِ الإيحاءِ وتَقَلُّصِ التَّصريحِ، وهو نقيضُ ما يطَّردُ في الخطابِ العاديِّ، وأنَّ ما كان يحتاجُ خليفةُ التِّليسيُّ فيه إلى تكرارِ الظَّاهرِ، كان يكرِّرُه لغرضٍ دَلاليٍّ مَّا، كالتَّعظيمِ، والتَّفخيمِ، والاحتقارِ أو الرِّضا، أو عدم الرِّضا، وغيرِ ذلك من أغراضِ تكرارِ الظَّاهرِ أو إحلالِه محلَّ المُضمَرِ، تلْكَ الأغراضُ التي ينشغلُ ذهْنُ المُتحدِّث بتنبيه المُخاطَبِ إليها، وفي هذه الحالةِ يكونُ التكرارُ نفسُه وسيلةً من وسائلِ التَّرابُطِ النَّصِّيِّ، فلْنَنْظُرْ ـ مثلاً ـ إلى قوله ﷺ : "مَنْ كانت هجرتُهُ إلى الله ورسولِه، فهجْرتُه إلى الله ورَسُولِه، ومَنْ كانت هِجْرتُه إلى دُنيا يُصيبُها أو امرأةٍ ينكحُها فهِجْرتُه إلى مَا هاجرَ إليه" ؛ فقد كرَّر ـ عليه السَّلامُ ـ في موضعٍ، وأحالَ في موضعٍ آخرَ منَ الحديثِ نفسِه، وفي معنًى واحدٍ هو (الهجرة)، مشيراً بالتكرارِ إلى الرِّضا عن المُهَاجَرِ إليه، ومُشيراً بالإحالةِ بالموصولِ والضَّميرِ إلى عدمِ الرِّضَا عن المُهاجَرِ إليه، وهنا أُشيرُ إلى أنَّ هذا التكرارَ لا يقعُ تحت قُبَّةِ التكرارِ غيرِ المقبولِ أو المَمْجوجِ ، الذي إذا ارتكبَه الشَّاعرُ أو الكاتبُ لَأصبحَ غيرَ مَرْضِيٍّ عنه أو غيرَ مقبولٍ من جانبِ المُتلقي[(١)].

هذا، وإنْ قيل: بأنَّ شَغْلَ موضوعِ الكلامِ حيِّزًا في الذِّهن يناسبُه استعمالُ الضميرِ، لاسيَّما المُستترُ، قولٌ لا دليلَ عليه، وإنَّما هو افتراضٌ لا يؤيِّده شيءٌ مطلقًا، وبخاصة إذا عَرَفْنَا أنَّ استتارَ الضميرِ في تصريفاتِ بعضِ الأفعالِ أمرٌ خاصٌّ ببعضِ الصِّيغِ، ولا صِلَةَ له بالجانبِ الإبداعيِّ؛ فالضمير في الصِّيغِ (فَعَلَ وفَعَلَتْ / يفْعَلُ وتفْعَلُ / نفْعَلَ / أفْعَلُ) مستترٌ جوازاً ووجوبًا، إبداعيًّا كان النَّصُّ المستخدمةُ فيه هذه الصِّيغُ أو غيرَ إبداعيٍّ . وأنَّ هذه الصِّيغَ تتردَّدُ على ألسنةِ

(١) من مواضع التكرار غير المجموجِ لدى التِّلِّيسِيّ، بديوانه ١٠٥ / ٣، ١١٩ / ١، ١٤٢ / ٣، ٢٤٧ / ٥، وذلك يكونُ لغرضٍ دلاليٍّ مَّا بالإضافة إلى إسهامه في التَّرابط، ومن بين هذه الأغراض عدم اللَّبْس، على نحو ما سبقتْ الإشارةُ إليه، كما في المواضع ١٣٢ / ١، ١٥٧ / ٣، ٢٤٧/ ٥، ٦ .

المتكلمين العاديين والكُتَّاب، وفي نصوصِ المُبدعين على حدٍّ سواء.

إنْ كان ذلك كذلك، فإنَّ الردَّ عليه يكمُنُ في أنَّ استتارَ الضميرِ جوازًا ووجوبًا في الصِّيغِ المذكورةِ لا يمنعُ من توظيفه نصِّيًّا(١)، وهنا تظهرُ مهارةُ الشَّاعرِ أو الكاتبِ أو الباثِّ في استخدامها مُحيلاً بها مُحقِّقًا التَّرَابُطَ النَّصِّيَّ قاصدًا إيَّاه، مُستفيدًا من هذا المُعْطَى النَحْويِّ الذي يحقِّقُ مع غيره من الضمائر تتابُعًا أو توتُرًا، يُفضي إلى وظيفةٍ مُهمَّةٍ أيضًا، ويعزِّزُها، وهي التَّعدُّد المَرْجعي(٢).

أمَّا عن تتردُّدِ هذه الصِّيغِ على ألسنَةِ المتكلمين العاديين والكُتَّاب، وفي نصوصِ المبدعين على حدٍّ سواء، فأشيرُ إلى أنَّ تردُّدَها على ألسنَةِ المُتكلِّمين العاديين يكاد يخلو من قَصْديَّةِ التَّرَابُطِ التي لا نعدمُها في كلام الكُتابِ والشُّعراء، وأنَّ تردُّدَها على ألسنَةِ المُبدعين وغيرهم على حدٍّ سواء لا ينفي عنها إمكانيةَ إسهامها في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ، مع ملاحظةِ تغايُرِ دلالتها بحسَبِ سياقها، وأنَّ فاعليتَها في النَّثرِ تختلفُ عن فاعليتها في الشِّعرِ؛ من مُنطلقِ أنَّه محكومٌ بالوزنِ والقافية، وهنا تظهر المهارة التي تجدلُ أكثر من جديلةٍ في الوقت نفسه مُوفِّقةً بينها حتَّى يظهرَ المجدولُ - وأعني به النَّصَّ - في صورته الكائنِ عليها، أو التي أرادَها مُنتجُه.

(١) يُنْظَر: التَّرابط النَّصِّيُّ في رواية النداء الخالد، عيدة العمري، ص ١٠٩، حيثُ تمثيلُها للإحالة باستخدام الضميرِ المُتَّصلِ في الرواية موضعِ التَّطبيق، والإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٤٦ حيثُ تمثيلُه للإحالة بالضمير المُستتر في قصة الأديب أحمد الزُّعبي (البحث عن قطعة صابون)، وقراءة نَحْوية نصِّية في سورة ص، د. عرفة عبد المقصود عامر، ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النَّحْوية، دار العلوم، القاهرة، ٢٠٠٥ م، حيث تمثيلُه للضمير المستتر وجوبًا ص ٧٦٥ .

(٢) يُنْظَر: العناصر المرجعية (الضميرية) في سورة الكهف دراسة نصِّية وظيفية، عبد المهدي الجراح، إبراهيم الكوفحي، ومحمد القضاة، ص ٥٤٢، وقد أشيرَ بهذه الصفحة أيضًا إلى أنَّ التَّعدُّدَ المَرْجعي ظاهرةٌ لافتةٌ للنَّظَرِ في النَّصِّ القُرآنيِّ، ويعود هذا إلى عودةِ العناصرِ المرجعيَّة الضميريَّة إلى مَرْجعٍ ثابتٍ أو ماهيَّةٍ مرجعيةٍ ثابتة، فتكونُ بذلك قد أسهمت في الدخولِ في التفصيلات التي تخدمُ المرجعَ الأساسي الذي قد يكون جزءًا من الحَدَث كاملاً، أو قد يكونُ الحَدَث كاملاً. ويقومُ هذا التعدُّدُ بحسب وجهة دي بوجراند Debeugrande، وبراون ويول Brown and Yulle بتحفيز القارئ وتنشيطه على فَهمِ المحتوى المفهوميّ للأحداث المُتعاقبةِ عَبْرَ البِنْيَةِ النَّصِّيَّة وإدراكه بطريقةٍ جيِّدة.

ولئن أُرْدِفَ هذا الافتراضُ بآخرَ، مُفادُه أنَّه لو كان الأمرُ- كما يرى الباحثُ هو وغيره- فماذا يقول في الصِّيغ التي تبرزُ فيها ألفُ الاثنين وواو الجماعة، ممَّا يعده القدماءُ ضمائرَ بارزةً، ويعدُّه بعضُ الدارسين المحدثين مُجرَّدَ علاماتٍ لا ضمائرَ، وأنَّ الضَّمائرَ في مثلِ هذه الصِّيغِ مُستترةٌ، وأنَّ ألفَ الاثنين وواو الجماعة فيها ليستا إلاَّ علامتين غيرَ ضميريتين؟.

فإنَّ الإجابة على ذلك بأنَّ هذه حالةٌ ليس عليها جمهورُ النُّحاة(١)؛ ومن ثَمَّ لا ينبغي أنْ تُتَّخذَ زريعةً من أجل التقليلِ من كَونِ استعمالِ الضَّميرِ في الإحالةِ دليلاً على أنَّ الكلامَ يشغلُ حيِّزًا في ذهنِ المُرْسِل؛ ومن ثَمَّ يلجأُ إلى استخدامِ الضَّمائرِ مُسهمًا بها في التَّرَابُط النَّصِّيِّ .

هذا، وإنْ سلَّمنا بوجهَةِ النَّظرِ القائلة بأنَّ الضَّمائر في مثلِ هذه الصِّيغِ مستترةٌ، وأنَّ ألفَ الاثنين وواو الجماعة فيها ليستا إلاَّ علامتين غيرَ ضميريتين، فإنَّ صحةَ ما نراه من فرضيةٍ تبقى قائمةً بناءً على أنَّ ثَمَّةَ ضميرًا مُستترًا في هذه الصِّيغ، وظَّفَهُ المُرسِلُ، مُحيلًا به على عُنصرٍ مَّا، تقدَّم في النَّصِّ، أو تأخرَ، قاصدًا لَفتَ انتباه المُتلقي إلى أنَّ ثَمَّة ترابطًا نَصِّيًّا بين تلك الضمائر - بارزةً كانت أو مُستترةً - وبين ما تُحيلُ عليه، وعلى المُتلقي أنْ يتلمَّسَ دلالةَ هذا التَّرَابُطِ في إطارِ البِنْيَةِ الكُبرى للنَّصِّ، وهو ما ينسحبُ على ما سيأتي من إحالةٍ داخليَّةٍ بالضَّميرِ، في المَطْلَبِ الثَّاني.

لَكِنْ قبل الولوج إلى الإحالة الداخليَّة أودُّ الإشارةَ إلى أنَّ التِّلِّيسيّ لم يكُن مُجَرَّدَ مُتابعٍ لِمَنْ سبقوه من فحول الشُّعراءِ وغيرهم، فيما يتَّصل بالإحالة الخارجيَّة، فقد لاحظتُ أنَّه قد تفرَّد بالإحالةِ الخارجيَّة بضمير الغائب في مُفتَتَح قصائده أو في

(١) يُنْظَر: الكتاب ٢ / ٦ حيث يرى سيبويه أنَّها ضمائرُ، وقارن بما ورد لديه في ٢ / ٤٠، والإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٤٦ حيث تمثيلُه للإحالة البعديَّة بواو الجماعة المُحيلة على كلمة (ثلاثة) في قول الأديب أحمد الزُّعبي: "وعندما لمحوه فجأةً كانوا ثلاثة"، وقراءة نَحْويَّة نصِّية في سورة ص، د. عرفة عبد المقصود عامر ص ٧٦٦، حيث تمثيلُه للإحالة بواو الجماعة .

مُقدِّماتها، في إشارةٍ منه إلى أنَّ المُحالَ عليه هو ما سَتُبْنَى عليه التَّفصيلاتُ، فيما سيأتي من أبيات، وهذا لا يعني أنَّه لم يُحِلْ إحالةً خارجيَّةً في ثنايا القصائد، بل كان ذلك، لكنَّ الإحالةَ الخارجيَّة في ثنايا القصائد قد غلب عليها كَونُ الضَّميرِ للمُتكلِّمِ (أنا) أو للمُخاطبِ، نحو قوله (قُلْ).

وما كانت تِلْكَ الإشارة إلاَّ مِنْ مُنطلق ملاحظتي أنَّ الإحالة بضمير الغائب في مفتتح القصائد أو في ثناياها، فيما استقريته، لم تُستَخدَم لدي الفحول من الشعراء، فعلى سبيل المثال نجد امرأَ القيس يحيلُ بألف الاثنين في قوله[1]: (مِن الطَّويل)

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ

بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ وَحَوْمَلِ

وأحال بضمير المُخاطبِ (الكاف) إحالةً خارجيَّةً أيضًا في قوله[2]: (مِن الطَّويل)

سَمَا لَكَ شَوقٌ بَعْدَمَا كَانَ أَقْصَرَا

وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوٍّ فَعَرْعَرَا

لكنَّ الإحالةَ باستخدام ضميرِ المخاطب لا ترقى إلى الإحالةِ بضميرِ الغائبِ، مِنْ حيثُ مدى الاستمرارية الدَّلالية، على نحو ما سبق، مِنْ جهةِ أنَّ الحضورَ المُصاحبَ للخطابِ قد قلَّل مِنْ تَحفُّزِ المُتلَقِّي وكّدِّه في مَعرفةِ المُحالِ عليه، ففي البيت الأوَّل نعرفُ أنَّ المُحال عليه صاحبا الشَّاعر، وفي المثال الثَّاني نُلاحظ أنَّ الشَّاعرَ يُجرِّدُ من نفسه إنسانًا، يُخاطبه بأنَّ الشَّوقَ قد ارْتفعَ به، وذهبَ به كُلَّ مَذْهبٍ؛ لِبُعْدِ الأحبَّة عنه بعدَمَا كان أقصرَ عنهُ، وكفَّ بِقُربِ مَنْ يُحبُّ دُنوَّه منه[3].

(١) يُنْظَر: ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، د. ت، ص ٨، ويُنْظَر: ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٣٣ / ١، ١٦٦ / ١، ٢٢٢ / ١، ٢٢٤، ٢٤١، ٢٤٤ / ١، ٢٤٦، ٢٤٧، وشرح ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، ١ / ١٧.

(٢) يُنْظَر: السَّابق ص ٥٦.

(٣) يُنْظَر: السَّابق، نَفْسُه، حيثُ شَرْحُ المُحقِّق.

هـذا، ومِنَ المُلاحظ أنَّ التِّلِّيسيّ كان تابعًا لـمَا قبلَه مِنْ شُعراء العربية في القُدرة على امتلاك ناصية اللُّغة، فاستطاع أنْ يُحيلَ إحالةً خارجيَّةً بالضَّمير في إطار كُلٍّ مِنَ الجُملَتَيْن، الفعليَّة والاسميَّة، فكانَ يُحيلُ مُسْتَخدمًا الفعليَّة في سياقات التَّجدُّد، وهذا ما يُلْتَمَسُ فيما سبق، مِنْ قوله (أعطيتُها)؛ للدَّلالة على أنَّه بذَلَ كُلَّ غالٍ ونفيسٍ في سبيلِ بلاده، ومازالَ هذا العطاءُ مُتَجَدِّدًا. وكان يُحيلُ مُستَخْدمًا الاسميَّةَ في سياقات الثُّبُوت والاستمرار، وهذا ما يُلْتَمَسُ فيما سبق، مِنْ قوله (وَقْفٌ عليها الحُبُّ)؛ للدَّلالة على أنَّ حُبَّه بلادَه ثابتٌ ومستمرٌّ مهما تغيَّرَتْ بها الأحوال.

ولـمَّا كان ذلك كذلك، فليس فيه ما يُبرِّرُ القولَ بأنَّه لو حذَفنا اسمَ التِّلِّيسيّ، ووضعنا اسمَ شاعرٍ آخرَ مكانه لَمَا اخْتَلَفَ الأمرُ كثيرًا، إذنْ ما الجديدُ في هذا الشَّأن ـ فوَجْهُ نَفي هذا القولِ ما سبق من تحليلٍ مُضافًا إليه أنَّ استخدامَ تِلْكَ الإحالات في تراكيبها، فعليَّةً كانت أو اسميَّةً، بأنماطها المُختلفَة، في سياقاتها المُختلفة ـ للدَّلالة على ما اكتنفها مِنْ معنًى مَّا، رافقه قَصْدُ الشَّاعرِ، وجَدْله كلَّ ذلك في إطارِ ما اتَّخذه مسارًا له مِنْ بَحرٍ شعريٍّ موائمًا بين المعنى وما أُتيحَ له من زحافات واختيارٍ مُعْجَميٍّ، وما ارتضاه رَويًّا له في قصائده المُختَلفَة – لا يُجْدي مع كلِّ ذلك الإتيانُ باسمِ شاعرٍ آخر مكانَ التِّلِّيسيّ، ولاختلف الأمرُ كُلَّ الاختلاف؛ لاسيَّما أنَّ موضعَ التَّطبيقِ مُختلفٌ، وهو مَا ينسحبُ على مَا يلي مِنْ جُزئيَّات البحث.

المطلب الثَّاني: الإحالَةُ الدَّاخليَّةُ:

إذَا أردنا تناوُلَ الإحالَة الدَّاخليَّة في ديوان الشَّاعرِ خليفةَ التِّلِّيسيّ، أي الإحالَةُ على السَّابقِ Anaphora، أو اللاحق، فنشيرُ إلى أنَّها قدْ جاءتْ بنوعَيْها، القَبْليَّة والبَعْديَّة، فمثال القَبْليَّة مَا جاء في قصيدة (النَّخلة الكريمة)، حيثُ قولُه[1]: (من البسيط)

(١) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ٢٨ / ١–٤ ويُنْظَر به أيضًا ١٩ / ٦ – ٢٠ / ٦.

مَا جِئْتُ رَوْضَكِ مُجْتاحًا يُنازِعُنِي
شَوْقٌ إلى زَهْرةٍ قَدْ عزَّ جَانِيهَا
بَلْ جِئْتُهُ أَتَمَلَّى صُنْعَ خَالِقِه
والنَّفْسُ يُقْنِعُها إعْجَازُ بَارِيهَا
لَكِنَّ نَخْلَتَهُ مَالَتْ بِقامَتِهَا
وأَطْعَمَتْنِي ثِمَارًا مِنْ أَعَالِيهَا
ومَا هَزَزْتُ بِهَا حَتَّى تُساقِطُهَا
ولا مَدَدْتُ يَدِي حَتَّى أُدانِيهَا

فهذه اللَّوحة سبقَ تناوُلُ البيت الأوَّل منها في الإحالة الخارجيَّة، ووصلاً بذاك الحديث أُشيرُ هنا إلى أنَّ النَّاظرُ فيها يرى منَ التَّركيز الدَّلاليِّ والرَّمزيَّة مَا يدعو إلى إعمالِ العقلِ، مْنْ حيثُ قَصْديَّةُ الشَّاعرِ إلى رَوضَة النَّخلة الكريمة، منْ مُنطَلق أنَّ عنوانَ القصيدة (النَّخلة الكريمة) أَمْ أنَّه يرمزُ إلى شيءٍ خارجيٍّ أو يُحيلُ عليه - تلك اللَّوحةُ التي أسهمَتْ في تماسُكها الإحالَةُ الدَّاخليَّةُ القَبْليَّةُ - بجانب الإحالة الخارجيَّة – بتوظيف الضَّمائر في ظلِّ قيود الوزن والقافية وما يريدُه الشَّاعرُ من معنًى نَصِّيٍّ، فبدا من خلالها الإيجازُ والتَّركيزُ والاعتمادُ على اللَّمْحَة المُوحية(١)، وتفصيلُ تلك الإحالَة القَبْليَّة، وذلك الإيجاز أنَّ الشَّاعرَ قد أحالَ بلفظٍ كمِّيٍّ وجوديٍّ، هو الضَّميرُ في قوله (جانيها) – من الجُمْلَة الفعليَّة الخبريَّة المُثبتة المؤكَّدة

(١) يُنْظَر : النَّصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص ٢٩٩، وقصيدة البيت الواحد، لخليفة التِّلِّيسيّ، دار الشروق، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م، ص ٤١، وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ "الرَّمْز يبدأ من الواقع ليتجاوزَه، فيصبحُ أكثرَ صفاءً وتجريداً، ولكنَّ هذا المستوى التَّجريديَّ لا يتحققُ إلاَّ بتنقية الرَّمز من تخوم المادة وتفصيلاتها؛ لأنَّه يبدأ من الواقع، ولكنَّه لا يرسمُ الواقعَ، بل يردُّه إلى الذات، وفيها تنهارُ معالمُ المادة وعلاقاتها الطبيعية؛ لتقوم على أنقاضها علاقاتٌ جديدةٌ مشروطة بالرؤيا الذَّاتية للشاعر" :الرمز والرمزية في الشِّعر المُعاصر، د. محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، الطَّبْعَة الثَّالثة، ١٩٨٤ م، ص ١٣٦ – ١٣٧.

بقد (قد عزَّ جانيها) الواقعةِ نعتًا، مُتَّخِذَةً نَمَطَ (قَدْ + فِعْل + فاعل + مُضاف إليه) – على المنعوتِ المجرورِ (زهرة) الموجودِ في عالَمِ الواقعِ والحقيقة، والمذكورِ قبلَ هذه الجُمْلَة[1]، فعادَ الضَّميرُ على أقربِ مذكورٍ مُتطابقًا معه، من مُنطلق كونه أقرب مذكورٍ صالحٍ لُغةً وعقلاً، وهو المُتحدَّثُ عنه، مُتابعًا في ذلك فُحولَ الشِّعر الجاهليِّ[2]، فكلَّما اقتربتْ المسافة بين عُنصرِ الإحالةِ والمُحالِ عليه كان فهْمُها مُمكنًا؛ "ومن هنا يشيرُ علماءُ اللُّغة النَّصِّيُّون بضرورة ألا نتركَ مسافةً كبيرةً بين اللَّفظِ المُحيلِ والمُحالِ إليه في الإحالتين (القبليَّة والبعديَّة) إذْ يُمكنُ أنْ يُسبِّبَ

---

(١) من إعادة الضَّمير في جملة النعتِ على المنعوت قبلها يُنْظَر ديوانه ٦٦ / ١، ٧٥ / ٦ ، ٩٠ / ٦ ، ويُنْظَر: النَّصُّ والخطاب والإجراء ص ١٧٢، والإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٣٠ حيث الإشارةُ بهما إلى أنَّ الإحالةَ تأتي عن طريق ألفاظٍ واجبة الصِّدق، فالإحالةُ على شيءٍ مفردٍ تكونُ بلفظٍ كمِّيٍّ وجوديٍّ، أمَّا الإحالة إلى مجموعةٍ كاملةٍ من الأشياء، فإنَّها تكونُ بلفظٍ كَمِّيٍّ كُلِّيٍّ، حتَّى تكون العبارة واجبة الصِّدق بالنِّسبة لكلِّ فردٍ من الأفراد المقصودين بالإحالة .

(٢) يُنْظَر: الإحالَة وأثرها في دلالة النَّصِّ وتماسكه ص ١٧٧– ١٧٨، حيث يرى الدكتور محمد محمد يونس ـ وهو ما أوافقه عليه ـ أنَّ ضابط كون إعادة الضَّميرِ إلى أقرب مذكورٍ يحتاج إلى تقييد، وذلك بأنْ يُقال: أقربُ مذكورٍ صالحٍ لُغَةً وعقلًا لعود الضَّميرِ إليه؛ وأشارَ إلى أنَّ إضافة "صالح لُغَة" للاحتراز عن نَحْو (أعطيت ابنتي فاطمة قلمًا، وابني خالدًا كراسة، لم تمضِ ساعتان حتى كسَرتْ فاطمة قلمَها، ومزَّق خالد كراستَه، فعنفت عليهما، فلامتني جدتهما على ذلك)، فلا يصلح أنْ يُعزى فيها الضَّمير "ها" في قلمها إلى المتكلم المشارِ إليه بـ "تُ" في "عنفتُ"؛ لعدم التطابقِ من حيثُ الجهةُ؛ لأنَّ "تُ" ضمير المتكلم، و"ها" للغائب، ولا أنْ يُعزَى فيها الضَّميرُ"ها" إلى خالد؛ لعدم التطابق من حيثُ الجِنْسُ . وأمَّا إضافةُ "صالح عقلا" فلاستبعاد نَحْو (استطاعت القطة أنْ تصمدَ طويلا في مطاردة الفأرة، لكنَّها أخفقت في اللِّحاق بها) التي يمكنُ فيها تحديدُ المرجعِ المقصودِ بمقتضى معارفنا عن محتويات العالمِ الخارجيّ، وقوانينه. وبناءً على ذلك فإنَّ معرفتنا أنَّ القطةَ هي التي تلاحقُ الفئرانَ وليس العكس، هي التي تعيننا على إدراك أنَّ "القطة" هي المرجع الوحيد الذي يمكن عقلا وعادة إعادةُ الضَّميرِ إليه، وإنْ كانت "الفأرة" أقربَ إلى الضَّمير "ها" من "القطة"، ويُنْظَر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ت ٧٩٤هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ– ١٩٧١م، ٤ / ٢٥، ومعاني النَّحْو، د. فاضل السامرائي ،شركة العاتك لصناعة الكتاب، درب الأتراك، القاهرة، د.ت، ١ / ٥٧ وما بعدها، والضَّمائر في اللُّغَة العربيّة، د. محمد عبد الله جبر ص ٩٦ .

ذلك إرهاقًا للمُتلقي بدلاً من سهولة الرَّبط والاتِّساق"(١)، وهو مَا عليه قول زهير، مِنْ حيثُ الإحالة الدَّاخليَّة القبليَّة بضميرِ الغائبِ، وعَدَم تَرْكِ مسافةً كبيرةٍ، في قوله(٢): (من الطَّويل)

وَمَـا الحَـرْبُ إلا مَـا عَـلِـمْـتُـمْ، وذُقْـتُم
وَمَـا هُـو عَـنْـهـا بـالحَـديْـثِ الـمُـرَجَّمِ
مَـتَى تَـبْـعَـثُـوهَـا تَـبْـعَـثُـوهَـا ذَمِـيـمَـةً
وَتَـضْـرَ إذَا ضَـرَّيْـتُـمُـوهَـا فَـتَـضْـرَمِ

هـذا، وفي قـولِ التِّلِّيسيّ (بل جِئْتُه) إعرابٌ عن سبب المجئ، مُحيلاً بـالضَّمير البارزِ (الهاء) في (جئتُه) إحالةً قبليَّةً بعيدةً على (الرَّوض)، لا على (الشَّوق)(٣)؛ مِن منطلقِ أنَّ (الرَّوضَ) أقربُ مذكورٍ صالحٍ لغةً وعقلاً، وهو المُتحدَّثُ عنه، وهو ما تكرَّرَ في كلمةِ (خالقِه) من الجُمْلَةِ موضعِ الحالِ من تاء الفاعل (أَتَمَلَّى صُنْعَ خالقِه)، ثُمَّ أكَّد التَّملِّي والإمعانَ والتَّفكيرَ من خلال الجُمْلَةِ الاسميةِ الخبريةِ المُثبتة (والنَّفْسُ يُقْنِعُها إعْجازُ بَاريـهَا) المُحتويةِ على جُملةٍ فرعيَّةٍ، كانت بمثابة الخبر (يُقْنِعُها إعْجازُ باريهَا)، وهو ما يتَّضح من خلالها أنَّ الضَّميرَ في (يُقنعها) يحيلُ على أقربِ مذكورٍ (النَّفس)، وهو ما عليه الأمرُ في المضاف إليه (باريها)، فكانت

(١) الإحالـة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي، ص ٥٤٥، ويُنْظَر: النَّصُّ والخطاب والإجراء: روبرت دي بوجراند، ص ٣٢٨ .

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٤٢، وتبعثوها: تثيروها، وتَضرَ: تَعَوَّدُ، ويُنْظَر: ديوان امرئ القيس ص ٢٨ حيث قوله:

أَلا زَعَمَتْ بَسْبَاسَـــةُ اليَوْمَ أنَّني — كَبِرْتُ وَأَلا يُحْسِنَ اللَّهْوَ أَمْثَالِـي
كَذِبْتِ، لَقَدْ أُصْبِي على المَرْءِ عِرْسَهُ — وَأَمْنَعُ عِرْسِي أَنْ يُزَنَّ بها الخَالي

وقوله أُصبي: أذهبُ بفؤادها، وأمْنع عِرسِي: أي لِمَنْعَتِي وعِزَّتي لا يطمعُ الخالي في عِرْسِي، ويُزَنْ: يُتَّهمُ، والخالي: الذي لا زوج له: يُنْظَر ديوانه ص ٢٨ – ٢٩ حيثُ الشَّرْحُ.

(٣) يُنْظَر: ارتشاف الضَّرْب، أبو حيان ص ٩٤١.

الجُملُ مُترابطةً؛ ومن ثَمَّ ترابطَ النَّصُّ.

وفي استخدامٍ أراه رمزيًّا يستدركُ الشَّاعرُ مُخبرًا إيَّانا بأنَّ الرَّوضَ ـ المُكنَّى به عن الوطن الكبير ليبيا، في رأيي المتواضع ـ مُمثَّلاً في تلك النَّخلة، لم يبخلْ عليه، فقد بادرتْ النَّخلةُ مُميلةً قامتَها، وأطعمَتْهُ من أرْفَعِ مكانٍ فيها، وهو أعاليها، ذلك المعنى الذي ما كان ليصلَ إلينا بهذه الصورة إلاَّ بتوظيف الضَّمائر التي أوجدت الإحالَةَ القَبْليَّةَ، فأحالَ الضَّميرُ في (نَخْلَته) إحالةً قبليَّةً بعيدةً على (الرَّوض)، وأحالَ الضَّمير ـ بارزًا أو مستترًا ـ في قوله: (بقامتها، أطعمتني، أعاليها) على النَّخلة، وكأنَّه قد أرادَ توظيفَ الضمائرِ؛ كي تكونَ مُوجِّهةً الخطابَ نَحْوَ النَّصِّ نَفْسِه، أي توجيهُ الخطابِ نَحو محورِ الحديث، وهو النَّخلةُ الكريمةُ وروضُها الكائنةُ به(١).

وكأنِّي بالشَّاعر قد توقَّع سؤالاً مُفادُه :كيف مالت النَّخلةُ؟ فإذا به يجيبُ في البيت التالي بأنَّه لم يقُمْ بهزِّها حتَّى تُساقطَ ثمارَها، ولم يمْدُد يَدَهُ ليقرِّبَها؛ ومن ثَمَّ كانت الإحالَة القَبْليَّة على النَّخلة باستخدام الضَّمائرِ البارزةِ والمستترةِ في (بها، أدانيها، تساقطها)، والإحالَة القَبْليَّة بالضَّميرِ البارزِ على الثِّمارِ في (تساقطها)، وهو ما يتبين من خلاله أهمية الضَّمائر في التَّرابط، فكانت الاسْتِمْراريَّة الدَّلاليَّة، وهو ما جعلَ أحدَ الباحثين يقولُ : "إنَّ من أهمِّ الوظائفِ الدَّلاليَّة للضَّمائرِ في

(١) يُنْظَر: العناصر المرجعية (الضميرية) في سورة الكهف دراسة نصِّية وظيفية، عبد المهدي الجراح، إبراهيم الكوفحي، ومحمد القضاة، ص ٥٤٣، وبها تناول قوله تعالى من سورة الكهف: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا**﴾، ثُمَّ قال: فالعناصر المرجعية التي تظهر في الملفوظات (سعيهم، يحسبون، أنَّهم، يحسنون، ربِّهم، أعمالهم، لهم) والمُتمثِّلة بضمير الغائب (هم) تقوم بتوجيه الخطاب نحو محور الخطاب، وهم الأخسرون أعمالاً... ودون هذه العناصر المرجعيَّة يتشتَّتُ الخطابُ، ويُصبحُ جُمَلاً مُبعثَرَةً، فالمقصديَّةُ القرآنيةُ اقتضت وجودَ هذا النَّسق المرجعيِّ الذي يُعطي النَّصَّ اللُّحمةَ والتَّماسك والاستمرارية".

الخطاب العربيِّ هو تمكينُ النَّاطقِ بالعربيَّة، من متكلِّمٍ ومُتلقٍّ منْ متابعة مَا يعود عليه الضَّميرُ بسهولةٍ وبدقةٍ مُتناهية. ومعروفٌ أنَّ المُتكلمين بالعربيَّة ـ ولوجود هذا النِّظام الدقيق ـ لا يلتبس عليهم عائدُ الضَّميرِ إلاَّ في القليل النادر"(١).

ومن اللافت أنَّ تلك اللَّوحةَ قد كثُرتْ بها الضَّمائرُ المُحيلةُ، وذلك بسببٍ من طولِ الكلام(٢)، أي أنَّ الكلامَ المُراد الإدلاءُ به من جانبِ الشَّاعرِ كلامٌ كثيرٌ، والشَّاعرُ مُنفعلٌ في سياق الرَّوض ذي النَّخلة المُثمرة أمام نَفْسه التي لا تطمعُ في شيءٍ سوى التَّفكير في إعجاز الخالقِ ـ سبحانه وتعالى ـ وأمام تلك القناعة تتمايلُ بثمارها، فتُطعمُ الشَّاعرَ، فما جذَبَها، ولم يمدُدْ يدَه إليها؛ ليقرِّبها . . .إلخ، في إطارٍ من الرَّمز للوطن بالرَّوض، وإلى القائمين عليه بالنَّخلة المُثمرة. هنا أشير إلى أنَّه لو قال كلَّ ذلك وغيرَه لَمَا ظهرَ شعرُه بالصورة التي عليها، ولَمَا كان إعمالُ ذهْنِ المُتَلَقِّي في البحث عن المُحالِ عليه؛ ومن ثَمَّ إدراكُ أهميته بالنسبة للشَّاعرِ، فكانتْ الإشارةُ بالضَّمائرِ ضروريةً في مقابلِ طُولِ الكلام(٣)، ممَّا يمِّكننا من القول بأنَّ "مساحةَ الكلمةِ فيها بمساحة الانفعال"(٤)؛ ومن ثَمَّ كان الإيجازُ والتَّركيزُ

(١) الوظائف الخطابية للضَّمائرِ العربيَّة مع مقارنةٍ لنظام الضَّمائر في كلٍّ من العربيّة والإنجليزية، د. محمد خضر عريف، مركز بحوث اللُّغة العربيّة، جامعة أُم القُرى، السعودية، ١٤١٩ هـ، ص ٢٦، ويُنْظَر: الربط والروابط بين نَحْو الجملة ونَحْو النَّصِّ، د. حسن محمد نور المبارك، ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النَّحْوية، دار العلوم، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ص ٨٧١ حيثُ قوله: "والحقيقةُ أنَّ الضميرَ يعتبرُ رابطًا من الرَّوابط الاسميَّة، سواءٌ كان بارزًا أم مُستترًا؛ ذلك لأنَّه وإنْ كان مُستترًا يُدركُ بالعقل، ويُستنتجُ من خلال المعنى، إلَّا أنَّه في بعض المواضع يأتي رابطًا للجملة التي يأتي فيها بما قبلها، وبخاصة الضمير الوارد في جملة الحال والنَّعت، والجملةِ الواقعة خبرًا". ويُنْظَر في ذلك أيضًا بحثٌ لي بعنوان "ربط الجملة الفرعية بالضَّمير أو بالواو ودوره في تماسك النَّصِّ" دراسة في كافوريات المتنبي، ص ١٥ – ٥٠.

(٢) يُنْظَر: قصيدة البيت الواحد، خليفة التِّلِّيسيّ ص ٤١.

(٣) يُنْظَر الإحالَة ودورها في التَّماسك النَّصِّيِّ رواية في سبيل التَّاج للمنفلوطي، دنيا بن قسمي، ص ١٧٠.

(٤) قصيدة البيت الواحد، خليفة التِّليسيّ، ص٣٩، وممَّا يدلُّ على ذلك حَذْفُه حرفَ العطف في سياق الانفعال ١٧٦ / ٢–٣.

والاعتمادُ على اللَّمْحَةِ المُوحية(١)، وهنا يحضرُني ما أشارَ إليه أستاذي الدكتور محمد حماسة إلى "أنَّ اللُّغةَ النَحْويَّةَ المنظَّمَةَ تنظيمًا منطقيًّا لا تستقلُّ عن اللُّغةِ الانفعاليةِ، فبين اللُّغتَين تأثيرٌ متبادلٌ"(٢)، أضف إلى ذلك أنَّ كثرةَ الضَّمائرِ المُحيلةِ في اللَّوحةِ السَّابقةِ وغيرِها ـ ممَّا لم نُشِرْ إليه ـ مبعثُه "أنَّه كلَّمَا زادت الإحالَةُ في الجُمْلَة... زاد اعتمادُها على غيرِها في فهْمِها، واضمَحلَّ استقلالُها بنفسِها، فتزايدت قوتُها الرَّبْطيَّة، والتَّعليقيَّة، وقدراتُها التَّماسُكيَّة، وكُلُّ ذلك يدعمُ سِمَةَ النَّصِّيَّة في الكلام المؤلَّف"(٣).

هذا، ولـمَّا كان تأمُّلُ أوضح إشارةٍ في النقد والبلاغة العربية للسَّرْدِ الشعريِّ ـ في تعليق ابن طباطبا على قول الأعشى، فيما اقتصه من خَبَرِ السَّمَوأَل ـ يثيرُ جملةً من القضايا، من أهمها الرَّبط بين الوزن وما يقتضيه فنَّ القصِّ الشِّعريِّ من صيغٍ وأشكال(٤)، فإنَّ مَا استخدمَهُ التِّلِّيسيّ من صيغٍ وأشكال، أسهمتْ فيها الإحالةُ بالضميرِ، على نَحْو ما سبقَ، قد اتَّضحَ فيها الرَّبطُ بين الوزنِ وما يقتضيه فنُّ القصِّ الشِّعريِّ من صيغٍ وأشكال.

أمَّا عن الإحالَة الدَّاخليَّة البَعْديَّة، وهي المعروفةُ بالإحالَةِ على اللاحق Cat-aphora، فقبلَ التَّمثيلِ لها أُشيرُ إلى أنَّ الأصلَ في النَحْو العربيِّ أنْ يعودَ الضَّميرُ

(١) السَّابق ص ٤١.

(٢) لُغَة الشِّعر "دراسة في الضَّرورة الشِّعرية"، د. محمد حماسة، دار الشروق، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٩٩٦ م ص ٣٧٦، ويُنْظَر: الحذف التَّركيبيّ وعلاقته بالنَّظم والدَّلالة، د. فايز تركي ص ١٣٢ – ١٣٣.

(٣) الإحالَة وأثرها في دلالة النَّصِّ وتماسُكه، د. محمد يونس ص ١٦٨، ويُنْظَر: عِلْمُ لُغَة النَّصِّ المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص ١٥٨ حيث التَّماسُكُ الشَّكليّ.

(٤) يُنْظَر: بلاغة الخطاب وعِلْمُ النَّصِّ، د. صلاح فضل، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩، وعيار الشِّعر، ابن طباطبا "أبو الحسن محمد بن أحمد ت ٣٢٢هـ"، تحقيق د. عبد العزيز بن ناصر المانع، دار العلوم، الرياض، السعودية، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥ م، ص ٧٢ – ٧٦.

على مُتقدِّمٍ(١)، ويجوزُ أنْ يعودَ على مُتأخرٍ لفظًا ورُتبةً، في حالاتٍ قليلةٍ، ذكرَها النُّحاةُ(٢). وقبل أنْ أنتقلَ إلى الإحالَة الدَّاخليّة البَعْديَّة أُشيرُ إلى قول دى بوجراند: "وتأخُّرُ الألفاظ الكنائية عن مراجعها anaphorically، أي ورودُها بعد الألفاظ المشتركة معها في الإحالَة أكثرُ احتمالاً من ورودها متقدمةً عليها Cataphorical-ly، فرجوعُ اللَّفظ الكنائيِّ إلى متقدِّمٍ عليه يهيئُ مرْكزَ ضبطٍ أنْ تُضافَ إليه المادةُ المتعلِّقةُ باللَّفظ الكنائيِّ، ومن الأكثر صعوبةً أنْ نتصورَ كيف يمكنُ التصرُّفُ بالنِّسْبة للعَوْد إلى مُتأخرٍ. عندئذ يتحتَّمُ للَّفظ الكنائيِّ أنْ يركُمَ حتَّى تأتيَ العبارةُ المشاركةُ له في الإحالَة أو يُتركَ بحسبانه حالةً نَحْويَّةً، تظلُّ لا مرجعَ لها في تحليلٍ مهوَّشٍ Fuzzy Parsing حتى يُعثَرَ لها في النهاية على مَرْجعٍ، وليس من المُسْتحسَنِ في أيٍّ من الحالتين أنْ تجْعلَ مسافةً كبيرةً بين اللَّفظ الكنائي وما يشتركُ معه في الإحالَة"(٣)، وهو ما يُفهمُ من خلاله أنَّ الإحالةَ القبليَّة أكثرُ في الاستخدام من الإحالة البعديَّة. ومثال الإحالَة البَعْديَّة قول التِّليسيِّ(٤): (من الكامل)

لَكِنَّها الأَوْطَانُ فَرْحَةُ قَلْبِها
فَرَحِي وحُزْنِي أَنْ تُصِيبَ عَوَاثِرَا
لَكِنَّهُ الإِنْسانُ هَمٌّ دائِمٌ
لِلْعاشِقِينَ رِسَالَةً ومَصَائِرَا

(١) يُنْظَر: أمالي ابن الشَّجريّ، لابن الشَّجريّ، تحقيق د. محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ١ / ٨٩، ١٦٩، ٢٤٣، ٣ / ١١٥، وأمالي ابن الحاجب، أبو عمرو عثمان ابن الحاجب، تحقيق فخر صالح سليمان قداره، عمّان، دار عمار، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م، ٢ / ٧٧٢.

(٢) يُنْظَر: المُقتضب، للمُبَرِّد ٢ / ١٤٤، ١٤٥، ٣ / ٦٧، ١١٢، ١٢٠، ٤ / ٧٧، ١٠٢، ومغني اللَّبيب، لابن هشام ١ / ٦٣٥ - ٦٤١.

(٣) النَّصّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند ص ٣٢٧ صدد حديثه عن اتحادِ الإحالَة بواسطة الكنائيات، ويُنْظَر: الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٤٤.

(٤) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ص ٢١ / ١-٤.

لَـكِـنَّـهـا الأَجْـــــيَـالُ طَـوْقُ أَمَـانـةٍ
فــي الـعُـنْقِ تَـحْـلُمُ بِـالـدُّرُوبِ أَزَاهِـرَا
لَـكِـنَّـهـا الآمَـالُ هَـــــزَّتْ خَـافِـقِي
هَـــزًّا وأَضْـرَمَتْ الـعُـرُوقَ مَـجَـامِـرَا
فَنَظَـمْتُ مِنْها مشَاعِرِي وخَواطِري
ورَفَـعْـتُـهـا طَـــــوْقًـا تَـأَرَّج عَـاطِـرَا

فهذه الأبيات من قصيدة (وقفٌ عليها الحبُّ)، وقد سُبقت بسبعةَ عشرَ بيتًا، منها قولُه قبل هذه الأبيات(١):

أنَـا لا أَقُـولُ الـشِّـعـرَ أَبْـغِي رُتْـبَـةً
تَـعْـلُـو بِـهَا رُتَـبي وتُـكْـسِبُ وافِـــرَا
مـــاذا وَرَاءَ الـعُـمْـرِ مِنْ أُمْـنـيـةٍ
تُـرْجَى، وَقَـدْ رَحَلَ الـشَّـبـابُ مُـغـادِرَا
حَـسْـبـي مِنَ الـتَّـكْـريمِ رُكْنٌ دَافِئٌ
مِـــنْ قَـلْـبِـهَـا أَصْـفُـو لَـدَيْه سرَائِـرَا

أمَّا الأوّل منها، فقدْ تحدثتُ عنه صددَ الحديثِ عن الإحالَةِ الخارجيَّةِ بضميرِ المُتكلِّمِ، وثانيها يُشِيرُ فيه الشَّاعرُ إلى أنَّه لا أُمْنيةَ له، تُرجى بعد أنْ تقدَّم به السِّنُ، ورحَلَ الشبابُ، مستخدمًا الضَّميرَ المستترَ في الفعل (تُرْجَى)، مُحيلاً به على المرجعِ القريبِ (أُمنية)(٢)، وهو الأمْرُ نفسُه في اسم الفاعل (مُغادِرَا). ولمَّا كانت هذه القصيدةُ قد قِيلَتْ عفويةً أمام الرَّاحل مُعَمَّر القذافي، في يومِ الوفاءِ، حينما

(١) السَّابق ص ٢٠ / ٤-٦، ويُنْظَر به أيضًا ١٠٩ / ٥ -٦.

(٢) الإحالَة بالضَّمير على المرجع القريب كثيرة بالديوان، فعلى سبيل المثال يُنْظَر الموضع: ٢٣٥ / ٤، ويُنْظَر: ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٣، سواءٌ أكانت بضمير الغائبِ، المُستترِ أو البارز، في (لَمْ تَكَلَّمِ - وأرْقُبُه) أمْ بضمير المُخاطب في (أمِنْكِ) المُحيل على (أمِّ أَوْفَى).

عَلِمَ الشَّاعرُ متفاجئًا بأنَّه أحدُ المُكرَّمين - في العيد العشرين لِمَا كان يُعرفُ في ليبيا بثورةِ الفاتحِ من سبتمبر - بوسامِ الفاتحِ العظيم(١)، فقَدْ أشارَ في البيتِ الثَّالثِ من الأبياتِ السَّابقةِ إلى أنَّه يكفيه من التَّكريمِ رُكْنٌ دافئٌ من قلْبِ ليبيا؛ ومن ثَمّ أحالَ عليها بالضَّمير في (قلبها) إحالةً خارجيةً، على نَحْو ما سبق، ثُم وضَّحَ صِفَةَ هذا الرُّكن بالجُمْلَة الفعليَّة الخبريَّة المُثبتة (أَصْفُو لَدَيْه سرَائرَا) المُكتنفة للضميرِ المُضاف إليه، ذلك الضَّميرُ الذي يُحيلُ إحالةً داخليةً قبليَّةً على (الرُّكْن)؛ فعُلِمَ أنَّه ركْنٌ يتَّصفُ بأنَّه ملاذٌ للشَّاعرِ، يأنَسُ إليه؛ كي يُنفِّسَ عمَّا بداخله.

أمَّا عن الإحالَةِ الدَّاخليَّة البَعْديَّة فقد بدَتْ بعدَ هذه الأبيات الثلاثة السَّابقة التي تُعتبرُ بمثابة التمهيدِ لِمَا نحنُ بصدده، وتوضيحُ ذلك أنَّ مَا يشغلُه يكمنُ في الأوطانِ والإنسانِ والأجيالِ والآمالِ؛ ولذلك كانت الإحالةُ على هذه الأربعةِ إحالةً داخليةً بعْديَّة. فأوَّلُها في قوله (لَكنَّها الأَوْطانُ)، وهي جُملةٌ اسميَّةٌ خبريَّةٌ منسوخةٌ بناسخٍ حرفيٍّ، مُتَّخذَةً نَمَطَ (الحرف النَّاسخ + اسمه + خبره)، وفيها نُلاحظُ أنَّ مَرْجعَ الضَّميرِ في (لَكنَّها) مذكورٌ بعدَه، وهو (الأوطان)، فكأنَّه أَبْهَم بالضَّميرِ مُريداً لَفْتَ الانتباه بهذا الإبهامِ إلى مَا يليه في كلمة (الأوطان)، "أو أنْ يُصبحَ ذِهنُ السَّامعِ في غَايةِ التَّنبُّه والتَّرصُّدِ لِمَا سَيُبَيِّنُ الضَّميرُ، وما يكشفُ فيه

(١) يُنْظَر: شهادة الأستاذ حسن عريبي، ضمن كتاب التِّلِّيسيّ موسوعةٌ وريادة، منشورات مجلس تنمية الإبداع الثقافي، الجماهيرية اللِّيبية، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠٤ م، ص ١٣٣، وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّه لابدّ من الإشارة إلى أنَّ "التِّلِّيسيّ لم يُشرْ أثناء نَشْرِ قصائده إلى المناسبات التي نُظِمَت فيها، ولعلَّ ذلك ليس ضروريًّا، فإنَّ قصائده بصورةٍ عامّةٍ هي وليدةُ اللَّحظة الخالدة، لا وليدة مناسبةٍ معيَّنة، بمعنى أنَّها تكتسب قيمتَها وجمالَها من كونها لا ترتبطُ بموقفٍ مُحدَّدٍ أو ظرْفٍ معيَّن، تزولُ قيمتُها بزواله "خليفة محمد التِّلِّيسيّ ناقداً وأديباً ص ١٨٩، لكنَّه قدَّمَ للديوان بمقدمةٍ في ستَّة أبيات تحت عنوان (تقديم)، فتساءَلْتُ عن سبب ذلك، فإذا بي قبلَ أنْ أفرغَ من هذا البحث قد عثرتُ على إجابةٍ له، حيث قوله: "عندما جئْتُ أنشرُ ديواني لم أكتبْ له مُقدِّمةً، ولكنَّني كتبتُ له ستةَ أبياتٍ تُشكِّلُ مقدِّمةً، في هذه الأبيات أفرغْتُ نظريةً جماليَّة " يُنْظَر حوار يوسف الشريف لخليفة التِّلِّيسيّ، بمجلة الفصول الأربعة، رابطة الأدباء والكتاب، بليبيا، ملف العدد (خليفة التِّلِّيسيّ) العدد ٦٦، ليبيا، ١٩٩٢م، ص ٢٣٣.

مِن غموض"(١)؛ وذلك في سَعْي منه إلى أنْ يبْحثَ المُتَلَقِّي عن المُحالِ عليه، في شوقٍ إلى مَعرِفَتِه، فإذا به يجدُه كلمةَ (الأوطان)، ممَّا يُوحِي بأنَّها تمثِّلُ أهميةً لدى الشَّاعرِ؛ ومن ثَمَّ أحالَ عليها بعد ذلك إحالةً داخليةً في كلمتَي (قَلْبِها، وتُصيبُ) مُشيرًا إلى أنَّ فَرَحَهُ من فَرَحِها، وحُزْنَه من حُزْنِها، فهو جزءٌ من كُلٍّ، وهو ما جعلَه يتدرَّجُ بعد ذلك إلى ثاني هذه الإحالاتِ، عن طريق الإحالَة البَعْدِيَّة بالضَّميرِ أيضًا في قوله: (لَكِنَّهُ الإنْسانُ)، ذلك الإنسانُ الذي أحالَ إليه إحالةً داخليةً باستخدامِ الضَّميرِ المُنفصلِ المحذوفِ المُقدَّرِ بـ (هو همٌّ دائمٌ)(٢)، مُشيراً إلى أنَّ في ذلك رسالةً لِمَنْ يهمُّهم شأنُ الإنسانِ ومصيرُه في ربوعِ هذا الوطن.

أمَّا ثالثُ هذه الإحالاتِ، فقد كان بالهاء في قوله: (لَكِنَّها) مُحيلاً به على (الأَجْيَال)، مُشيراً إلى تِلْك الأجيالِ التي أحالَ عليها إحالةً داخليَّةً قبليَّةً باستخدام الضَّميرِ المُنفصلِ المحذوف المُقدَّر بـ (هي طَوْقُ أمانةٍ)، في سَعْي منه إلى الإيجازِ والفصاحةِ والصَّمْتِ عن الإفادةِ رجاءَ إعمالِ العقلِ؛ ومن ثَمَّ إخبارُ المُتَلَقِّي بمعنًى مَّا، يقتضيه السِّياقُ، وعلى المُتَلَقِّي مشاركة المُبدعِ في تشكيل وتكوينِ البناء الدلاليِّ(٣)، غيرَ مُكتَفٍ بذلك، بل أشارَ إلى أنَّها تحْلُمُ بمستقبلٍ زاهرٍ؛ ومن ثَمَّ

(١) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، د. سعيد بحيري، ص ١٢٧، ويُنْظَر: الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٤٤ حيث إشارتُه إلى أنَّ هذه الإحالةَ مثيرةٌ لذهن المُتلقي، حيثُ يوجد لفظٌ كنائيٌّ، ولم يسبق مرجعه، والمفترضُ أنْ يظلَّ المُتلقي يقظًا باحثًا عن مَرْجِعِ الضمير. ويُنْظَر أيضًا: النَّصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص٣٢٧.

(٢) من المعلوم أنَّ كلَّ ما كان معلومًا في القول جاريًا عند الناس فحَذْفُه جائزٌ لعِلْمِ المخاطَب: يُنْظَر: الكتاب، سيبويه ٢ / ١٣، والمقتضب، للمُبَرِّد ٣ / ٢٥٤، وشرح الرَّضِيّ على الكافية ٤ / ٣٣٦، وظاهرة الحذف في الدرس اللُّغويّ، د.طاهر حمودة، ص ٢٠٠، وهكذا تكلم النَّصُّ، د. محمد عبد المطلب، ص ٢٢٧، والنَّحْو والدَّلالة، د. صلاح الدين صالح حسنين ص ١٤٣، والتَّفكير اللِّسانيّ في الحضارة العربيَّة، د. عبد السلام المسدي، ص ٢٩٨- ٢٩٩، ٣٠٢، والحذف التَّركيبيّ وعلاقته بالنَّظم والدَّلالة، د.فايز تركي ص ٣٢ - ٣٧.

(٣) يُنْظَر: الحذف التَّركيبيّ وعلاقته بالنَّظم والدَّلالة ص ٣٦، وعِلْمُ اللُّغة النَّصِّيّ بين النظرية والتَّطبيق، د. =

يُرْجَى تعبيد الدُّروب أمامها.

أمَّا آخر هذه الإحالاتِ البَعْدِيَّة، فكان بالضَّمير في (لكنَّها) مُحيلاً إحالة داخليَّةً بعديَّةً على الآمال، تلك الآمالُ هي ما حرَّكته، وسيَّرتْ الدَّمَ في عروقه كأنَّه جَمْرٌ مُلْتهبٌ، وذلك من خلالِ الإحالَةِ القَبْلِيَّة، باستخدامِ الضَّميرِ المُستترِ في الفِعلَين (هزَّتْ، وأضرمتْ)، مِمَّا جعلَه يَنْظِمُ مشاعرَه من خلال مَا سبقَ من أبياتٍ في القصيدةِ موضع هذه الأبيات، ذلك النَّظْمُ الذي اتَّضح من خلاله مدى توظيفِ الشَّاعرِ الإحالةَ بالضَّميرِ في سبيل ترَابُطِ النَّصِّ؛ ومن ثَمَّ كانت المُطابقةُ بين الضَّميرِ ومرجعِه، في إطار سَلْكِ المعنى النَّصِّيِّ - من خلال نَحْو النَّص - في عِقْدٍ لا ينفرطُ، يجول جَوْلَ الجُمانِ جَرَى في سِلْكِه الثُّقَب(١)، مِمَّا يؤكِّد القول بأنَّ" الشَّاعر يستعمل اللُّغةَ، واللُّغةُ تنطقُ بلسان الشَّاعرِ، فعندما يقولُ الشَّاعرُ تقولُ اللُّغة"(٢).

هنا أرى أنْ أُضيفَ أنَّه إذا كان من الأهمية بمكانٍ المطابقةُ بين الضَّميرِ ومرجعه، مِمَّا يعود على النَّص بالتَّرابُطِ، فتكون اللُّغةُ ناطقةً بلسانِ الشَّاعرِ، فإنَّه "ينبغي أنْ نفرِّقَ هنا بين عدَمِ المُطابقةِ وعدَمِ الرَّبْطِ، فالأوَّلُ يؤدِّي إلى خللٍ أسلوبيٍّ، والثَّاني يؤدِّي إلى خللٍ في المعنى. أمَّا الأوَّل، فكأنْ نقول: البَيْضُ أكثرُه من الدَّجاجِ، حيث يؤدِّي تغييرُ الضَّميرِ من حيث الجهةُ أو العددُ أو الجِنْسُ (كأن يقال: البيضُ

= صبحي الفقي ١ / ١١٠ – ١١٢، وهكذا تكلم النَّصُّ ص ٢٢٧، حيث يرى الدكتور محمد عبد المطلب أنَّه في هذا الإطار التَّركيبيِّ يعمدُ الخطابُ إلى ظاهرةٍ تعبيريةٍ أثيرةٍ، هي الاتِّكاء على مجموعةٍ من (العبارات المركزية) البالِغَة التَّأثير، تأتي مركزيتها من طبيعة السِّياق الذي تحلُّ فيه أولاً، ثم من تردُّدها التِّكراري ثانيًا. ويُنْظَر: النَّحْو والدَّلالة، د. محمد حماسة، ص ١٣٦.

(١) هذا من قول ذي الرُّمَّة في ديوانه، رواية ثعلب، بشَرْح الإمام أبي نصر الباهلي، تحقيق الدكتور عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م، ص ٢١، من البسيط:

وَالوَدْقُ يَسْتَنُّ عَنْ أَعْلَى طَرِيقَتِهِ ... جَوْلَ الجُمانِ جَرَى في سِلْكِهِ الثُّقَبُ

(٢) فتنة النَّصِّ "بحوث ودراسات"، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٨ م، ص ٥٤.

أكثرنا من الدجاج، البيض أكثرهما من الدجاج، أو البيض أكثرها من الدجاج) إلى خللٍ أسلوبيٍّ غيرِ مقبولٍ، أمَّا عدمُ الرَّبْطِ الذي يكونُ بحَذْفِ الضَّميرِ أصلا دون قَصْدِ تقديرِه (كما في : البيض أكثرُ من الدجاج) فيترتَّبُ عليه تغييرٌ في المعنى "(١).

ولئن كان فيما سبق تطابقًا بين الضَّميرِ وما يحيلُ عليه، من ناحية الجهة والجِنْسِ والعدد، ممَّا يُسهمُ في ترابُطِ النَّصِّ، سيرًا في فَلَكِ النِّظام النَحْويِّ، فإنَّ ثَمَّة إشارةً وتنبيهًا في قولِ الدكتور محمد محمد يونس، مُفادُها أنَّ " هذا النظامَ يسمحُ بنوعين من الاستثناءات، أحدُهُمَا وَضْعيٌّ، تسمحُ به قواعدُ النَحْو، والثَّاني بلاغِيٌّ، يخضَعُ لاعتباراتٍ أسلوبيَّةٍ، وسنتحدث عن هذين النوعين فيما يأتي :

١ – الاستثناء الوضعي : بمقتضى هذا الاستثناء يُسْتخدَمُ ضميرا المتكلمين "نحن" و"نا" للمتكلم المفرد، وضميرِ المخاطبين "أنتم" ونَحْوه للمخاطبِ المفردِ لأجلِ تعظيمهما ...

٢ – الاستثناء البلاغيُّ : يتمثَّلُ في عدَمِ مراعاةِ المطابقةِ بين الضَّمائرِ لأغراضٍ بلاغيَّةٍ أو مَا سمينَاهُ بالاستثناءِ البلاغيِّ في الظَّاهرةِ المشهورةِ المعروفةِ بالالتفات، وهي ظاهرةٌ تختلُّ فيها المطابقةُ في الجهةِ، أو في العددِ فقط، دون الجِنْس "(٢).

وفيما يتَّصلُ بما نحن فيه من بَحْثِ الإحالَةِ بالضَّميرِ في ديوان خليفة التِّلِّيسيّ يُطالعنا بهذين النَّوعين من الاستثناءات، أكتفي بذِكْر مثالٍ لأولهما، وهو الاستثناء الوضعي في المطابقة، مُمثِّلاً له بما جاء في قوله(٣) : (من الكامل)

---

(١) الإحالَة وأثرها في دلالة النَّصِّ وتماسكه، د. محمد يونس ص ١٧٢ .

(٢) السَّابق ص ١٧٣ – ١٧٥ .

(٣) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ٣٥ – ٣٦ / ٦، ١– ٤، ويُنْظَر: ١١٦ / ٥، وفيما يتصل بالتفاته من المُخاطَب إلى الغائب، أو من الغائب إلى المُخاطب يُنْظَر به أيضًا : ٥٠ / ٢، ١٦٩ – ١٧٠.

وَلِمَنْ أُفاخِرُ بالقَدِيمِ أصَالَةً
وعلامَ أَحْتَضِنُ الجديدَ مَوَاهِبَا
وعلامَ أَرْفَعُهَا بِأَعْلَى قِمَّةٍ
وَأَرَى عَطَاءَ النَّفْسِ فَرْضًا وَاجِبَا
وأُضِيءُ فِي حَلَكِ الدَّياجِرِ شَمْعَةً
تَمْحُو الظَّلامَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا
وَأُعَانِقُ الأَطْفَالَ فيهِ بَرَاءَةً
وَأُخَاطِبُ الشُّبَّانَ عَزْمًا غَاضِبَا
لَوْ أنْصَفُوا التَّاريخَ كُنَّا أَنْجُمًا
تَتَألَّقُ الدُّنْيَا بِهِنَّ جَوَانِبَا

فالشَّاعرُ في سياقِ حديثِه عن تلك السِّنين التي مرَّتْ من حياتِه في سبيل الوطنِ، فيسهرُ اللَّيلَ، ويرفَعُ صوتَه بعزَّةِ وطَنِه، مُعتقداً أنَّ ذلك فَرضٌ واجبٌ؛ ومن ثَمَّ يضيفُ ـ مستخدمًا الرَّمزَ ـ إضاءَتَه شموعًا، تمحُو الظَّلامَ في مشارق الأرضِ ومغاربِها، ثُمَّ يأتي إلى مَوضعِ استشهادِنا حيثُ توظيفُه ضميرَ المتكلمين (نا) من قوله (كُنَّا) للمتكلمِ المُفردِ، فهو يتحدثُ عن نَفْسِه، كما يتضحُ من الأبيات السَّابقةِ على البيت موضعِ الشَّاهد، وكان من المُفتَرضِ أنْ يقول: (لَوْ أنْصَفُوا التَّاريخَ كُنْتُ نَجْمًا)، لكنَّه عدل عن ذلك ـ فيمَا أرى ـ لغرضَين، أولهما: استقامة وَزْن البسيط، حيثُ إنَّ وَزْنَ البيت وتقطيعَه هكذا:

لَوْ أنْصَفُتْ / تَاريخَكُنْ / نَا أَنْجُمَنْ
تَتَألْلَقُدْ / دُنْيَا بِهِنْ / نَجَوَانِبَا
مُتْفاعِلُن / مُتْفاعِلُن / مُتْفاعِلُن
مُتَفَاعِلُن / مُتْفاعِلُن / مُتَفَاعِلُن

لكنَّه لو قالَ: (لَوْ أنْصَفُوا التَّاريخَ كُنَّتُ نَجْمًا)، فلَنْ تستقيمَ التَّفعيلةُ الثَّالثةُ من عَجُز البيت، وكذلك عروضه، وما ذلك ببعيدٍ عن المعنى النَّصِّيِّ الذي يسعى المُبدعُ إلى تَرابُطه من خلال الإحالَة وغيرها من وسائل التَّرابُطِ النَّصِّيِّ، فإذا " كانت بِنْيَةُ التَّراكيب النَحْوِيَّة والدَّلاليَّة في الشِّعرِ ترتبطُ بالتَّجربة، وتتشكَّلُ في عَلاقات، تتشكَّلُ معها التَّجربةُ نفسُها، فإنَّ البِنْيَةَ الإيقاعيةَ للقصيدة هي جزءٌ لا ينفصلُ عن البِنْيَة اللُّغويَّة، التي لا تنقسمُ مستوياتُها أو أبعادُها، أي أنَّ الوزنَ" ليس مُجرَّدَ قالبٍ تُصبُّ فيه التَّجربةُ، أو وعاءٌ يحتوي الغرضَ، وإنَّما هو بُعْدٌ من أبعاد الحركة الآنية لفعْل التَّعبيرِ الشِّعريِّ ذاته، في محاولة خَلْقِ معنًى لا ينفصلُ فيه المسموعُ عن المفهوم"(١).

والغرضُ الآخرُ هو أنَّ الشَّاعرَ يريدُ لَفْتَ الانتباه إلى مهارته كمُرْسلٍ - في إطار الرَّمزيَّة التي لا تُفضي بمحتواها إلى قارئٍ واحد(٢) - إلى أنَّه المحورُ في إنتاجِ الخطاب من أَجْلِ أنْ يفهمَ المُتَلَقِّي قَدْرَ هذا الشَّاعرِ في مقابَلة مَن يصدُّونَهُ على الحدود؛ ولذلك كانت الإشارةُ إلى "أنَّ المُرْسِل هو الذَّاتُ المحوريةُ في إنتاجِ الخطاب؛ لأنَّه هو الذي يتلفَّظُ به؛ من أجْلِ التَّعبيرِ عن مقاصدَ معيَّنة، وبغرضِ تحقيقِ هدفٍ فيه، ويجسِّدُ ذاتَه من خلال بناءِ خطابه، باعتماده استراتيجيةً خطابيَّةً، تمتدُّ من مرحلة

(١) مفهوم الشِّعر "دراسة في التُّراث النَّقديّ"، د. جابر عصفور، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطَّبْعَة الثانية، ١٩٨٢م، ص ٢٦٤ – ٢٦٥، ويُنْظَر: العمدة في محاسن الشِّعر، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢ م، ١ / ١٣٤، ١٥١ وما بعدها، ونقد الشِّعر، قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د . ت، ص١٦٦، والجملة في الشِّعر العربيِّ، د. محمد حماسة، ص ٤٨، ١٢٦.

(٢) يُنْظَر: الرَّمز والرَّمزية، د. محمد فتوح، ص١٣٧ – ١٣٨ حيث إشارتُه إلى أنَّ "الرَّمزَ ليس تحليلاً للواقع بل هو تكثيفٌ له، وفي هذا ما يربطه بالأحلام، من حيث مَيل كليهما إلى الإدماجِ والتَّجميع، بحَذْف بعض الأجزاء المرموزة، أو الاكتفاء من مركباتها الكثيرة الكامنة بجزءٍ واحدٍ فقط، أو الإيماء بالصُّورة المُركبة إلى عناصرَ عديدةٍ ذاتِ سماتٍ مشتركة، ولعلَّ هذا الأسلوبَ المُكثَّفَ هو سببُ ما فيهما من غموضٍ، تتعدَّدُ فيه مستوياتُ التَّأويلِ ولا تتمايع، فليس هناك رمزٌ يُفضي بكلِّ محتواه لقارئٍ واحد".

تحليلِ السِّياقِ ذهنيًّا والاستعدادِ له، بما في ذلك اختيارُ العلامةِ اللُّغويَّةِ الملائمة، وبما يضمَنُ تحقُّقَ منفعتِه الذَّاتية؛ بتوظيفِ كفاءتِه للنَّجاحِ في نَقْلِ أفكارِه بتنوّعاتٍ مناسبة"(١).

وهكذا يتبيَّن لنا أنَّ الضَّمائرَ جديلةٌ مُهمَّةٌ من جدائلِ الإحالة تؤدِّي إلى التَّرابُطِ، وتوفِّرُ الوقت والجَهْدَ، فمِنَ المعلومِ أنَّ "استغلال النصوصِ دون إضمارٍ مضيعةٌ للوقت والجَهْد، ومن جهةٍ أُخرى يؤدِّي الإسرافُ في الإضمارِ إلى تبديد ما توافر من وقتٍ وجَهْدٍ، وذلك لِمَا يقتضيه من تكثيفٍ في البحث وحلِّ المُشكلات"(٢)، وهو ما يُسلمُنا إلى القول بأنَّه فيما يتَّصل بما سبقت الإشارةُ إليه من تفوقِ الضَّميرِ على غيرِه من عناصر الترابط النَّصِّيِّ بالإحالة في شعر التِّليسيِّ، لاسيَّما ضميرُ الغائبِ، أنتهزُ هذه الفرصة لأشير إلى أنَّ التِّليسيَّ على الرغم من تفوق الضمير على غيره من وسائل الإحالة لديه، فإنَّه لم يكُن مُسرفًا في الإضمار لدرجةٍ تُضَيِّع الوقتَ والجَهْد.

(١) استراتيجيات الخطاب " مقاربة لغوية تداولية "، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، دار أويا، طرابلس، ليبيا، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠٤ م، ص ٤٥، ويُنْظَر: الحيوان، للجاحظ ١ / ٤١، والخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، " القدامة وتحليل النَّص "، د. عبد الإله الصائغ، المركز الثقافي العربيّ، الدَّار البيضاء ،بيروت، الطَّبْعَة الأولى، ١٩٩٧ م، ص ٣٠٥ .

(٢) مدخل إلى عِلْم لُغَة النَّصِّ :روبرت دي بوجراند، وإلهام أبو غزالة وآخرين، مطبعة دار الكاتب، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢ م، ص ١٠٥، والإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٢٥ حيث إشارتُه إلى أنَّ الإحالةَ تؤدِّي إلى مبدأ الاقتصاد والثبات المعنويِّ، ومبدأ الدِّقة الدَّلالية.

المبحثُ الثَّاني

الإحالَة بالموصول ودورُه في التَّرَابُط النَّصِّيِّ

يُعدُّ الاسمُ الموصُولُ من الألفاظِ المُفْرَغَةِ من الدَّلالةِ المُستقلَّة، مُفتقرًا إلى صِلَةٍ توضِّحه، وتُعرِّفه - على خلافٍ بين النُّحاة في تعريفه - من مُنطلق أنَّه مُبهمٌ، يحتاجُ إلى مُفسِّرٍ له، وحُكمُه حُكمُ سائر الأسماء التَّامَّة، يجوز أنْ يقع فاعلاً ومفعولاً ومضافًا إليه ومُبتدأً وخبرًا. ويستخدمه المُتكلِّمُ أو الكاتبُ بقَصْدِ الإحالة به على شيءٍ تقدَّم ذِكْرُه، فيأتي الاسمُ الموصولُ مُكنِّيًا عن ذلك الشيء(١) مُسهمًا في التَّرابُط النَّصِّيِّ بالمعارف السَّابقة عليه، وقد يحيلُ إحالةً بعديةً أيضًا، وكلُّ ذلك في إطارِ الإحالةِ الدَّاخليةِ أو النَّصِّيَّة.

ولعلَّه من المفيد الإشارةُ إلى أنَّه قد "يتوفر للاسم الموصولِ إحالتان، قبليَّةٌ وبعديَّةٌ، في بِنْيَةِ النَّصِّ، كما في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ...** ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فـ(الذي) مُحيلٌ إحالةً قبليَّةً إلى الرسوَلِ الأُمِّيِّ، كما يحيلُ إحالةً بعديَّةً إلى العائد في جُملةِ الصِّلَةِ (يجدونه)؛ وبذلك تحقَّق الرَّبْطُ في النَّصِّ"(٢).

وليس معنى ذلك أنَّ الموصولَ لا يحيلُ إحالةً خارجيةً، ففي قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ** ﴾ [الأنعام: ٢٥] نُلاحظُ أنَّ الموصولَ (مَنْ) قد أحالَ إحالةً خارجيَّةً على كُلٍّ من أبي سفيان بن حرب، والوليد بن المُغيرة، والنَّضر بن

(١) يُنْظَر: أسرار العربية، لأبي البركات بن الأنباري ت ٥٧٧ هـ، تحقيق محمد بهجت البيطار، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م، ص ٣٧٩ - ٣٨٠، وشرح جُمل الزجاجي، لابن عصفور الإشبيلي ت ٦٦٩ هـ، تحقيق علي مؤمن وأنس بديوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطَّبْعَة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ٢ / ٨٠ - ٨١، وشرح الرَّضِيّ على الكافية ٥ / ٣ - ٧، وارتشاف الضرب، لأبي حيان، ١ / ٤٦٠، وشرح المفصل، لابن يعيش ٣ / ١٣٨، والإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي، ص ٥٢٨.

(٢) عناصر السبك بين القدماء والمحدثين، د. نادية النجار، ص ٥٧٧، وجزء الآية من الأعراف ١٥٧.

الحارث، وعُتْبَة وشَيْبَة ابْنَي ربيعة، وأُمَيَّة، وأُبَيّ بن خَلف؛ للدلالة على إبهام المُحالِ عليه وغموضه، من أَجْلِ عدَم التحديد، فالآية على الرَّغم من نزولها في هؤلاء الذوات، فإنَّها تظلُّ مفتوحةً على مَدَيات النَّصِّ، الزَّمَنيَّة منها والمكانيَّة، على حدِّ قول الباحث أحمد حسين حيال(١).

ومِنْ أجْلِ كَونِ الموصولِ مُسهِمًا في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ كان اشتراطُ النَحْويين تطابُقَه مع مَا يحيلُ عليه؛ ومن ثَمَّ احتياجُه إلى جُملة الصِّلة بعده مُشتملةً على العائد، الذي يُحْذَفُ في بعض الأحيان(٢). فقد قيلَ: إنَّها "تقومُ على مبدأ التماثلِ والتَّطابُقِ فيما هو موجودٌ، يظهر ذلك جليًّا في ذلك القِسْم المعروفِ باسم الموصولِ الخاصِّ أو المُختَصِّ، مثل: الذي، التي، اللَّذان، اللَّتان، الذين، اللاتي ...إلخ. أمَّا اسمُ الموصولِ العام، فإنَّه لا يمكن أنْ ينطبق عليه فكرة التَّماثلِ والتَّطابقِ، فهو من حيث الإبهامُ مُبهمٌ، لكنَّه لا يُطابقُ؛ لأنَّه يأتي بلفظٍ واحدٍ لكلِّ الموجودات بأنواعها، مثل: مَنْ وما ...إلخ"(٣).

ووصلاً بالإشارةِ إلى إسهامها في التَّرَابُط النَّصِّيّ، وعلى نَحْو ما سبقَ، فهي "ألفاظٌ كنائيةٌ، لا تحملُ دلالةً خاصةً، وكأنَّها جاءت تعويضًا عمَّا تُحيلُ إليه، وهي أيضًا تقومُ بالرَّبطِ الاتِّساقيِّ من خلال ذاتها ومُرتبطةً بما يأتي بعدها من صلة

(١) يُنْظَر: أسباب نزول القرآن، للواحدي، "أبو الحسن عليّ بن أحمد ت٤٦٨هـ"، تحقيق ودراسة كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلْمُية، بيروت، لبنان، الطَّبْعَة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١ م، ص ٢١٧، والسَّبك النَّصِّيّ في القرآن الكريم دراسة تطبيقية في سورة الأنعام، أحمد حسين حيال، ص ٧١، ومقالات في اللُّغَة والأدب، د.تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ١ / ٢٠٠ حيث إشارتُه إلى الإحالة المقامية (الخارجية) بالموصول، وأنَّ المقصودَ بالموصولِ جميعُ الموصولات، ومنها (مَنْ وما وأي وأل).

(٢) يُنْظَر: المقتضب، للمُبَرِّد ١ / ١٩، وأمالي ابن الشَّجريّ ١ / ٥- ٨، ١٠١، ١٤٠، ٢ / ٥٨، ٧١، ٣ / ٦٨، وشرح الرَّضِيّ على الكافية ٣ / ٧ - ١١، وربط الجملة الفرعية بالواو أو بالضمير ودوره في تماسك النَّصِّ، د. فايز تركي، ص ٤١.

(٣) يُنْظَر: الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي، ص ٥٣٥.

الموصولِ التي تصنعُ ربطًا مفهوميًّا بين ما قبل الذي وما بعده، حيث يشيرُ النَحْويون إلى أنَّ تِلْك الصِّلةَ ينبغي أنْ تكونَ معلومةً للمُتلقي (السَّامع) قبلَ ذِكْرِ اسمِ الموصولِ، كما لو قُلنا: جاء الذي كان معنا بالأمس. فإنَّه ينبغي أن يكونَ المُتلقي - حسب اعتقادِ المُتكلمِ - على عِلْمٍ بمَنْ كان مع المُتكلِّمِ بالأمس، وهذا كلامٌ يستحقُّ النَّظرَ والمُراجعة"(١)، مُوافقًا الدكتور أحمد عفيفي في هذه المُلاحظة .

ولَمَّا كانت الإحالةُ من حيث الإطلاق والرَّبط تنقسمُ إلى لفظٍ مربوطٍ (مُضمر مربوط) وآخر حُرٍّ أو (مُضمر حُر)، فإنَّ الاسمَ الموصولَ المُشْتَرك يندرج تحت النَّوعِ الثَّاني(٢).

المطلب الأوَّل: الإحالةُ بالموصولِ المُختَصِّ:

وردتْ الإحالةُ بالموصولِ المُختصِّ (الَّذي، الَّتي، الَّذين) في واحدٍ وثلاثين موضعًا من شِعْر خليفة التِّلِّيسيّ، تنوعتْ بين القبليَّة والبَعْديَّة، يُمكن عَرْضُها على النَّحو التَّالي:

(أ) الاسم الموصول (الذي):

جاء هذا الموصولُ في تسعةَ عشَرَ موضعًا من شِعْر خليفة التِّلِّيسيّ، منها اثنا عشر موضعًا، كانت الإحالةُ فيها إحالةً قبليَّةً، وذلك نَحْو قوله(٣): (من السَّريع)

أَبْصَرَنِي يَوْمًا عَلَى غِرَّةٍ
أُعَابِثُ الغِزْلانَ مِنْ سِرْبِهِ

(١) السَّابق نَفْسُه، ويُنْظَر: شرح الرَّضي على الكافية ٣ / ١٠.

(٢) يُنْظَر: الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي، ص ٥٥٤، وفيها بيَّن أنَّ اللَّفظَ المربوطَ أو المُضمرَ المربوطَ هو المُضمرُ الذي يتوفر له مُفسِّرٌ يحكمُه في النَّصِّ ...حيث تعودُ الإحالةُ إلى شيءٍ مُحدَّد، أمَّا اللَّفظُ الحرُّ أو المُضمرُ الحُرَّ، فهو ما كان على خلافِ الأوَّل، ومنه الاسمُ الموصولُ المُشتركُ، حيث إنَّه يحيلُ إلى فردٍ أو أفرادٍ غير مُحددين.

(٣) الديوان ١٨١ – ١٨٢ / ٤، ٢، ويُنْظَر بقية المواضع ٥٢ / ٤، ١٣٤ / ٣، ١٣٦ / ٥، ٢٠٩ / ٢، ٢١٨ / ٨، ١٣، ٢٢٢ / ١، ٢٢٨ / ١٤، ٢٣٠ / ١٠، ٢٤٨ / ٦.

أَسْتَرْجِعُ العَهْدَ الَّذي قَدْ مَضَى
فِي طَاعَةِ الحُبِّ وفِي رَكْبِهِ
فَغَاظَهُ أَمْرِي ومَا أدَّعِي
مِنْ تَوْبَةٍ تَخْرُجُ عَنْ حِزْبِهِ
أَلْفَيْتُهُ مُبْتَسِمًا شَامِتًا
كَأَنَّهُ الشَّيْطَانُ فِي خِبِّهِ
يُرَدِّدُ القَوْلَ الَّذي قَدْ مَضَى
فِي نُصْحِهِ بِالكَفِّ عَنْ عُجْبِهِ

فهذه الأبياتُ من قصيدة (قَلْب)، ذلك القلبُ الذي تدورُ حولَه القصيدةُ، مُشبِّهًا إِيَّاه بالطِّفْلِ، في قولِه(١):

يَا قَوْمُ هَلْ مِنْ حِيْلَةٍ تُرْتَجَى
فِي رَدِّ هذا الطِّفْلِ عَنْ وَثْبِهِ

وتَنْسَلِكُ الأبياتُ بعد ذلك في الحديثِ عن هذا الطِّفلِ إلى أنْ يصِلَ للأبياتِ موضعِ الإحالةِ بالموصولِ المُختَصِّ، فيُشيرُ إلى أنَّ هذا الطِّفْلَ – والمُرادُ قلبُ الشَّاعرِ – قدْ شاهدَه على غَفْلَةٍ، ذاتَ يومٍ، يُلاعبُ النِّساءَ المُشبَّهَةَ بالغزْلانِ الواقعةِ في شَرَكِه؛ وذلك أنَّ الشَّاعرَ كان فيمَا مضَى من عُمره طائعًا الحُبَّ سائرًا في رَكْبِه، فما كان من القلبِ إلَّا أنْ اشْتَاطَ غَيْظًا ممَّا ينْتابُ صاحبَه، وما يُظهِرُهُ منْ توبةٍ؛ ومن ثَمَّ بدا هذا القلبُ مُبْتَسِمًا فَرِحًا بالبليَّةِ التي حلَّتْ بالشَّاعرِ، كأنَّ هذا القلْبَ شيطانٌ قد تَستَّر في مَخْدَعِه.

ولَمَّا كان ذلك كذلك، فقد قصَدَ الشَّاعرُ الإحالةَ إلى ما يُرَدِّدُه القلْبُ من قولٍ، من خلالِ الجُمْلَةِ الفعليَّةِ الخبريَّةِ المُثْبتَةِ (يُرَدِّدُ القَوْلَ الَّذي قَدْ مَضَى)، المُتَّخذَةَ نمطَ

(١) الديوان ص ١٧٨.

(الفعْلِ + الفاعل + المفعول به + النَّعت بالموصول + جُملة الصِّلة "قد + فعل + فاعل") فاستخدمَ الإحالةَ بالاسمِ الموصولِ المُختصِّ (الَّذي)، المُجْتَلَبِ في الكلام ليكونَ وصلةً لوَصْفِ المعارفِ بالجُمل[1]، مُحيلاً به إحالةً داخليَّةً قَبْليَّةً على المفعولِ به (القَوْل) مُطابقًا إيَّاه؛ للرَّبط بين المُحال عليه، وجُملة الصِّلة المُترابطةِ بدَورِها مع الاسمِ الموصولِ عن طريق الضَّميرِ المُستترِ في الفعل (مضَى)، فكان حُسْنُ الرَّصْفِ أو الرَّبطِ؛ ومن ثَمَّ تحقَّقتْ الاستمراريةُ الدَّلاليةُ، التي مُفادُها أنَّ هذا القلبَ حالةَ كَوْنه مُبتَسمًا فَرِحًا بالبليَّةِ التي حلَّتْ بالشَّاعرِ، يُردِّدُ ما قد مَضى من قولٍ في نُصْحِه، والكفِّ عن إنكارِه ذلك النُّصْحَ.

أمَّا عن الإحالة البَعْديَّة بالاسمِ الموصولِ (الذي)، فقد وردتْ في سبعةِ مواضعَ، وذلك نَحْوُ قوله[2]: (من مجزوء الخفيف)

نَـــغَـــمَـــاتٌ مِـــنَ الـــعَـــلَـمْ
بَـــعَـــثَـتْ كَـــامِـــنَ الأَلَـمْ
فَـــإِذَا الـــقَـــلْـبُ ذَاهِـــلٌ
وَإِذَا الـــوَجْـــدُ يَـــضْـــطَـــرِمُ
وَإِذَا مَـــوْكِبُ الخَـــيَـــالِ
يُـــعِـــيـــدُ الَّـــذِي ارْتَـــسَـــم
قَـــبْـلَ أَنْ يَـــغْـــرُبَ الـــصِّـــبَـــا
قَـــبْـلَ أَنْ نَـــعْـــرِفَ الـــسَّـــأَمْ

(١) الأصول في النَّحْو، لابن السراج تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطَّبْعَة الثالثة، ١٩٨٨م، ٢/ ٢٧٢، ويُنْظَر: سر صناعة الإعراب تحقيق د.حسن هنداوي، دار العِلْمُ، دمشق، الطَّبْعَة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ١/ ٣٥٣ - ٣٥٤، ودلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، الطَّبْعَة الثالثة، ١٩٩٢م، ص ١٥٤، وشرح المفصل، ابن يعيش ٢/ ٣٩٢.

(٢) الديوان ٣/ ١٦٦، ويُنْظَر بقية المواضع ٩٤/ ٢، ٩٥/ ٦، ١٣٧/ ٦، ١٦٧/ ٤، ٢٠٧/ ٤، ٢٣٦/ ٢.

إلى أنْ يقول أيضًا:

ذِكْـــرَيـــاتِي تَـــبَـــاعَـــدِي

لا تُـــعِـــيـــدِي الَّـــذِي انْـــصَـــرَمْ

فهذه الأبياتُ من قصيدة (نغمات من العَلْم) يتحدَّثُ فيها عن كامنٍ قد بُعِثَ من مَرْقَده، قد اسْتَنْهَضَتْهُ فَعَالِيَّاتٌ عِلْمِيَّةٌ، جعلتْ قلبَ الشَّاعرِ ذاهلا، يَضْطَرِمُ فيه الْحزْنُ، فمَا كان من الخيالِ إلا أنْ أعادَ شَرِيطَ مَا قَدْ ارتُسِمَ من أحداثٍ، سطرهَا الشَّاعرُ فيما مضى من حياته، وكأنَّه يستنهضُه أنْ يحافظَ على ما قدْ كان قَبْل أنْ ينصرم صبَاه، ويُخيِّمَ عليه الملل، ثُمَّ يستمرُ في هذا الحديث.

وفي البيت الثالث من هذه الأبيات نلاحظ أنَّ ثَمَّةَ جُمْلةً فعليَّةً خبريَّةً مُثبتةً (يُعيدُ الَّذي ارْتَسَـــم) مُتَّخذَةً نَمَطَ (الفعْل + الفاعل "اسم موصول" + جُمْلَة الصِّلَة "فعْل + فاعل")، فيها قَصَد الشَّاعرُ الإحالةَ بالموصولِ الاسميِّ المُختصِّ الشَّاغلِ وظيفةَ الفاعلِ (الذي) إحالةً بعديَّةً، مُحيلاً به على ما ارْتُسِمَ من أحداث. هذا، ويستمر الشَّاعرُ في الحديث إلى أنْ يُطالبَ ذكرياته بأنْ تتباعدَ عنه، وألا تُعيدَهُ إلى مَا قَدْ مضى من أحداثٍ، مُستثمراً في ذلك الطَّاقةَ اللُّغويةَ للجُملة الفعليَّةِ الإنشائيةِ الطلبيَّة (لا تُعِيدِي الَّذِي انْصَرَمْ) المكونة من (حرف نهي + فعل مضارع+فاعل + مفعول (اسم موصول) +جملة الصِّلة)، والتي يتَّضحُ من خلالها أيضًا أنَّ الشَّاعرَ قد قَصَدَ الإحالةَ بالموصولِ الاسميِّ المُختصِّ (الذي) إحالةً بعديةً على ما انْصَرَمَ من أحداث؛ وبذلك يكونُ هذا الموصولُ قد أسهمَ في التَّرَابُطِ الرَّصْفِيِّ؛ ومن ثَمَّ الترابط الدلاليّ، فكان جماع ذلك تحقُّق التَّرَابُط النَّصِّيِّ، بالإضافة إلى إسهامِ ذلك الموصول في تحقُّقِ النَّسيجِ الشِّعريِّ، من خلالِ استقامةِ مجزوء الخفيف وصحَّة القافية.

(ب) الاسم الموصول (التي) :

جاءتْ الإحالةُ بالاسم الموصولِ المُختص (التي) في أحدَ عَشَرَ موضعًا، منها تسعةُ مواضعَ كانت الإحالةُ فيها قبليَّةً، وذلك نَحْوُ قوله(١) : (من الخفيف)

وَصَلَتْنِي في العيدِ منْك رِسالةٌ
أَيْقَظَتْ خَاطِرِي وَأَحْيَتْ خَيَالَهْ

ذَكَّرَتْنِي جَمَالَكِ الرَّائعَ الفَتَّانَ
يَغْزُو قُلُوبَنَا بِبَسَالَهْ

فِتْنَةٌ تُوقِظُ النُّهَى وَجَمَالٌ
مِنْ بَدِيعِ الأوصافِ يَنْشُرُ هَالَهْ

بُورِكَتْ أُمُّكِ الَّتي حَمَلَتْكِ
كَنْزَ لُطْفٍ لِلكَوْنِ يُنْعِشُ بَالَهْ

فهذه الأبياتُ من قصيدة (رسالة)، تدورُ حول وصولِ رسالةٍ إلى الشَّاعرِ ممَّن يعنيها، في يومِ العيد، أيقظتْ خاطرَه، وأحيت خيالَه، مُذكِّرةً إيَّاه بجمالها الآسرِ الرَّائعِ الذي يدخلُ إلى قلْبه بشجاعةٍ، إنَّها فِتنةٌ ليستْ كأيَّة فتنةٍ، بل إنَّها تُوقظُ العقولَ، يُصاحبها جمالٌ ينشُرُ ظلالَه، قدْ اكتسى من بديع الأوصاف. وكأنَّ هذه الأبيات بمثابة مُقدِّمةٍ لمعنًى مَّا يريد الشَّاعرُ أنْ يَدْلُفَ به إلينا من خلالِ بِنْيةٍ مَّا، إنَّها بنيةٌ ذاتُ جُمَلٍ مُتداخلةٍ، تبدأ بجملةٍ فعليَّةٍ خبريَّةٍ مُثبتةٍ، ذات فِعْلٍ مَبْنيٍّ لِغيرِ الفاعلِ، مُتَّخذةً نمط (الفعل + نائب الفاعل + النعت بالموصول الاسميِّ)، وتأتي جُمَلة الصلةُ مُتَّخذةً نمطَ (الفعل + الفاعل + المفعول + حال + مضاف إليه + جار ومجرور + نعت بالجُمْلَة الفعلية (فعل + فاعل + مفعول)، ومن خلالها يتَّضحُ أنَّ التِّلِّيسِيّ قدْ قصَدَ الإحالةَ بالموصولِ (التي) إحالةً قبليَّةً على المفعولِ به المنعوت؛

(١) الديوان ٢٥٧ / ٤، ويُنْظَر بقية المواضع ١٩ / ٢، ١١٦ / ١، ١٩٠ / ٣، ١٩٢ / ١، ١٩٣ / ٤، ٢٠٩ / ٦، ٢٢٠ / ٤، ٢٢١ / ٣.

ليلْفِتَ انتباه المُتلقِّي إلى تلك الأُمِّ التي حَمَلتْ الموصوفةَ بما تقدَّمَ ذِكْرُه من جمالٍ وفِتْنَةٍ . أضفْ إلى ذلك إسهامَ جُملةَ الصِّلةِ المُوضحةِ إبهامَ الاسمِ الموصولِ مُترابطةً معه أيضًا، مفيدةً أن تلك الأُمَّ قد حَمَلتْ كَنْزًا لطيفًا كان بمثابة المُنعشِ بالَ الكَوْنِ المُتمثِّلِ في الشَّاعرِ؛ ومن ثَمَّ كان هذا الموصولُ مُسْهِمًا في التَّرَابُط النَّصِّيِّ.

أمَّا عن الإحالة البَعديَّة باستخدام الموصولِ (التي) فقد جاءت في موضعين اثنين، نَحْوُ قوله[1]: (من الكامل)

مَا أَنْتِ لِلُّطْفِ النَّبِيلِ وَلِلْهَوى
يَسْمُو بِرِقَّتِهِ إِلَى التَّوحِيدِ
بَلْ أَنْتِ لِلْعُنْفِ العَنِيْفِ وَهَجْمَةٍ
رَعْنَاءَ تَرْجِعُ بِالنُّهَى المَفْقُودِ
وَتُصِيبُ مِنْكِ غَدَائِرًا وتَرَائِبًا
عَلِقَتْ بِهِنَّ ضَلاَلَةُ المَحْسُودِ
فَتَشَامَخَتْ زَهْوًا وظَنَّتْ ضَلَّةً
لاَ وِرْدَ غَيْرُ جَمَالِهَا المَوْرُودِ
لاَ تَلْبَثْ الأَهْوَاءُ تَعْصِفُ بِالَّتِي
شَمَخَتْ وَتَذْرُو لِلرِّيَاحِ صُمُودِي
سَأُزِيحُهُ ذَاكَ القِنَاعَ وَأَمْتَطِي
جَهْلِي وَأَطْرَحُ رِقَّةَ التَّمْجِيدِ

فهذه الأبياتُ من قصيدة (قِناع) التي يَرى فيها الشَّاعرُ أنَّ عيدَه يكمُنُ في وَصْلِ صاحبةِ القناع، فهواها قد أعياهُ، واستعصى على مجهوده، وذلك إلى أنْ يصلَ للأبيات التي معنا، فيرى فيها أنَّها ليستْ أهلاً لِلُّطفِ والهوى الذي يتَّصفُ برقَّةٍ، تأخذُ به إلى

(١) يُنْظَر: الديوان ١١٠/ ٥، ٢٥٨/ ٤.

درجةِ التوحيد، بل هي عنيفةٌ، ذاتُ هَجْمةٍ حمقاءُ، هوجاءُ، مُضطربةٌ، لا عقلَ لها، هذه الهجمة تصيبُ منها ضفائرها وترائبها، حيثُ تعليقُها ما يظُنُّه المحسودُ دافعًا للحسد، وما هو كذلك، بل هو ضلالةٌ؛ ومن ثَمَّ رفَعَتْ أنْفَها عزًّا وتكبُّرًا، وحَسِبَتْ على غير هُدًى أنَّ لا جمالَ سوى جمالها لكلِّ مَنْ أراد الجمالَ مَوردًا يَنْهَلُ منه.

لكنَّ هذا التَّشامُخَ على صيغة التَّفاعلِ وذلك الظَّنَّ، أرادَ الشَّاعرُ أنْ يقابلَهُما بحقيقةٍ، من خلال بناءِ الجُمْلَة الفعليةِ المُتكرِّرةِ في البيت الخامسِ من الأبيات السابقةِ، مُستخدمًا في جملةِ (تَعْصِفُ بالَّتي شَمَخَتْ) الإحالةَ بالموصولِ (التي) إحالةً بعديَّةً، وهي جُملةٌ فعليةٌ خبريَّة مُثبتةٌ ذاتُ (فِعْل + فاعل + حرف جرٍّ + موصول في محل جرٍّ + صلة الموصول "فعل + فاعل") . ومن خلالها يُلاحظُ قَصْدُ الشَّاعرِ إلى تلك الإحالةِ البعديَّةِ على المُحالِ عليه (الضمير في الفعل شَمَخَتْ) العائدِ على الشَّامخة زهوًا. تلك الإحالةُ من أجلِ التَّرَابُط النَّصِّيّ والدَّلالة على أنَّ الأهواء ما تَلْبَثُ أنْ تَذْهَبَ بهذه المرأة الشَّامخة، صاحبة القناع، وتأتي على الشِّاعرِ أيضًا، فتُطيِّرُ صمودَه في مهبِّ الرِّيح، فبدا التَّرَابُطُ النَّصِّيُّ واضحًا لدى كلِّ مَنْ أعملَ عقلَه في هذه الأبيات، من خلال تلك الإحالةِ بالموصولِ، التي تعاونت معها إحالاتٌ أُخَرُ، باستخدام الضَّمير، في إشارةٍ إلى أنَّ ضروبَ الإحالةِ تتعاونُ مع بعضِها بعضًا من أَجْلِ الحفاظِ على التَّرَابُطِ النَّصِّيّ؛ ومن ثَمَّ النَّصِّيَّة.

(ج) الاسمُ الموصولُ (الذين):

ورد هذا الموصولُ في موضعٍ واحدٍ، بشعر خليفة التِّلِّيسِيّ، كانت الإحالةُ فيه بعديَّةً، وذلك في قوله[1]: (من الكامل)

قُلْ فتِّشُوا قَلْبِي فَفي أَعْماقِه
حُبٌّ يَعُمُّ أَباعِدًا وَأَقارِبَا

(١) يُنْظَر: الديوان ٣٥ / ٣ .

أَوْ فَتِّشُوا فِكْرِي فَفِي وَمَضَاتِه
نُورٌ يُضِيءُ مَعَ المُرُوجِ سَبَاسِبَا
أَوْ فَتِّشُوا نَبْضَ العُرُوقِ فَإِنَّهَا
هَتَفَتْ بِكُمْ هِمَمًا وجِيْلاً واثِبَا
أَوْ أُطْعِمُ الوَطَنَ الكَبِيْرَ حُشَاشَتِي
وأُعَانِقُ الأَحْرَارَ فِيهِ مَوَاكِبَا
وَيَجِيئُ يَسْأَلُنِي الَّذِين وَهَبْتُهُم
نُورَ العُيونِ مَقَاصِدًا وَمَآرِبَا؟

فهذه الأبياتُ من قصيدة (قدَر المواهب)، وقدْ سبق التَّعرُّضُ للبيتِ الأوَّلِ منها صددَ الحديثِ عن الإحالةِ بالضَّميرِ المُستَترِ، وبعدَه يُطالبُ الشَّاعرُ أولئك الواقفينَ، يفتِّشون الدفاترَ والحقائب، بأنْ يكفُّوا عن ذلك، ويفتِّشوا عمَّا بفكرِه منْ علْمٍ، كأنَّه النورُ اللامعُ الذي يُضِيءُ الفضاءَ والأرضَ القَفْرَ البعيدةَ، مُسْتَوِيَةً أو غيرَ مستوِيَةٍ، غَليظةً أو غيرَ غليظةٍ، كما يُطالبُهم أنْ يُفتِّشُوا عن وطنيَّته ونَبْضِ عُرُوقه.

وفي مقابلةِ ما تقدَّم من مُطالَبَةٍ وسَرْدٍ لِمَا بذلَه يلجأُ الشَّاعرُ إلى استخدامِ الإحالةِ بالاسمِ الموصولِ المُختَصِّ (الذين) الشَّاغلِ وظيفةَ المفعولِ به في الجُمْلَة الفعْلية الخبريَّة المُثبتة (وَيَجِيئُ يَسْأَلُنِي الَّذِين وَهَبْتُهُم نُورَ العُيونِ مَقاصِدًا وَمَآرِبَا) المُتَّخذَة نمط: فِعْل + مفعول به أوَّل +فاعل "اسم موصول" + جملة الصِّلة "فعل + فاعل+ مفعول به أول+ مفعول به ثان + مُضاف إليه"+ مفعول به ثان للفعل سأل + معطوف.

ومن خلال هذا النَّمطِ يتَّضحُ لنا أنَّ إحالةَ الاسمِ الموصولِ إحالةٌ بعديَّةٌ على المُحال عليه، وهو الضمير في الفعل (وهبتهم)؛ من أجل التَّرَابُط النَّصِّيِّ بين جُمْلة (يسألُني) وجُملة الصِّلة (وهبتهم)؛ ومن ثَمَّ الدَّلالة على أنَّه بالرِّغم ممَّا سبق من مآثرَ للشَّاعرِ ـ وعلى الرَّغم من أنَّه مُعلِّمٌ سابقٌ، وهب تلاميذه نُورَ حياته ـ فإنَّ هؤلاء

الواقفين على الحدودِ يسألونه مقاصداً وحاجاتٍ، لا تَحَفِّيًا به، أضِفْ إلى ذلك أنَّ هذه الإحالةَ قد أسهمت في توافق البناء النَّحْويِّ مع النَّسْجِ الشِّعريِّ، فاستقام وَزْنُ الكاملِ، وصحَّت القافيةُ، برَوِيِّها المُراد.

المطلب الثَّاني : الإحالةُ بالموصولِ المُشْتَرك :

(أ) الموصولُ المُشْتَرك (مَن):

وردَت الإحالةُ بالموصولِ الاسميِّ المُشْتَرَكِ (مَنْ) في أربعةِ مواضعَ، حيثُ جاءت القبليَّة في موضعٍ واحدٍ، في قوله[1]: (من البسيط)

سَلْ هـذهِ الصَّحراءَ عَنِّي فَلِي
فِـي وَاحِـهَـا أَلْفُ حَـكَـايَـا وحَـالْ
سَلْ هَـذهِ الغَابَاتِ تَدرِي الَّذي
قَـدْ كَـان لِـي فِي نُـورِهـا والظِّلَالْ
سَلْ خَـيْمَـةَ البَدْوِ ونِـيرانَـهُمْ
لِـي قِـصَّـةٌ فِي كُلِّ نَـجْعٍ وآلْ
قُلْ ذِئْبَـةٌ قُلْ لَـبْـوَةٌ، مَـا تَـشَا
فَـإنَّـمَـا الـعَـاجِـزُ مَنْ لا يَـنَـالْ

فهذه الأبياتُ من قصيدةِ (صيَّادَة)، وسيُعرضُ لها في موضعٍ آخرَ من البحثِ، صدد الحديثِ عن الإحالةِ باسمِ الإشارةِ، لكنْ ما يهُمُّنا هُنا الإحالةُ بالموصولِ المُشْتَرَكِ (مَنْ) في البيت الرَّابعِ منها، فبعد أنَّ وجَّهَتْ (صيَّادةُ الرِّجالِ) حديثَها إلى الشَّاعرِ؛ كي يسألَ عنها الصحراءَ والغاباتِ، وخَيْمَةَ البَدْو ونيرانَهم، تُخاطِبُ الشَّاعرَ بأنْ يقولَ في سُؤالِه عنها : ذِئبَةٌ أو لَبْوَةٌ أو ليَقُل مَا يشاء، وفي إطارِ تذييلِ ما سبقَ مِنْ قولٍ تأتي الجُمْلَةُ الاسميَّةُ الخبريَّةُ المؤكَّدةُ (فَإنَّمَا العَاجِزُ مَنْ لا يَنَالْ)

(١) الديوان ١٣٨ / ٢.

مُتَّخذةً نمط: (إنَّ + ما الكافَّة + مبتدأ + خبر "مَنْ الموصولة" + جُملة الصِّلة "حرف نفي + فعل + فاعل")، وهو ما يتَّضحُ من خلاله أنَّ الشَّاعرَ قد قصَدَ اللجوءَ إلى استخدامِ الموصولِ الاسميِّ المُشْتَرك (مَنْ)؛ للإحالةِ به إحالةً قبليَّةً على المُحالِ عليه (العاجز) مُسْهِمًا في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ؛ ومن ثَمَّ كانتْ أهميةُ تلك الإحالةِ في هذا التذييلِ المُفيدِ أنَّ العاجزَ مَنْ لا يستطيعُ النَّيلَ من هذه الصَّيَّادة، بالإضافة إلى إسهامِ تِلْك الإحالةِ في استقامةِ وَزْنِ البسيطِ وتحقُّقِ القافية.

أمَّا عن الإحالة البعديَّة بالموصولِ المُشْتَركِ (مَنْ)، فقد وردت في ثلاثةِ مواضعَ، نَحْوُ قولِه[1]: (من البسيط)

فَتِلْكَ جِنِّيَّةٌ تَجْـــري بِرَغْبَتِها
هُوجُ الرِّيَـــاحِ فَتَعْلُو فِي مَرامِيهَا
مَـــزَالِقُ الخَطَرِ المَلْعُونِ نَزْوَتُهَا
وَلافِحُ اللَّهَبِ المَسْعُورِ يُحْيِيهَا
كَمُهْرَةٍ فِي فِجَاجِ الأَرْضِ سَابِحَةٍ
تُسَابِقُ الرِّيحَ لا تَعْنُو لِرَاعِيهَا
تَبْدُو لِرَاكِبِهَا سَمْحَاءَ وادعَـــةً
رَهِيفَةً قَدْ تُواتِـــي مَنْ يُواتِيهَا

فهذه الأبياتُ من قصيدةِ (الجِنِّيَة) يُشيرُ فيها الشَّاعرُ إلى أنَّ المَرْأةَ المُتحدَّث عنها كجنِّيَةٍ، تجري الرِّياحُ المُتداركةُ الهُبوب برَغبَتِها، فتصلُ إلى أعلى نُقطَة ترمي إليها، وهي مُولَعَةٌ بمزالق الخطرِ، يروي ظمؤها لَفْحُ اللَّهبِ الشَّديد، يجعلُها شبيهةً بأُنثى الفَرَسِ، تضربُ فيما انخفضَ من الأرض، مُحْسِنةً مَدَّ اليدين في الجَرْي، مُتسابقةً مع الرِّيح، لا تنقادُ لراعيها.

(١) الديوان ٧٣/ ٤، ويُنْظَر ٣٩/ ٤، ١٢٠/ ٥.

ومن أجْل اكتمال تلْكَ الصُّورة يُشيرُ الشَّاعرُ إلى أنَّ مظاهرَ السماحة والوداعة واللَّطافة لديها تظهرُ لراكبها، ثُمَّ يلجأ بعد ذلك إلى جانبٍ آخرَ من الوصف مُستخدمًا الجُمْلَة الفعليَّةَ الخبريَّةَ المؤكَّدةَ بقد (قَدْ تُواتي مَنْ يُواتيهَا)، في ثوب النَّمط الآتي : قد + الفعل + الفاعل+ المفعول"اسم موصول" + جملة الصِّلة)؛ للدَّلالة على أنَّها تُطيعُ مَنْ يُطيعُها، ومن خلال هذه الجُمْلَة يُلاحظُ أنَّ الشَّاعرَ قد قصَدَ الإحالة البعديَّةَ بالاسم الموصول المُشْتَرك (مَنْ) على الضَّمير المُستتر في الفعْل (يواتيها)؛ ومن ثَمَّ تحقَّقَ التَّرابُطُ النَّصِّيُّ بين مَا قبلَ الموصول ومَا بعدَه، فبَدَت البنْيَةُ الكُبرى للنَّصِّ مُترابطةً من خلال الإحالة بهذا الموصول وغيره من وسائل الإحالة الأخرى.

(ب) الموصولُ المُشْتَرَكُ (ما):

وردت الإحالةُ بالموصول الاسميِّ المُشْتَرك (ما) في تِسْعةٍ وتسعين موضعًا، حيثُ جاءت القبليَّةُ في اثنين وستين موضعًا، نَحْو قوله[1]: (من البسيط)

لِكُلِّ وَاحِـــدَةٍ مَجْدٌ وَمَلْحَمَةٌ
لِكُلِّ وَاحِـــدَةٍ ذِكْرَى صَنَعْنَاهَا
كُلُّ المَجَانِينِ قَدْ قَالُوا وَقَدْ وَصَفُوا
مَا رَاقَ مِنْ حُسْنِهَا أَوْ مِنْ سَجَايَاهَا
وَمَـــا جُنِنَّا لِطَيْشٍ لا ولا خَبَلٍ
لَكِنْ هُـــوَ الحُبُّ قَدْ أَمْلَتْهُ عَيْنَاهَا

(١) الديوان ١١٦ / ٤، ويُنْظَر بقية المواضع ١٧ / ١، ٢٦ / ١، ٤٢ / ٤، ٤٣ / ٣، ٤٤ / ٦، ٤٩ / ١، ٥٠ / ١، ٥٤ / ١، ٥٦ / ٤، ٥٧ / ٢، ٦، ٥٨ / ٤، ٥٩ / ١، ٦٢ / ١، ٦٦ / ٣، ٧٧ / ٦، ٨٤ / ١، ٩٢ / ٦، ١١٤ / ٢، ١١٥ / ٣، ١١٦ / ٤، ١٢٢ / ٣، ١٢٤ / ١، ١٢٥ / ٢، ١٣٢ / ٤، ١٣٤ / ٢، ١٣٥ / ١، ١٣٨ / ٢، ٣، ١٤٧ / ٤، ١٥٧ / ١، ٥، ١٥٩ / ٣، ١٦٠ / ٦، ١٦٩ / ٤، ١٧١ / ١، ٤، ١٨١ / ١، ١٩٦ / ٣، ٢٠٤ / ٢، ٤، ٢٠٥ / ٢، ٢٠٦ / ٢، ٥، ٦، ٢٠٨ / ٤، ٢١١ / ٢، ٣، ٢٢٨ / ١٠، ٢٣٧ / ٥، ٢٤١ / ٣، ٢٤٩ / ١، ٢٥٢ / ٤، ٥، وينظر: ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٤٤، حيث الإحالة بما إحالةً قبليَّةً، في قوله: (مِنْ الطَّويل)

فَتُغْلِلْ لَكُمْ مَا لا تُغِلُّ لأَهْلِهَا قُرًى بِالعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ ودِرْهَمِ

دِيوَانُنَا كُلُّهُ فِي وَصْفِ غَانِيَةٍ
أَوْ وَصْفِ مَعْرَكَةٍ لِلْحُبِّ خُضْنَاهَا

فهذه الأبياتُ من قصيدة (المَجَانين)، يرى فيها الشَّاعرُ أنَّ لكُلِّ واحدةٍ من النِّساءِ السَّابقِ ذِكرهُنَّ بالقصيدةِ أو المُكنَّى عنهنَّ (نُعْمٌ وعَزٌّ وعَفْراءُ وعائشةٌ وَزَيْنَبُ والثُّرَيَّا) مَجْدًا، وأُموراً مُتداخلةً، وذِكرياتٍ، صنعَها المُحبُّون . ويشيرُ في البيت الثَّاني إلى أنَّ كُلَّ مَنْ جُنَّ بها قد قالوا كثيراً، وقد أفاضوا في وَصْفِ ما أعجبَهم من محاسنها وأخلاقها، وهو ما نُلاحظُه من خلالِ الجُمْلَةِ الفعليَّةِ الخبريَّةِ المسبوقةِ بقَدْ (قَدْ وَصَفُوا مَا رَاقَ مِنْ حُسْنِها أَوْ مِنْ سَجَايَاهَا)، مُتَّخذةً النَّمط الآتي: قد + فعل + فاعل + مفعول "الاسم الموصول ما" + جملة الصِّلة "فعل + فاعل +جار ومجرور + مُضاف إليه + حرف عطف + جار ومجرور +مضاف إليه.

وبإمعان النَّظر فيها نُلاحظُ أنَّ ثَمَّةَ قَصْديَّة لدى الشَّاعرِ، حيثُ استخدامُه الإحالةَ القبليَّةَ بالاسمِ الموصولِ المُشْتَرك (ما) مُحيلاً به على الشيءِ الموصوفِ المُستفادِ من الفعل (وصفوا)، وهو ما توضِّحُه جُمْلةُ الصِّلة (راق)؛ ومِنْ ثَمَّ كان هذا الموصولُ مُسهمًا في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ بين السَّابقِ واللاحقِ، مُحافظًا على العلاقَةِ بين الجُمَل.

أمَّا عن الإحالةِ البَعْديَّةِ بالموصولِ الاسميِّ المُشْتَرك (ما)، فقد كانت في سبعةٍ وثلاثين موضعًا، نَحْوُ قوله[1]: (من الكامل)

يَكْفِيكِ مِنْ سِفْرِي العَمِيْقِ غِلافُهُ
عُنْوانُهُ، سَطْرٌ مِنَ الأَسْطَارِ

(١) الديوان ٤٣ / ١، ويُنْظَر بقية المواضع ١٩ / ٥، ٢٢ / ٥، ٤٣ / ١، ٤٤ / ١، ٤٦ / ١، ٦٠ / ٢، ٧١ / ٣، ٩٢ / ٦، ٩٥ / ٢، ٩٨ / ١، ١٠٤ / ١، ١١٣ / ٣، ١١٤ / ٤، ١١٥ / ١، ١٢١ / ٣، ١٢٤ / ٣، ١٢٧ / ٢، ١٣٤ / ٣، ١٤٢ / ٢، ١٥٠ / ٤، ١٥٧ / ١، ١٥٩ / ١، ١٦٠ / ٦، ١٦٥ / ١، ١٧٣ / ١، ١٧٧ / ٦، ١٨٨ / ٤، ٢٠٧ / ١، ٢١٠ / ٢، ٦، ٢١٦ / ٤، ٢٢٣ / ١٣، ٢٣٩ / ٣، ٢٤٤ / ١، ٢٤٨ / ٣، ٢٥٢ / ٣، ٢٦١ / ٤.

ومِـنَ الـنَّـجُـومِ الـسَّـاطِـعـاتِ بـريـقُـهَـا
ومِنَ الـرِّيَـاضِ الـفِـيـحِ بَـعضُ نُـوارِ
ومِـنَ الجَـدَاوِلِ وهي تَـرْتَـادُ الـدُّنَـا
مَـا يَـحْتَـسِي الـعُـصْـفُورُ بـالمِـنْـقَارِ

فهذا البيتُ من قصيدة (شُمُوخ) التي بدأها الشَّاعرُ بقولِه :

لَنْ تُـدْرِكي قِـمَـمَي وَلا أَغْـوارِي
إنِّي أَغِـيْـبُ بِـهَـا عَنِ الأبْـصَـارِ

فيرى أنَّ المُخاطَبَةَ بهذه الأبياتِ لَنْ تستطيع سَبْرَ أغوارِه وأسرارِه؛ ومن ثَمَّ يكفيها من أسرارِه العميقة المُشبَّهَةِ بكتابٍ ذي أغوار، الغلافُ الخارجيُّ فقط أو العنوان، أو بعضٌ مِن هذه الأسرار، كما أنَّ النُّجومَ الساطعاتِ يكفيها منها بريقُها، ولا شأنَ لها بخصائصِها وأسرارِها، وكذلك يكفيها مِن الجنانِ الفيحاء بعضُها.

وإمعانًا في سَرْدِ نماذجَ مِمَّا يكفيها أنْ تعرِفَه، نجدُ اللُّغةَ تُسْعِفُه، فيلجأُ إلى الجُمْلَةِ الفعليَّةِ الخبريَّةِ المُثبتةِ ذاتِ الفِعْلِ المحذوفِ مع مفعولِه؛ لدلالةِ ما سبقَ في الأبياتِ مِن التلفُّظِ به، مُتَّخذةً النمطَ الآتي: فِعل محذوف + مفعول به + جارّ ومجرور + حال جُملة اسمية " مبتدأ + خبر جملة فعلية" + فاعل "اسم موصول"ما" + جملة الصِّلة " فعل +فاعل +جار ومجرور"، وهو نمطٌ يتَّضحُ من خلالِه أنَّ التِّلِّيسيّ قد قصَدَ استخدامَ الإحالةَ بالاسمِ الموصولِ المُشْتَرِكِ (ما) مُحيلاً به إحالةً بعديَّةً على الشيءِ المُحْتَسَى، مُستثمرًا إيَّاه في الرَّبْطِ بين ما سبق، وما يتبعه من جُملةِ الصِّلة؛ من أجْلِ الدَّلالةِ على أنَّه إنْ كان مَا سبقَ لا يَرْدَعُها عن التَّفتيشِ في أعماقِ الشَّاعرِ، فإنَّ مَا فيه سِرُّ الحياة، وهو الماءُ الجاري في الجداولِ هنا وهناك، يكفيها منه مَا يروي ظمأَهَا، على نَحْوِ ما يحتسيه العصفورُ منه بمنقاره؛ ومن ثَمَّ أَسْهمَ الموصولُ الاسميُّ المُشْتَرِكُ (ما) في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ إسهامًا يحتاجُ إلى إعمالِ عقلٍ وفَهْمٍ للبِنْيَةِ الكُبرى للأبيات.

وهكذا نُلاحظُ من خلال العرض السَّابق، على مدارِ هذا المبحث أنَّ الموصولَ، سواءٌ أكان مُختصًّا أم مُشتركًا، قد أسْهَمَ في حُسْن التأليف والرَّصْف، فبدا التَّرَابُطُ النَّصِّيُّ واضحًا لدى خليفة التِّلِّيسيّ مُسهمًا في وضوحِ المعنى؛ ومن ثَمَّ أفلحَ الشَّاعرُ في إزاحة التَّعمية عن شِعْره، فكانَ مقبولاً، يقول أبو هلال العسكريّ: "وحُسْنُ التَّأليفِ يزيدُ المعنى وضوحًا وشَرْحًا، ومع سوء التأليف ورداءَة الرَّصْفِ والتَّركيبِ شُعبةٌ من التَّعمية، فإذا كان المعنى سبيًّا، ورَصْفُ الكلام رَديًّا لم يوجد له قبولٌ، ولم تظهرْ عليه طلاوةٌ. وإذا كان المعنى وسطًا، ورَصْفُ الكلامِ جيِّدًا كان أحسَنَ موقعًا، وأطيبَ مُسْتَمَعًا، فهو بمنزلة العِقْدِ إذا جُعِل كلُّ خرَزةٍ منه إلى ما يليقُ بها كان رائعًا في المَرْأى، وإنْ لم يكُن مُرتفعًا جليلاً، وإنْ اختلَّ نَظْمُه فضُمَّت الحبَّةُ منه إلى ما لا يليقُ بها اقتحمَتْهُ العينُ وإنْ كان فائقًا ثمينًا .وحُسْنُ الرَّصفِ أنْ تُوضَعَ الألفاظُ في مواضعها، وتُمكَّنَ في أماكنها، ولا يُستعملُ فيها التَّقديمُ والتَّأخيرُ، والحذفُ والزِّيادةُ إلا حَذْفًا لا يُفسدُ الكلامَ، ولا يُعَمِّي المعنى، وتُضَمُّ كُلُّ لفظةٍ منها إلى شكلها، وتُضاف إلى لفْقِهَا"(١).

المطلب الثَّالث: الموصولُ الحرفيُّ (أل) :

منَ المعروفِ في الدَّرسِ النَّحْويِّ أنَّ (أل) تكون موصولةً بمعنى الذي، وذلك "في الصِّفة، نَحْوُ اسم الفاعلِ واسمِ المفعول، تقول :هذا الضارب زيدًا، والمرادُ الذي ضرب زيدًا، وهذا المضروبُ، والمُرادُ الذي ضُرِبَ أو يُضْرَب؛ وذلك أنَّهم أرادوا وَصْفَ المعرفةِ بالجُمْلَةِ من الفعل، فلمَّا لم يُمكنْ ذلك لتنافيهما في التَّعريفِ والتَّنكيرِ توصَّلوا إلى ذلك بالألف واللام، وجعلوها بمعنى الذي، بأنْ نووا فيها ذلك، ووصلوها بالجُمْلَةِ، كما وصلوا الذي بها، إلاَّ أنَّه لَمَّا كان من شأنها أنْ لا

(١) كتابُ الصناعتين "الكتابة والشِّعر"، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبوالفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م، ص ١٦١.

تدخل إلاَّ على اسمٍ واحدٍ حوَّلوا لَفْظَ الفعْلِ إلى لَفْظِ الفاعلِ أو المفعولِ، وهم يريدون الفعْلَ"(١). ومثالُ ذلك مَا جاء في قولِ الشَّاعِرِ(٢): (من الكامل)

خَلَّدْتُ رَسْمَكِ في القَرِيْضِ فَنَاقِدٌ
يُثْنِي عَلَيْهِ بِصادِقِ الإِنْصَافِ

وَمُفَسِّرٌ بِاللَّيْلِ يَكْشِفُ سِرَّهُ
حَتَّى يَرَى المَقْصُودَ بِالأَوْصَافِ

وَمُتَيَّمٌ يَجِدُ الصَّبَابَةَ صُوِّرَتْ
مِنْ وَجْدِهِ فَيَزِيدُ فِي الإِلْطَافِ

فهذه الأبياتُ من قصيدة (رَسْم)، توحي بأنَّ الشَّاعرَ "لم يستنكفْ في أحقيَّة التغنِّي بالمرأة، ممَّا يبدو لنا أنَّ جذوةَ الحُبِّ قد لامسَتْ قَلْبَ شاعرِنَا الكبير "(٣)، فاستثمرَ اللُّغةَ في ذلك التَّغنِّي، من خلال استخدامِ الإحالَة بأل الموصولة، وبيانُ ذلك أنَّ جُملةَ (يَرَى المَقْصُودَ) جُملةٌ فعْليَّةٌ خبريَّةٌ مُثبتةٌ، أحالت فيها (أل)

(١) شرح المُفصَّل، ابن يعيش ٣ / ١٤٣، ويُنْظَر به أيضًا: ١٣٨، ١٥٩، ٦ / ٦١، والكتاب، سيبويه ٢ / ١٠٥، والمقتضب، للمُبَرِّد ١ / ١٥١، ٣ / ١٩٧، وشرح التسهيل، ابن مالك ١ / ٢٠٠، وشرح المُفَصَّل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، صدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي ت ٦١٧ هـ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن العثيمين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطَّبْعَة الأولى، ١٩٩٠ م، ٢/ ١٨٩ – ٢٢٥، والنَّحْو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، الطَّبْعَة الثَّالثة، د. ت، ١ / ٣٥٦، ومقالات في اللُّغَة والأدب، د. تمام حسان ١/ ٢٠١ – ٢٠٢، والتَّعريف والتَّنكير بين الدَّلالة والشَّكل، د. محمود نحلة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٩ م، ص١١٦، ومن الأنماط التحويلية في النَّحْو العربى، د. محمد حماسة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ١٩٩٠م، ص٥٦، والقضايا التَّركيبية في شعرِ الأعشى الكبير وعلاقتها بالدلالة في ضوء الدرس اللغويّ الحديث، د. فايز صبحي تركي، رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣ م، ص ١٥٣ – ١٥٥.

(٢) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ١٤٥ / ١– ٣، ويُنْظَر به أيضًا١٣٣–١٣٤ / ٥، ١، ١٣٧ / ٢، ١٣٨/ ٢، ١٤٣ / ١، ١٤٧ / ٢، ١٤٨ / ٢، ١٤٩ / ٣، ١٥٢ / ٤، ١٥٣ / ٣.

(٣) التِّلِّيسيّ وألمعية الشَّابي، عبد الجواد عباس، ضمن كتاب التِّلِّيسيّ موسوعةٌ وريادة، منشورات مجلس تنمية الإبداع الثقافي، ليبيا، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠٤ م، ص ٩٥، وعلى الرَّغم من ذلك نجد التِّلِّيسيّ في موضعٍ آخر (٢٤٠/ ٥–٦) يقول: (من الكامل)

وانْظُرْ حيالَكَ هَلْ تَرَى مِنْ شاعرٍ ... أسرَ الحسانَ برائعِ الأَقْوالِ
خَيْرُ القصَائدِ للْحِسانِ قِلادَةٌ ... وهَّاجةٌ باللاَّمعِ الخَتَّالِ

الموصولة في كلمة (المقصود) على معارفنا عن العالم الخارجيّ، استناداً إلى أنَّ مَنْ يُخلِّد اسم امرأةٍ مَّا في شعره، ينقسمُ النَّاسُ تجاهَهُ بين مَنْ يُثني عليه صادقًا مُنْصِفًا، وبين مَنْ يَسْهَرُ عليه مُفَسِّرًا إيَّاه، كاشفًا سرَّه، ليرَى الذي قُصِد بهذه الأوصاف، فقولُنا: (الذي قُصِد) يقابلُه كلمةُ (المقصود)، ولا شكَّ في ذلك، فالشَّاعرُ - كما يتَّضحُ من شِعْرِه على مدار مَا سبقَ، ومن خلال استقراء الديوان - يَخبَرُ اللُّغة؛ ومن ثَمَّ حقَّ لقائلٍ أنْ يقولَ: "فهو يملك ناصية اللُّغَة، فتخفضُ له جَناحَيها ذُلاً ودَلاً، في إذعانٍ بهيٍّ، ليحلِّقَ في فضاءاتِ الخيالِ الرَّحْبَةِ وأجواءِ الفَرحِ والدَّهشَةِ والإبهارِ، فلُغَةُ التِّلِّيسيّ لغةٌ مطواعَةٌ، يُشكِّلُ عجينَها الشِّعريَّ كما يشاء"(١).

ولئن كانت الإحالَةُ بأل الموصولة مع اسمِ المفعول فيما سبق، فإنَّ ديوان الشَّاعرِ لم يَخْلُ منها مع اسمِ الفاعل، على سبيل المثال، كما يتَّضح من إحالتنا على بعض المواضع آنفًا؛ ومن ثَمَّ أُشيرُ إلى" أنَّ الألف واللام لو كانت المعرِّفة لكان لحاقُها اسمَ الفاعل قادحًا في صحَّةِ عمَله مع كَونه بمعنى الحال والاستقبال، والأمرُ بخلاف ذلك، فإنَّ لحاقَ الألفِ واللامِ به يوجبُ صحَّة عمله، وإنْ كان ماضي المعنى، فعُلِمَ بذلك أنَّ الألفَ واللَّامَ غيرَ المُعرِّفة، وأنَّها موصولةٌ بالصِّفة؛ لأنَّ الصِّفةَ بذلك يجبُ تأولها بفعلٍ، ليكونَ في حُكْمِ الجُمْلَةِ المُصرَّحِ بجزأَيْها، ولأجلِ هذا التَّأويلِ وجَبَ العملُ مُطلقًا، وحَسُنَ أنْ يُعْطَفَ على اسمِ الفاعلِ الموصولِ به فِعْلٌ صريحٌ، كقوله تعالى: ﴿**فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا**﴾ [العاديات: ٣، ٤](٢)، و﴿**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ [الحديد: ١٨]، وعنيتُ بالصِّفة المَحْضة أسماءَ الفاعلين وأسماءَ المفعولين والصفات المُشبَّهة بأسماءِ الفاعلينَ"(٣).

(١) قراءةٌ في شعر الانتماء عند التِّلِّيسيّ، جمعة الفاخري، ضمن كتاب التِّلِّيسيّ موسوعةٌ وريادة، منشورات مجلس تنمية الإبداع الثقافي، ليبيا، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠٤ م، ص ٧٧.

(٢) يُنْظَر ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ٢/ ١٣٨.

(٣) شرح التسهيل، ابن مالك ١/ ٢٠٠، ٢٠١، ويُنْظَر: أوضح المسالك، ابن هشام ٣/ ٣٥٠، وأمالي ابن الشَّجريّ ٢/ ٤٣٨.

المبحث الثَّالث

الإحالَةُ بالإشارة ودَورُها في التَّرابُطِ النَّصِّيّ

في هذا المبحث ـ بعيداً عن التنظيرِ لأسماء الإشارة(١) ـ سنأخذُ برأي جمهورِ النَّحاة، ذلك الرأي القائلُ بأنَّ الإحالَةَ بالإشارة تنقسمُ إلى ثلاثة أقسامٍ : إحالة قريبة، وإحالة وُسْطى، وإحالة بعيدة، يقولُ ابن عقيل: "والجمهورُ على أنَّ له ثلاثُ مراتبَ : قُرْبَى، ووُسْطَى، وبُعْدَى، فيُشارُ إلى مَنْ في القُرْبَى بما ليسَ فيه كافٌ ولا لامٌ: كَذَا، وذِى، وإلى مَنْ في الوسطى بما فيه الكافُ وحدَها، نَحْوُ ذاك، وإلى مَن في البُعْدَى بما فيه كافٌ ولامٌ، نَحْوُ ذَلكَ "(٢).

هذا، ومن الجديرِ بالذِّكر أنَّ "أسماءَ الإشارة (مثلُها في ذلك مثلُ الضَّمائر) قَدْ تشيرُ إلى خارجِ النَّصِّ، كما في قوله تعالى: ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، التي يعود فيها اسمُ الإشارةِ إلى "كبير الأصنام"، وهو خارجُ النَّصِّ، وقَدْ

(١) يُنْظَر : أمالي ابن الشَّجريّ، ٣ / ١٦٤، وشرح المُفَصَّل، ابن يعيش ٣ / ١٢٦ – ١٣٧، وشرح المُفَصَّل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، للخوارزمي ٢ / ١٨١ – ١٨٧، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، الطَّبْعَة العشرون، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م، ١ / ١٣٠ – ١٣٦.

(٢) شرح ابن عقيل ١ / ١٣٥ – ١٣٦، ويُنْظَر : الكتاب، سيبويه ٢ / ٥–٧ ،١٢، ٧٧، ٤ / ٢٢٧، والمقتضب، للمُبَرِّد ٣ ١ / ٨٦ ، ٤ / ٢٧٧ ، وأمالي ابن الشَّجريّ٣ / ١٦٤، وشرح المُفَصَّل، ابن يعيش ٣ / ١٢٦ – ١٣٧، وشرح المُفَصَّل (التخمير) ٢ / ١٨١ –١٨٧، ونتائج التَّحصيل في شرح كتاب التسهيل، لمحمد بن محمد بن أبي بكر المرابط الدلائي، مع دراسة شخصية مؤلفه، تحقيق الدكتور مصطفى الصادق العربيّ، نَشْر الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع، بنغازي، ليبيا، د . ت، ٨٥٣ – ٨٩٦، وعِلْمُ اللُّغَة النَّصِّيِّ بين النظرية والتَّطبيق، د.صبحي الفقي ١ / ٧٠، والإحالَة وأثرها في دلالة النَّصِّ وتماسكه، د.محمد يونس ص ١٨٢، والإحَالَة ودورها في التَّماسك النَّصِّيِّ رواية في سبيل التَّاج للمنفلوطي نموذجًا، دنيا بن قاسمي، ص ٤١ – ٤٥، والاتِّساقُ في العَربيَّة، جبار سويس، ص٨٤ – ٨٧، ١١١ – ١١٢ صدد محاولته إيجاد العلاقات الاتّساقيّة في النَّصِّ العربيّ، من خلال تحليله نصًّا من كتاب أخبار أبي القاسم الزَّجاجي ت ٣٣٧ هـ، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتليّ، دار الرشيد للنشر، العراق، سلسلة كتب التراث (٩٥)، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٥ م، ٢٤–٢٥.

تشيرُ إلى داخله: إمَّا إلى متقدِّمٍ، كما في قولنا: مَنْ قالَ هذا؟ ردًّا على مَنْ قالَ: النِّساءُ أطولُ عُمْرًا من الرِّجالِ، وكما في قولنا: أصبَحتْ الدِّراسةُ الجامعيَّةُ في بريطانيا مكلِّفةً جدًّا؛ ولذا/ ولهذا/ ولذلك فإنَّ كثيرًا من الطلبة والطالبات يفضِّلونَ البحثَ عن عَمَلٍ بدلاً مِنْ مواصَلَةِ دراستِهم، حيثُ تُشيرُ إلى القولة السَّابقة له. وقد تُشيرُ إلى مُتأخرٍ، كما في قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢]، حيثُ يُشيرُ اسمُ الإشارةِ (ذلك) إلى كلمة "الكتاب" التي وَردتْ متأخرةً عن اسمِ الإشارةِ. ومِن بين أسماءِ الإشارةِ تمتاز "ذا"، و"هذا"، و"ذلك" بالإشارةِ إلى قِطعْةٍ من النَّصِّ ... أو لِفَحْوى النَّصِّ الذي سبق... ومِنَ المُلاحَظِ أنَّ للمتكلمِ الخيارَ عادةً في استخدامِ أيٍّ من أسماءِ الإشارةِ المذكورةِ، ولكنْ قدْ يُوجدُ من الأغراضِ البلاغيَّةِ، والمقاصدِ التخاطبيَّةِ مَا يرجِّحُ اختيارَ أحدِها على الآخر، فيختارُ اسمَ الإشارةِ الدَّال على البُعْدِ مثلا إذا كان المتكلِّمُ يُشيرُ إلى:

أ- شيءٍ يُعتقَدُ أنَّه غائبٌ أو بعيدٌ منه زمانًا أو مكانًا، كما في: بدأ طه حسين دراستَه الأزهريةَ، وهو في الثَّالثةَ عشرةَ من عُمْرِه، كان آنذاك صبيًّا فقيرًا، يرتدي ثيابًا رَثَّةً، ويأكلُ لونًا واحدًا من الطَّعام، حيثُ يُشيرُ فيها المتكلِّمُ بـ"ذاك"؛ لأنَّ الزَّمنَ المُشارَ إليه بعيدٌ.

ب- شيءٍ مُهِمٍّ، أو ذي قيمةٍ، أو مُقدَّسٍ، أو مُحترمٍ. وباختصار، فإنَّ المُتكلمَ هنا يُنزِّلُ عُلُو مكانةِ المُشارِ إليه مَنزلةَ بُعدِها الحِسِّيِّ، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ التي أُشيرَ فيها بـ"ذلك" للقرآنِ الكريمِ المُعبَّرِ عنه بالكتاب؛ لعُلُوِّ منزلته. وقد يختارُ المتكلِّمُ استخدامَ اسمِ الإشارةِ الدَّال على القُرْبِ للتَّعبيرِ عن التَّحقيرِ، كما في: أهذا هو الملاكمُ الذي تزعمُ أنَّه لم يُهزَمْ قطُّ؟، أو للإشارةِ إلى قُرْبِ الرَّأي للعقلِ، أو وضوحِه فيه، لتأكيدِ صحَّته، كما في قولِ الشَّاعرِ: (من البسيط)

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ
وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقَا
هذا الَّذِي تَرَكَ الأَوْهَامَ حَائِرَةً
وصَيَّرَ العَالِمَ النِّحْرِيرَ زِنْدِيقَا(١)

أمَّا عن توظيف خليفة التِّلِّيسيّ أسماءَ الإشارة في ديوانه، فيمكنُ تلمُّسه فيما يلي مِنْ مطالب:

المطلب الأوَّلُ: الإحالَةُ القريبةُ:

تكونُ هذه الإحالَةُ باستخدامِ (هذا) وفروعِه، حيثُ يُشارُ إلى مَن في القُربَى بمَا ليس فيه كافٌ ولا لامٌ، ومثالُ ذلك ما ورد في قول الشَّاعِرِ(٢): (من البسيط)

هَيِّءْ تَعَاوِيذَكَ واصْنَعْ بِهَا
مَا شِئتَ مِنْ سِحْرٍ يفُوقُ الخَيالْ
فَلَنْ تَرَى مِنِّي سِوَى بَسْمَةٍ
تُغْرِيْكَ بِالسَّيْرِ وَرَاءَ المُحالْ
لاَ يَسْتَبِيْنِي المالُ ،كَمْ واهمٍ
يَظُنُّ في المالِ سبيلَ الوِصَال
أحْتَقِرُ المَالَ فَلا قِيْمَةٌ
لِلْمالِ عِنْدِي مَوطِئٌ لِلنِّعالْ

(١) الإحالَةُ وأثرُها في دلالة النَّصِّ وتماسُكه، د. محمد يونس ص ١٨٥ بتصرُّف، والنِّحرير: الحاذقُ الماهرُ العاقلُ المُجرِّب، وقيل: النِّحْرير: الرجلُ الطَّبِن المُتقِن الفَطِن البَصيرُ بكلّ شيءٍ، يُنْظَر لسان العرب (نَحَرَ)، ويُنْظَر: بلاغة الخطاب وعلْم النَّصِّ، د.صلاح فضل ص ٢٤٤ .

(٢) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ١٣٦ / ٢، ويُنْظَر: ٢٥ / ٢، ٢٦ / ٢، ٨٣ / ٢، ٨٤ / ١، ٩٢ / ٩، ٩٤ / ٦، ١١٤ / ، ١٢٣ / ١، ١٣٢ / ٣، ١٣٤ / ٤، ١٣٧ / ٥ -٦، ١٤١ / ٤، ١٨٧ / ١، ١٨٠ / ٦، ١٨١ / ١، ١٩٧ / ٤، ١٩٨ / ٦، ٢٠٥ / ٥، ٢٠٨ / ٣، وقد جاءت الإحالَة الظرفية باستخدام (هنا) بديوانه أيضًا: يُنْظَر ٢١٣ / ٣ – ٤، ٢١٤ / ١، ٢، ٤، ٥.

فَـلاَ الخلاخــــيـلُ بـــإشْــعــاعِــهَــا
ولاَ الــيَـــوَاقِــيْـــتُ وتِــلْـكَ اللالْ
ولا الــفَــســاتِـــينُ بِـــألْـــوانِـــهـــــا
يَـا حُــسْـنَـهـا غَـيْرِي بِـهـا يُـسْـتَـمَالْ
ولا نَـــضِـــيْـــرُ الـــوَرْدِ فِــي بــاقَـــةٍ
مَـنْـظُـومَـةِ الأَلْـوانِ شَـتَّى الجَـمَـالْ
لا تَــسْـتَـبِـيْـنـي هَـــــذِهِ كُـــلُّـهـا
أَلْقِ بِــهَـــا لـــلـرِّيْـحِ، ريحِ الــشَّـمَـالْ

فالمُلاحَظُ من خلالِ البيتِ الأخيرِ أنَّ الشَّاعرَ قد وظَّفَ اسمَ الإشَارةِ للمُفرَدَةِ المؤنَّثة (هذه)، المُكوَّنَ من (ذِه) وهاء التَّنبيه؛ مِنْ أَجْلِ أنْ تَترابطَ الجُمْلَةُ الفعليَّةُ المنفيَّةُ (لا تَسْتَبِيْني هَذِهِ كُلُّها) بِمَا سبقَها مِنْ أشياءَ على مدارِ الأبياتِ السَّابقةِ، حيثُ إنَّ الإحالَةَ هنا من نَوعِ الإحالَةِ الدَّاخليَّةِ القَبْليَّةِ، فقَدْ أحالَ اسمُ الإشارةِ (هذه) على الأشياء السَّابقةِ، بغَرَضِ الإشارةِ إلى أنَّ هذه الأشياءَ على عِظَمِها والمبالغةِ فيها[1]، فإنَّها لا تستطيعُ اجتذابَ الصَّيَّادة.

وبيانُ ذلك أنَّ الشَّاعرَ في سياقِ الحديثِ عن تلكَ الصيَّادةِ التي تصطَادُ الرِّجالَ بجمالِهَا، ومقاومته نَصْبَ شِرَاكِها التي تبتغي بها صَيْدَه؛ ومن ثَمَّ تحدِّيها له بأنْ يفعلَ مَا شاء، ويهيِّئ تعاويذَه، فرغمَ كلِّ ذلك لنْ يَرى منها سِوى بَسْمَةٍ، تُغريه بالسَّيرِ وراءَها، لدرجةِ أنَّ الإعْراضَ عنها مُحَالٌ، فلا يستميلُها المالُ، فهو تحت نِعَالِها، ولا تَسْتميلُها خلاخيلُ الذَهَبِ والياقوتِ واللؤلؤ، ولا الفساتينُ بألوانِها الجميلةِ - على الرَّغم من استمالَةِ غيرِها بهذه الأشياء - ولا تستميلُها باقةُ الوَردِ الجميلةُ، ثُمَّ تأتي الخلاصةُ في اسمِ الإشارةِ (هذه) مُشيراً إلى أنَّ كلَّ هذه الأشياءَ

(١) يُنْظَر: شرح المفصل، ابن يعيش ٣ / ١٣٧ .

المُتَحَدَّث عنها والمفهومَة من فحوى الكلام، لا تستبيها؛ ومن ثَمَّ فعلى الشَّاعر أنْ يُلقي بها لريح الشمال القويَّة، فكانتْ ذُروةُ الإحالة باسم الإشارة في الإبراق للمُخاطَب بأنْ يتنبَّه لِمَا يشيرُ إليه اسمُ الإشارة؛ ولذلك أمكنَ القولُ بأنَّ هذه الإحالةَ قد اختلَفَتْ عن نظيرتها في الكلام العاديِّ، بسبب وَعْي الشَّاعرِ بمَا يقولُ، وقَصْده ما يكمُنُ وراءَها من شُحنات دلاليَّة، كمَا أنَّها اختلفتْ عن غيرها فيمَا عدا الشِّعرَ من نصوصٍ؛ من جرَّاء تحقيقها الإيجازَ، فكانت مُسهمةً في استقامة وزْن البسيط؛ ومِنْ ثَمَّ صحَّةُ القافية.

وبذلك يكونُ الشَّاعرُ قد استخدمَ اسمَ الإشارة كي يدُلَّ من خلاله على أنَّ ثَمَّة علاقةً ترابطيَّةً بين أجزاء النَّصِّ، وهو مَا يترتَّبُ عليه استطاعةُ المُتلقِّي مُتابعةَ الشَّاعرِ فيما أرادَه من معنًى نَصِّيٍّ لِنَصِّه أو ما يُسمَّى بالبِنْيَة الكُبرى للنَّصِّ، وهُنا يكمُنُ الإبداعُ.

هذا، ويمكنُ القولُ: إنَّ إحالةَ التِّلِّيسيّ باسم الإشارة (هذه) ـ على نَحْو مَا سبقَ مِنْ تحليلٍ، وغيره من خلال استقراء الديوان ـ على مجموعةٍ من الجُمل (لاَ يَسْتَبِيْنِي المالُ، فَلاَ الخلاخيلُ بإشْعاعِهَا، ولاَ اليَوَاقِيْتُ وتِلْكَ اللَّلالْ، ولا الفَساتينُ بألْوانِها، ولا نَضِيْرُ الوَرْدِ في باقةٍ مَنْظُومَة الأَلْوان) تندرجُ تحت ما يُسمَّى بالإحالة المُوسَّعَة، حيثُ إنَّ "اسمَ الإشَارة المُفردَ يتميَّزُ بما يُسمَّى بالإحالة المُوسَّعَة، أي إمكانيةُ الإحالة إلى جُملةٍ بكاملِها، أو إلى مُتتاليةٍ من الجُمَلِ، أو رُبَّما الخطابُ كلُّه؛ حيثُ إنَّه يُشيرُ إلى معلوماتٍ مُسلَّمَةٍ لدى المُتلقي، وهنا توجدُ إمكانيةُ أنْ تصدُقَ الإحالةُ على جُملةٍ كاملَةٍ أو جُمَلٍ مُتواليَةٍ أو الخطاب كلِّه، حيث تُنشِّطُ الإحالةُ مساحةً كبيرةً من المعلوماتِ بشكلٍ موسَّعٍ "(١).

(١) الإحالةُ في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٥٢ – ٥٥٣، ويُنْظَر: لسانيات النَّصِّ، د. محمد خطابي ص ١٩.

ولـمَّا كانت هـذه الإحالَـةُ إحالـةً داخليـةً قبليَّـةً، فإنَّ فيمـا يلي تمثيلاً للإحالة الدَّاخِلِيَّةِ البَعْدِيَّةِ، حيثُ يقولُ الشَّاعرُ في القصيدةِ نفسِها (صيَّادة)[1]: (من البسيط)

سَلْ هـذِهِ الصَّحـراءَ عَنِّي فَلِي
في وَاحِـهَـا أَلْفُ حَـكَـايَـا وحَـالْ
سَلْ هَـذِهِ الـغَـابـاتِ تَـدرِي الَّـذي
قَـدْ كـانَ لِي فِي نُـورِهـا والـظِّلَالْ
سَلْ خَـيْـمَـةَ الـبَـدْوِ ونِـيـرَانَـهُـمْ
لـي قِـصَّـةٌ فـي كُـلِّ نَـجْـعٍ وآلْ
قُلْ ذِئْـبَـةٌ قُلْ لَـبْـوَةٌ، مَـا تَـشَـا
فَـإِنَّـمـا الـعـاجِـزُ مَـنْ لا يَـنَـالْ

ففي هـذه الأبيـاتِ نُلاحظُ أنَّ صيَّادةَ الرِّجالِ تُخاطبُ الشَّاعرَ بأنْ يسألَ عنها الصَّحراءَ، فلَها في كلِّ واحةٍ حكاياتٌ وأحوالٌ، كما عليه أنْ يسألَ الغاباتِ، فهي تعرفُ ما كان لهذه الصَّيَّادةِ في نورِها وظلالِها، وذلك مِنْ خلالِ الإحالَةِ الدَّاخليَّةِ البَعْدِيَّةِ التي أحالَ فيها اسمُ الإشارةِ المُبْهَمِ في أوَّل بيتين على المُحال عليه فيما بَعْدُ (الصحراء، الغابات)، في الجُمْلَتَين الفعْلِيَّتَين الإنشائيتين المُتَّخذتين نَمَطَ (فِعْل الأمر + فاعل مُستتر وجوبًا + مفعول به "اسم الإشارة (هذه) + بدل مُطابق)، مِمَّا يجعلُ المُتَلَقِّي بمجرَّدِ ذِكْرِ الفعْلِ (سَلْ) واسْمِ الإشارةِ (هذه) يتساءَلُ: ما هذه؟ أي ما المقصودُ بهذا الإبهامِ في اسْمِ الإشارةِ (هذه) في الموضعين السَّابقَين؟ لاسيَّمَا أنَّه لم يجْرِ له ذِكْرٌ فيمَا تقدَّمَ مِن أبياتِ القصيدةِ، فإذا به يجدُه في (الصحراء،

(١) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ١٣٧ / ١–٦، ١٣٨ / ١–٢، ومن الجدير بالذِّكرِ أنَّ الإحالَةَ الخارجيَّةَ باستخدام اسْمِ الإشارةِ هذا وفروعه قد وردت في شعر خليفة التِّلِّيسيّ: يُنْظَر ٢٦ / ٢.

الغابات)؛ ومن ثَمَّ وُجِدَ نوعٌ من التَّرابُطِ النَّصِّيِّ بين اسمِ الإشارةِ المُبْهَمِ لغَرَضِ التَّهويلِ، ولَفْتِ انتباهِ المُتلَقِّي إلى ما بعد اسْمِ الإشارةِ، وبين المُحالِ عليه، مُضَافًا إلى ذلك إسهامُ هذه الإحالةِ في استقامَةِ (البسيط) وصحَّة القافية، في مكانها برويِّها المُراد، فمن المعلومِ أنَّه لو قال: (سَلِ الصَّحراء ـ سَلِ الغابات) لَمَا استقامَ الوزنُ، ولَمَا صَحَّت القافيةُ، ولَمَا استُفِيدَ معنى التَّهويلِ المفهومِ من هذا الإبْهامِ مُرتبطًا بسياقه هذا.

إنَّها اللُّغَةُ الشِّعريَّةُ في إطارِهَا النَّصِّيِّ، تلك اللُّغةُ التي تمكِّنُنا من القولِ: "إنَّنا أمامَ فنٍّ إبداعيٍّ، لا ينضبُ معينُ غمُوضِه، ما دام يغترفُ من أشدِّ المراكزِ غموضًا عند المُبدعِ، وينتهي إلى أشدِّ المراكزِ غموضًا أيضًا عند المُتلقِّي. ولعلَّه من أَجْلِ هذا نَفَى الدكتور صلاح فَضْل في سياق حديثٍ له عن الرؤيا وانبهامها، أنْ يكون الإبهامُ مأزقًا تعبيريًّا، وإنَّما هو شيءٌ كامنٌ في جذورِ الشِّعرِ ومرتبطٌ عضويًّا بطبيعته(١). وفي تقديري أنَّ الشَّاعرَ مع هذا الشعورِ النَّوعيِّ الذي يغمرُه لحظةَ الإبداعِ، هو في نَحْوٍ من الرؤيةِ والرؤيا المُنبَهِمَتَين. وإذا كانت طبيعةُ الشِّعرِ على هذا النَحْوِ، أي طبيعةٌ غامضةٌ، فالمُتوقَّع أنْ تنعكسَ هذه الطبيعةُ على لُغةِ الشِّعرِ نفسها، فاللُّغةُ مادةُ هذا النَّسيجِ الذي هو الشِّعرُ، وبدون اللُّغة على كيفيَّةٍ مُعيَّنةٍ، لا يكونُ شِعْرٌ، اللُّغَةُ هي مُتَّكأُ الشِّعرِ"(٢).

ولَمَّا كانَ ذلك كذلك، فإنَّ فيه ما يُعربُ عن الرَّبْطِ بين هذا النوعِ من الإحالةِ والجانبِ الإبداعيِّ، على الرَّغمِ منْ أنَّ (الإحالةَ باسْمِ الإشارةِ) ممَّا تتوافرُ عليه النصوصُ العاديَّةُ والإبداعيَّةُ على حدٍّ سواء؛ ومن ثَمَّ فإنَّ اختيارَ اسْمِ الإشارةِ المناسبِ لمَا في نفْسِ المُرسلِ ـ مبدعًا أو غيرَ مُبدعٍ ـ من معاني القرْبِ أو البُعْدِ

(١) أساليب الشعرية المعاصرة، د.صلاح فضل، شركة الأمل، القاهرة، ١٩٩٦ م، ص ٣٣٣ .

(٢) الإبهام في شعر الحداثة "العوامل والمظاهر وآليات التأويل"، د. عبد الرحمن محمد القعود، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٢ م، ص ٢٤٩ بتصرُّفٍ يسير.

الحِسِّيِّ أو المعنويِّ مُرْتبطًا بِمَا يحملُه من إبهامٍ في سياقِه، مُضافًا إليه التَّآزرُ مع الوزنِ والقافيةِ، لا يستوي فيه - على الإجمال - المرسلونَ، مبدعونَ أو غير مبدعين، فالمُبدعُ شاعرًا أو كاتبًا يكون قاصدًا، أمَّا غيرُ المُبدعِ فلا يكونُ كذلك، وأخيرًا أُشيرُ إلى أنَّ ما يوجدُ مِنْ إحالةٍ في نَصٍّ لا يكونُ له الأثَرُ نَفْسُه في نصٍّ آخرَ، إذا أخذنا في الاعتبارِ المقامَ الذي يتحدَّثُ فيه الشَّاعرُ، والبِنْيَةُ الكُبرى للنَّصِّ موضع التَّحليلِ النَّصِّيِّ.

هذا، ولا أريدُ الانتقالَ إلى المطلبِ التَّالي دون الإشارةِ إلى أنَّ أسماءَ الإشارةِ قد يُظَنُّ التَّناقُضُ فيها، مِن خلال كَوْنِها معارفَ ومبهمةً في الوقت نفْسه، لكنه ليس تناقُضًا؛ لأنَّ ذلك يزول باستعمالها، فما فيها من إبهامٍ وضْعًا يرفَعُه الاستعمال تحقُّقًا(١). وأنَّ ما سبق من تفسيرٍ ذُكِرَ بعد اسْمِ الإشارةِ في قوله: (سَلْ هـذهِ الصَّحراءَ - سَلْ هَـذهِ الغَاباتِ) غرضُه إحداثُ وَقْعٍ في النفوسِ لذلك المُبْهَمِ، وهو ما أدلى به الرَّضِيُّ، في قولِه: "الغرضُ مِن الإبهامِ ثُمَّ التَّفسير، إحداثُ وَقْعٍ في النفوس لذلك المبهم؛ لأنَّ النُّفوس تتشوَّقُ، إذا سمِعت المُبهم، إلى العِلْمِ بالمقصودِ منه، وأيضًا في ذِكْرِ الشَّيء مرتين: مُبهمًا ثُمَّ مُفسَّرًا توكيدٌ ليس في ذِكْرِه مرة"(٢).

المطلب الثَّاني: الإحالَةُ الوسْطَى :

تكونُ هذه الإحالَةُ باستخدامِ (ذاك) وفروعِه، حيث يُشارُ إلى مَنْ في الوسطى بِمَا فيه الكاف وحدَها، ومثالُ ذلك مَا وردَ في قولِ الشَّاعرِ(٣): (من الكامل)

---

(١) يُنْظَر: أصول تحليل الخطاب في النَّظرية النَّحْوية العربية، تأسيسُ نَحْو النَّصِّ، د. محمد الشاوش، ٢ / ١٠٦٩.

(٢) شرح الرَّضِيِّ على الكافية ١ / ١٩٩ .

(٣) ديوان خليفة التِّلِّيسِي ١٠٧ / ٣-٤، ١٠٨ / ١-٣، ويُنْظَر: ٣٦، ٥ / ٤٥، ١ -٢ -٤، ٤٧ / ١، ٧٥ / ٥، ٧٧ / ١، ٩٢ / ٩، ٩٣ / ٥، ٩٥ / ٤، ١١٠ / ٦، ١١١ / ٤، ١٢٠ / ١، ١٢٦ / ٣، ١٤١ / ٢، ١٤٩ / ١، ١٦٠ / ٤، ١٩١ / ٢، ١٩٨ / ١، ٢٠٣ / ٢، ٢١٢ / ٢ .

وَلَقَدْ ظَفِرْتُ من الحياةِ بِصَفْوِها
وبَلَغْتُ آمَالي بلاَ تَحْدِيدِ
إلاَّ هَوَاكِ وقَدْ عَرَفْتُ عَصِيَّهُ
وجَمُوحَهُ أَعْيَا عَلَى مَجْهُودِي
أَرَى في النَّواظِرِ سِرَّهُ ودَفِيْنَهُ
والفِعْلُ يُقْصِيني عنِ المقصُودِ
ذَاكَ القِنَاعُ ألا خَلَعْتِ صَفِيقَهُ
وتَرَكْتِ بَعْضَ طبَائعِ الجُلْمُودِ
وخَرَجْتِ للدُّنْيا بِوَجْهٍ سافرٍ
وغَلِيلِ ظَامِئَةٍ إِلَى المَوْرُودِ

فَفي البيتِ الرَّابع من هذه الأبيات نرى الشَّاعرَ قد اتَّكأ على اللُّغة مِنْ خلالِ الجُمْلة الاسميَّة الخبريَّة المُثبتة (ذاكَ القناعُ)، مُتَّخذَةً نَمَطَ (المُبتدأ المعرفة "اسم إشارة" + الخبر المعرفة)، ومِنْ خلالها يتَّضحُ أنَّ الشَّاعرَ قد أشارَ باسْمِ الإشارةِ (ذاك) مُجرَّدًا من اللَّامِ الدَّالَّة على البُعْد، مُحيلاً إحالةً داخليّةً قبليّةً على (القناع) المفهومِ من فَحْوى الكلامِ السَّابقِ، فيما سبق هذه الجُمْلَة مِنْ حديث، أي أنَ الشَّاعرَ يُخاطِبُ مَنْ يخاطبُها في قصيدة (قناع) مُشيراً إلى أنَّه قدْ بلغَ مِنْ الحياةِ مُرادَه وآمالَه، مُستثنيًا مِنْ ذلك هَواها، فقَدْ استنفذَ مجهودَه؛ بسبب كَوْنها عَصيَّةً جَمُوحةً، فعلى الرَّغمِ مِنْ رؤيته سرَّ هذا الهوى ودفيْنَه، فإنَّ فعْلَها يُبعدُه عن قَصْده؛ ومن ثَمَّ فإنَّ كلَّ ذلك قِنَاعٌ(١)، أي كلُّ مَا سبق قِناعٌ، لا يمتُّ إلى الحقيقة؛ ومِنْ ثَمَّ فالنتيجةُ حَتْمًا إيَّاهَا على خَلْعِه، والخروجِ إلى الدُّنيا بوجهٍ مكشُوفٍ، يُرافقُه

(١) ذلك القناع الذي يُمثّل رمزًا لدى الشَّاعر فيما وراء الأمور؛ ولذلك انْظر إلى قوله مثلاً ١٩٠/ ٥ من البسيط:

أَوَجْهُهَا أَمْ قِنَاعٌ رَامَ لابِسُهُ غَزْوَ القُلُوبِ بِأَوْضَاعٍ تَبَنَّاهَا؟

اشتياقُ الظامئ إلى مكانِ وورد الماء؛ ومنْ ثَمَّ أسْهَم اسْمُ الإشارةِ في التَّرابُطِ بين أجزاءِ النَّصِّ، مِنْ خلالِ إحالته على مَا تقدَّمَ بين القُرْبِ والبُعْد.

تِلْكَ الإحالةُ التي مِنْ خلالِها أُخذَ المُتلقي إلى عالَمِ الإبهامِ في اسمِ الإشارةِ (ذاك) باحِثًا عمَّا يُحيلُ عليه، فإذا به لم يلبَثْ أنْ يزولَ ذلك الإبهامُ، بالوصول إلى المُحالِ عليه (القِنَاع) الذي فسَّرَ كُنْهَ هذا الإبهامِ، وأشْبَعَ رَغْبَةَ التَّشوقِ لدى المُتلقي، مُحْدِثًا وَقْعًا في النفوس وتأكيداً، مِنْ جرَّاءِ ذِكْرِ الشَّيءِ مرَّتَين، مرَّةً حالةَ كَوْنِه مُبْهمًا، وأُخرى مُفَسَّرًا، وهو ما لا يجدُه المُتلقي في ذِكْرِ الشَّيءِ مرةً واحدةً.

المطلبُ الثَّالثُ: الإحالَةُ البُعْدى:

تكون هذه الإحالَةُ باستخدام (ذلك) وفروعِه، حيث يُشَارُ إلى مَنْ في البُعْدَى بما فيه كافٌ ولامٌ، على نَحْوِ مَا سبقَ في تمهيدِ هذا المَبْحَث، إحالةً خارجيَّةً أو داخليَّةً، فمثالُ الخارجيّةِ مَا وردَ في قولِ الشَّاعر(١): (من الكامل)

وَقْفٌ عَليها الحُبُّ تَنْظِمُ عِقْدَنَا
رَكْبًا تَوَحَّدَ خُطْوةً وخواطِرَا
تَفْدِي العُيونُ جَبِينَها ولَو أنَّها
تُبْدِي لَنَا دَلاً وَطَبْعًا نَافِرًا
تُشْقِي النُّفُوسَ بِحُبِّها وعَزِيْزةٌ
تِلْكَ التي تُشْقِي وتَحْجُبُ سَاحِرَا

فهذه الأبياتُ مِنْ قصيدةِ (وقْفٌ عليها الحبُّ)، تسبقُها أربعةُ أبياتٍ، تناولناها صدد الحديث عن الإحالَةِ الخارجيَّةِ بالضَّميرِ، في قوله (وَقْفٌ عليها الحبُّ) في

(١) ديوان خليفة التِّلّيسيّ ١٨ –١٩ / ٥، ١–٢، ويُنْظَر: ١٩ / ٢، ٢٢ / ٥، ٢٥ / ٢، ٢٧ / ٣، ٣٥ / ٤، ٤٧ / ٣، ٦٢ / ٣، ٧٣ / ١، ٨١ / ١، ٨٣ / ٢، ٨٦ / ٤، ٨٨ / ٢، ٩٢ / ٨، ٩٤ / ١٢، ١٦٣ / ٢ – ٤، ١٧٥ / ٤، ١٩٢ / ١، ٢٠٨ / ٢، ٢٥٥ / ١، وقد جاءت الإحالَة الظَّرفية باستخدام (ثَمَّ، وهنالك) أيضًا: يُنْظَر ديوانه ٧٣ / ٥، ١٢٣ / ١، ١٦٣ / ٢، ٢٦٤ / ٢.

بداية القصيدة، ثُمَّ تأتي هذه الأبياتُ مُكرّرًا في الأوّل منها جُمْلَةَ (وَقْفٌ عليها الحبُّ)، ولم يكتفِ بالإحالَة بضمير الغائب، بلْ لجأ في البيت الثّالث من هذه الأبياتِ إلى الإحالَةِ الخارجيَّة باستخدامِ اسْمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعْد(تلك)، في إحالةٍ منه على الوطنِ الكبيرِ (ليبيا)، منْ خلال بنْيَة اللُّغة المُتمثِّلَة في الجُمْلَةِ الاسميَّةِ المُخبَرِ بها عن (عزيزَة)، إنَّها الجُمْلَةُ الاسميَّة الخبريَّةُ المُثبتَةُ (تلْكَ التي تُشْقي وتَحْجُبُ سَاحِرًا)، المُتَّخذَةُ نَمطَ (المُبتدأ "اسم إشارة للبعيد" + خَبَر "اسم موصول مُختَص" + جُمَلَة الصِّلة "جُمْلَة فعلية "فعل + فاعل" + جملة فعلية معطوفة).

لكنَّ الإشارة إلى البعيدِ هُنا لا يُفْهَمُ منها أنَّ الوطنَ بعيدٌ عنه، بل إنَّها تدلُّ على عُلُو مَنزلةِ هذا الوطنِ بالنِّسبَةِ للشَّاعِرِ، فتلك (ليبيا) التي تفديها العيونُ - على حدِّ قولِ الشَّاعرِ - مَهْمَا بدا منها، لدرجة أنَّ النُّفوسَ تَشْقَى بحبِّها؛ ومن ثَمَّ كان إسهامُ اسْمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البعيدِ لَفظًا في تَرابُطِ النَّصِّ، كغيره من وسائل التَّرابُطِ، فترابطَ سابقُه بلاحقه.

ولَمَّا كان الحديثُ وليدَ المُلاحظَةِ، فإنَّه ممَّا يلفتُ النَّظَرَ أنَّ تلْكَ الإحالةَ قد أُرْدِفَتْ بأُخرى، اسْتُخدِمَ فيها الاسْمُ الموصولُ (التي)، ذلك الذي يُحيلُ إحالةً داخليَّةً بَعْديَّةً على الشَّاقيَةِ الحاجِبَةِ، المُسْتفادَةِ مِنْ الفِعلَيْنِ (تُشْقِي، وتَحْجِبُ) المُتنازِعَينِ على المفعولِ (ساحِرًا)؛ وذلك من أجْلِ تأكيدِ الدَّلالة على أنَّ المُشار إليها باسْمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البعيدِ، ليسَتْ بعيدَةً، وللتَّدليل على قُرْبِها، فإنَّها تُشْقي كُلَّ ساحرٍ، وتَحجبُه عن رؤيةِ غيرِها.

وهو ما يجعلُنا نُقرُّ بأنَّ في كلِّ ما تقدَّمَ إعلانًا عن إسْهامِ الإحالةِ في التَّرابُطِ النَّصيِّ؛ ومنْ ثَمَّ فإنَّ في استخدامها إبداعًا لا يستطيعُ إدراكَهُ إلا مَنْ خَبَرَ اللُّغةَ ودروبَها ودورَها؛ ومنْ ثَمَّ لا يُنْكرُ دَوْرَ الإحالةِ.

ولَئِنْ كان فيما سبقَ ما يدلِّلُ على الإحالَةِ الخارجيَّة باستخدامِ اسْمِ الإشارةِ الدَّالِّ

على البُعْدِ، فإنَّ فيما يلي مَا يدلُّ على استخدامه دالاً على البعيدِ في الإحالَةِ الدَّاخليَّةِ، القَبْليَّةِ منها والبَعْديَّةِ، فمن الإحالَةِ الدَّاخليَّةِ القَبْليَّةِ قولُه: (من مجزوء الكامل)

أَنستَ لَهُ وهيَ الأَبيَّة وفَضَّلتْهُ على البَقيَّه
لَمْ يَنْصبْ الأَشْرَاكَ، مَا أَبْدَى لَهَا صِفَةَ الهُويَّهْ
فَأَثَارَ ذَلكَ غَيْظَهُمْ وتَنَافَسُوا في الأَسْبَقيَّه
وتَسَابَقُوا فِي صَرْفِ نَظْرَتِهَا بِلا أَدْنَى تَقيَّه

فهذه الأبياتُ من قصيدةِ (الرَّبيع والخريف) المنسُوجَةِ على منوالِ مجزوء الكاملِ ذي الضَّرْبِ المُرفَّلِ، بزيادةِ سببٍ خفيفٍ على ما آخرُه وتدٌ مجموعٌ، وفيها نُلاحظُ بداية الشَّاعرِ بالإحالَةِ الخارجيَّةِ، باستخدام الضَّميرِ المُستترِ في الفعلِ (أَنستَ)، ممَّا يدلُّ على أنَّها أُنْثَى، وكذلك الإحالَة في (له) بضميرِ الغائب. لكنَّها على الرَّغم من أنْسِها، فهي أَبيَّةٌ قد فضَّلَتْهُ على بقيَّةِ الرِّجالِ، وما ذلك بسبب أنَّه نَصَبَ لها الشِّراك، وبَذَل في سبيلِها كلَّ غالٍ ونفيسٍ، فَمَا أظهرَ لها رغبةً؛ ومِنْ ثَم تطلَّبَ ذلك بِنْيَةً لُغويَّةً في صورة الجُملةِ الفعليَّةِ الخبريَّةِ المُثبَتَةِ (فَأَثَارَ ذَلكَ غَيْظَهُمْ) المُتَّخذَةِ نَمَطَ (الفعل + الفاعل "اسم إشارة للبعيد (ذلك) + مفعول + مُضاف إليه).

ومن خلالها يتَّضحُ استخدام الشَّاعرِ اسْمَ الإشارةِ للبعيد (ذلك) مُحيلاً به إحالةً داخليَّةً على مَا تقدَّم مِنْ فحوى الكلامِ، فأفادَ أنَّ مَا تقدَّمَ نتيجتُه غيْظُ بقيَّةِ الرِّجالِ، وهو ما ترتَّبَ عليه أنَّهم تنافسوا فيما بينهم، وتسابقوا؛ مِنْ أجْلِ صَرْفِ نَظْرَتِها إلى كلٍّ منهم، غيرَ متورِّعين، فلا تقوى ولا احتشَامَ لديهم؛ ومِنْ ثَمَّ كان اسْمُ الإشارةِ مُسْهِمًا في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ في الأبيات، أي أنَّه كان رابطًا بين السَّببِ والنَّتيجة[1].

(١) يُنْظَر في ذلك: دراسات لغوية تطبيقية، ص ١٥٣ – ١٥٤ حيثُ تناوُل الدكتور سعيد بحيري الإحالة باسْمِ الإشارة (ذلك) في القرآن الكريم.

ليس ذلك فحسْبُ، بل إنَّ الإحالةَ هنا قد أوجدتْ نوعًا من عدمِ رتابةِ الأسلوبِ، بتحقيقها مبدأ الاقتصادِ فيما تقدَّمَ منْ معلوماتٍ على موضعا، بجانبِ تكثيفِ الدَّلالةِ، وتحقيقِ مبدأ الدِّقةِ الدَّلاليةِ، حيثُ يشيرُ اللَّفظُ الكنائيٌّ إلى ذاتٍ أو معنًى أو شيءٍ سابقٍ دون تكرارِه(١).

أمَّا عن استخدامِ اسْمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البعيد في الإحالةِ الدَّاخليَّةِ البَعْدِيَّةِ - فقد سبق قول الشَّاعر:

قُلْ فتِّشُوا قَلْبِي فَفِي أَعْمَاقِه
حُبٌّ يَعُمُّ أَبَاعِداً وَأَقَارِبَا

وذلك صددَ الحديثِ عن توظيفِ الضَّميرِ المُستترِ في الإحالَةِ الخارجيَّةِ، ووصلاً به نُدرج قوله بعد هذا القولِ(٢): (من الكامل)

أَوْ فَتِّشُوا فِكْرِي فَفِي وَمَضَاتِه
نُورٌ يُضِيءُ مَعَ المُرُوجِ سَبَاسِبَا
أَوْ فَتِّشُوا نَبْضَ العُرُوقِ فَإِنَّها
هَتَفَتْ بِكُمْ هِمَمًا وجِيلاً واثِبَا
أَوْ أُطْعِمُ الوَطَنَ الكَبِيْرَ حُشَاشَتِي
وأُعَانِقُ الأَحْرَارَ فِيهِ مَوَاكِبَا
وَيَجِيئُ يَسْأَلُنِي الَّذينَ وَهَبْتُهُم
نُورَ العُيُونِ مَقَاصِداً وَمَآرِبَا؟
فَلِمَنْ إِذَنْ تِلْكَ السِّنُونُ تَصَرَّمَتْ
ولِمَنْ أَقُومُ اللَّيلَ شَبْحًا رَاهِبَا

(١) يُنْظَر: الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي، ص ٥٢٥ .

(٢) السَّابق ٣٤ – ٣٥ / ٦، ١– ٤ .

وهو ما يتَّضحُ مِنْ خلاله استمرارُ ضَجَرِ الشَّاعرِ مُواصلاً إحالتَه الدَّاخليَّةَ - بجانب الخارجيَّةِ في (قُلْ) - مِنْ خلالِ الضَّميرِ في (يُضيءُ - فإنَّها - فيه)، حيث إنَّ هؤلاء الَّذينَ يتضجَّرُ منهم يسألونَه مقاصداً ومآربًا، وقَدْ أفنَى عُمرَه في سبيلِهم. فخدمةُ الوطنِ خِدْمَةٌ لأبنائه، ثُمَّ يستفهمُ مُستنكرًا: فلِمَن تِلْكَ السِّنُونُ التي انقَضَتْ مِنْ عُمْرِه؟ ولِمَنْ سَهَرُ اللَّيالي؟ فكأنَّه مِنْ كثرةِ سَهرِه قَدْ تحوَّلَ إلى شَبَحٍ أو رَاهبٍ، وذلك مِنْ خلالِ اسْمِ الإشارةِ للبعيدِ (تِلْك) مُحيلاً به إحالةً داخليَّةً بعديَّةً على كلمة السنين؛ لكي يتَّضحَ مَا فيه من إبهامٍ، مُنبِّهًا بذلك على عِظَمِ هذه السنين وقَدْرِها عند الشَّاعرِ، ممَّا أسْهَم في ترابُطِ ما قبل اسْمِ الإشارةِ بما بعدَهُ؛ ومِنْ ثَمَّ تحقَّقَتْ الاسْتِمْراريَّةُ الدَّلاليَّةُ في النَّصِّ؛ فكان النَّصُّ مُفيداً، وهنا يحضرُني قولُ الدكتور صلاح الدين حسنين: "تعودُ إفادةُ النَّصِّ معنًى مَّا إلى استمراريةِ المعاني المقصُودةِ في إطارِ المعرفةِ التي تستثيرُها تعبيراتُ النَّصِّ. والنَّصُّ الذي لا معنى له أو معانيه غيرُ معقولةٍ هو النَّصُّ الذي يعجزُ مُسْتقبلوه عن اكتشافِ هذه الاستمراريةِ منه. ويعودُ هذا إلى وجودِ خللٍ كبيرٍ في المزاوجةِ بين تشكيلةِ المفاهيمِ والعلاقاتِ التي يعبِّرُ عنها النَّصُّ مِنْ ناحيةٍ وبين المعرفةِ القَبْليَّةِ للعالَم في أذهانِ المُستقبلين من ناحيةٍ أُخرى. إنَّ استمراريةَ المعاني المقصودةِ في النَّصِّ هي أساسٌ للاتِّساقِ، ويتألَّفُ عالمُ النَّصِّ من التَّشكيلةِ التي يستندُ إليها النَّصُّ من المفاهيم والعلاقاتِ المُلائمة"(١).

(١) الدلالة والنَّحْو، ص ٢٧٣ – ٢٧٤، ويُنْظَر: دراسات لغوية تطبيقية، د.سعيد بحيري ص ١٥٧، ١٦٠، ١٦٣.

المبحث الرَّابع

الإحالَةُ بـ (أل) غَيْرِ الموصولةِ ودَورُها في التَّرابُطِ النَّصِّيّ

تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ ثَمَّةَ اتفاقًا بين النُّحاةِ على أنَّ هذه الأداةَ حرفُ تعريفٍ(١)، على الرَّغمِ مِنْ اختلافِهم، هل هو (أل) أو (اللام) وحدَها، أو (الألف واللام)، على نَحْو ما وُجِدَ عند سيبويه والخليل. ومِن المعلومِ أنَّه لَمَّا كانت (أل) تنقلُ الاسمَ من معنى الشُّيوعِ إلى معنى التَّعيينِ، فقد قُسِّمَتْ إلى عهديَّةٍ وجِنْسيَّةٍ ومَوصُولةٍ(٢)، ولَمَّا كانت (الموصولة) سبق العرضُ لها في مبحث الإحالة بالموصول، فإنَّ الحديث هُنا سيقتصر على العهديَّة والجنسيَّة.

ولعلَّه من المُناسب أنْ نذكر أنَّ روبرت دي بوجراند قدْ جعلَ التَّعريفَ من دواعي الكفاءةِ النَّصِّيَّة، بجانبِ إعادةِ اللَّفظِ، والإحالَةِ، والحذفِ، والرَّبْطِ الرَّصْفيِّ(٣)، وهو الأمرُ الذي يجعلُنا نقولُ: إنَّ المُتمعِّنَ في النصوصِ الإبداعيَّةِ العربيَّةِ، شعرِها ونثرِها، يلْحظُ من أهمية (أل) في ترابُطِ النَّصِّ ما يجعلُه يقرُّ بأنَّها بأنواعها مَلْمَحٌ

(١) يُنْظَر: شرح المُفَصَّل، ابن يعيش ٣ / ١٤٤؛ ولذلك تُعَرَّف بأنها "الحرف المقابل للاسم والفعل": كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي التهانوي (ت ١١١٩هـ)، بتصحيح المولوي محمد وجه وآخرين، كلكته، الهند، ١٨٦٣م، ١ / ١٠٠، ويُنْظَر: شرح التَّصريح على التوضيح، للشيخ خالد الأزهري، تحقيق محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطَّبْعَة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م، ١٨٠/١ - ١٨٢.

(٢) يُنْظَر: الكتاب، سيبويه ٢٠٤/١، ٣٢٤/٣ -٣٢٥، ٢٦٩، ١٤٧/٤ -١٤٨، ٢٢٦، والمُقتضب، للمُبَرِّد ١ / ٨٣، واللامات، الزجاجي، أبو القاسم (ت٣٣٧هـ)، تحقيق د. مازن المبارك، دار الفكر - دمشق، الطَّبْعَة الثَّانية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ٣٦ - ٤٦، والتَّعريف والتَّنكير بين الدَّلالة والشَّكل، د. محمود نحلة ص ٩٨ - ١٠٩، واللامات "دراسة نَحْويَّة شاملة في ضوء القراءات القرآنية، د. عبد الهادي الفضلي، دار القلم، بيروت، لبنان، الطَّبْعَة الأولى، ١٩٨٠م، ص ٢٧ - ٣٧، ومقالات في اللُّغَة والأدب، د. تمام حسان ١ / ٢٠٢.

(٣) يُنْظَر: النَّصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند ص ٣١ وما بعدها، ويُنْظَر به أيضًا ص ٣١٠، وكذلك: Cohesion in English , pp57-60. وبلاغة الخطاب وعلْم النَّصِّ، د.صلاح فضل ص ٢٤٤، والاتِّساقُ في العَربيَّة، جبار سويس ص ٤٧، والعلاماتيَّة وعِلْم النَّصِّ، إعداد وترجمة د.منذر عياشي، ص ١٥٨.

من ملامحِ الإحالةِ في تلك النُّصوصِ، بناءً على ما يُرادُ لها من قَصْدِيَّةٍ من جانبِ الباثِّ أو المُرْسِل، ومقبوليةٍ من جانبِ المُتلقِّي، وفيما يلي تمثيلٌ لإسهامِ كلٍّ منها في ترابُطِ شِعرِ خليفة التِّلِّيسِيّ:

المطلب الأوَّل: أل العهدية:

تكونُ (أل) عهديَّةً إذا تقدَّمَ ذِكْرُها بين المُخاطِب والمُتَلَقِّي، فإذا قلنا: جاءني ضيفٌ، فإنَّ كلمةَ (ضيف) نكرةٌ، أمَّا إذا أدخلنا عليها الألفَ واللامَ صارتْ معرفةً معهودةً(١)، قال الزجاجيُّ: "واعلَمْ أنَّ هذه الألفَ واللَّامَ التي للتَّعريفِ قد تدخلُ في الكلامِ على ضروبٍ: فمنها أنْ تُعرِّفَ الاسْمَ على معنى العهد كقولك: جاءني الرَّجلُ، فإنَّ مَا تخاطبُ بهذا مَنْ بينَكَ وبينَه عهدٌ برجلٍ تشيرُ إليه لولا ذلك لم تقُلْ: جاءني الرَّجلُ، ولَكُنْتَ تقولُ جاءني رجُلٌ، وكذلك قولُك: مرَّ بي الغلامُ وركبتُ الفرسَ، واشتريتُ الثَّوبَ وما أشبه ذلك إنَّما صارَ معرفةً لإشارتكَ بهذه الألفِ واللَّامِ إلى العهْدِ الذي بينك وبين مخاطبكَ فيما دخَلَتْ عليه هذه الألفُ واللامُ"(٢)، وقد قُسِّمَتْ إلى العهد الذِّكريِّ، والعهد الذِّهْنيِّ، والعهْدِ الحضُوريِّ(٣)، وهو ما سيُبْنى عليه تناولُ (أل) العهديَّةِ عند التِّلِّيسِيّ:

أ- العهد الذِّكريّ:

إنَّ النَّاظرَ في ديوانِ التِّلِّيسِيّ سيجدُ أنَّه قليلاً مَّا يخلُو بيتٌ فيه من (أل)، وفيمَا نحن بصدده نشيرُ إلى أنَّ العهديَّةَ عهداً ذكريًّا هي مَا تقدَّمَ لمصحوبها ذكرٌ، نَحْو

(١) يُنْظَر: المقتضب، للمُبَرِّد ١ / ٨٣.

(٢) اللامات، للزجاجي، ص ٣٨.

(٣) يُنْظَر: شرح التَّصريح على التَّوضيح، خالد الأزهري ١ / ١٨١ - ١٨٢، والتَّعريف والتَّنكير بين الشَّكل والدَّلالة ص ٨٩ وما بعدها حيثُ حديثُ الدكتور محمود نحلة عن الإشارةِ إلى الخارجِ في التَّعريف وعرْضِهِ رأي الرَّضِيِّ في شرحه على الكافية، وشرح الرَّضِيِّ على الكافية ٢ / ٢٩٨، ٣ / ٢٣٥، ٢٧٩، ذلك الرَّأي الذي يرى أنَّ الألفَ واللامَ للتعريف اللَّفظيِّ لا الدَّلاليِّ، والإحالَة ودورها في دلالة النَّصِّ وتماسكه، د. محمد يونس ص ١٨٦ - ١٨٧.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً**﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]، وذلك نَحْوُ قولِ الشَّاعرِ(١): (من الكامل)

لاَ يَمْلِكُ الدَّوْحَ العَظِيمَ ظِلاَلَهُ

قَدَرُ المَواهبِ أنْ تَفِيْضَ مَشَارِبَا

فالنَّاظرُ في هذا البيتِ يجدُ أنَّ قولَه: (قَدَرُ المَواهبِ أنْ تَفِيْض مَشَارِبَا) جُملةٌ اسميَّةٌ خبريَّةٌ مثبتةٌ، مُتَّخِذَةً نَمَطَ: (المُبتدأ + المُضاف إليه المُعرَّف بأل + الخبر "مصدر مُؤوَّل")، ومن خلاله يُلاحَظُ مَجيء المبتدأُ نكرةً؛ لأنَّه مُضافٌ إلى المعرفة (المواهب)، وجاء الخبرُ مصدراً مؤوَّلاً مِنْ أنْ ومَا بعدها، تلك المعرفةُ (المواهب) مَا كان للشاعرِ أنْ يُعرِّفَ المُتَلَقِّي بها مُستخدمًا (أل) العهديَّةَ عهداً ذِكْرِيًّا إلاَّ من منطلق ذِكْرِه لها فيمَا سبقَ على مدارِ القصيدةِ، وذلك في أوَّلِ بيتٍ منها، قبل هذا البيتِ بثمانيةِ أبياتٍ، حيثُ قولُه في أوَّلِها:

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُهُ يَصُونُ مَوَاهِبَا

فَرَأَيْتُهُ لِلنَّابِغِينَ مُحَارِبَا

وَطَنٌ رَضَعْنَا حُبَّهُ فَأَثَابَنَا

عَنْ حُبِّه أَلَمًا وهَمًّا وَاصِبَا

وهو ما يتَّضحُ من خلاله مدى مَا أحدَثَه حرْفُ التَّعريفِ (أل) مِنْ ترابطٍ أو تماسكٍ على مدارِ الأبياتِ، من خلالِ تَعريفِ المواهبِ تَعريفًا بألْ العهديَّةِ عَهْدًا ذِكريًّا؛ وذلك أيضًا لتنبيه المُتَلَقِّي على أنَّ (المواهبَ) المُعرَّفةَ بألْ هي (المواهبُ) المذكورةُ في بدايةِ القصيدةِ، إذْ لو جِيءَ بها مُنكَّرةً لَتُوهِّمَ أنَّها غيرُ (المواهبِ)

(١) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ٢٩ / ٥، ٤٤ / ٢.

الأوَّلى(١)، أَضِفْ إلى ذلك أنَّه أرادَ أنْ يُركِّزَ على ما يُعانيه أصحابُ المواهبِ مِنْ همٍّ وألَمٍ واصِبْ، مِنْ خِلالِ التَّعريف، مُشبِّهًا المواهبَ بالنَّهرِ إشارةً إلى الفَيضانِ، في إطارِ هذه الاستعارةِ المَكْنيَّةِ التي حُذِفَ فيها المُشبَّه به (النهر)(٢)؛ ومن ثَمَّ فعلى المُتَلَقِّي أنْ يبحثَ عنْ سَبْقِ ذِكْرِ هذه الكلمة، مع إمعانِ نَظَرِه فيمَا بينهما من معانٍ بثَّها الشَّاعرُ في أبياته، أَضِفْ إلى ذلك أنَّ هذا التَّعريفَ قد خَدَمَ المعنى النَّصِّيَّ في اتِّجاهٍ آخرَ، وهو الحفاظُ على وَزْنِ الكاملِ، وما ذلك ببعيدٍ عن الشَّاعر ونَصِّه، فالوزن والقافية جزءٌ من إنتاج المعنى النَّصِّيِّ.

وهنا يحضُرُني قولُ القائلِ: إنَّ التِّلِّيسِيّ "كان صادقًا مع نفسه في انتقائه اللَّحظَةَ الشِّعريَّةَ التي يعبِّر عنها، وفي التفاته إلى الأعماقِ الوجدانيةِ الدفينةِ التي عبَّر عنها، وبرهَنَ في الوقتِ نفسه على أنَّ الشِّعرَ ليس خيالاً وموقفًا ووِجْدَانًا وعاطفةً فحَسْبُ، بلْ هو - إلى جانبِ هذا كلِّه - صياغةٌ فنيَّةٌ جميلةٌ، تستجيبُ للقوانينَ الدقيقةِ التي ورثناها جيلاً عن جيْلٍ عَبْرَ مئاتِ السِّنين، وهي قوانينُ الموسيقى الشِّعريَّةِ ورَصْفُ المفرداتِ الشِّعريَّةِ والالتزامُ الدقيقُ بالوزنِ والقافيةِ، وهو ما لا يستطيعُهُ إلاَّ كلُّ شاعرٍ موهوبٍ، وقد كان خليفة محمد التِّلِّيسِيّ ذلك الشَّاعر"(٣).

(١) يُنْظَر: شرح التَّصريح على التَّوضيح ١٨١/١ -١٨٢، ومعاني النَّحْو، د.فاضل السامرائي ١/ ١٠٦، والتَّعريف والتَّنكير بين الدَّلالة والشَّكل ص١١٦ - ١١٧، وقراءة نَحْوية نصِّية في سورة ص، د. عرفة عبدالمقصود عامر، ص ٧٦٠ .

(٢) يُنْظَر: الصُّورة الاستعارية في شعر التِّلِّيسِيّ، د. عبد الإله الصائغ، مجلة الفصول الأربعة، رابطة الأدباء والكتاب بليبيا، العدد ٦٦، ١٩٩٢ م، ص ١٠٧، وفيها يرى أيضًا - وهو ما أوافقه عليه - أنَّ بالبيت موضع التَّحليل استعارتين تمثيليتين، حين ارتقى إلى توليف مثلين جديدين، فالشَّجرة السامقة الأثيلة لا تحتكرُ ظلها (هي كنايةٌ عن البَذْل دون مقابل)، زِدْ على ذلك أنَّ المواهبَ تفيضُ، ولا تأسَى على فعْلها، إذا وَرَدَها القاصي القبيحُ أو الدَّاني المليحُ؛ لأنَّ الفيضَ قدرُها الذي لا مفرَّ لها عنه .

(٣) خليفة محمد التِّلِّيسِيّ ناقدًا وأديبًا، مصطفى محمد جحيدر، ص ٢٠٨ .

ب- العهدُ الذِّهنيُّ :

تكونُ (أل) للعَهْدِ الذِّهْنيِّ أو العِلْميِّ، إذا كان مَا دَخلتْ عليه مَعْلُومًا عند المُخاطَبِ، ومعروفًا لديه مَعْرِفةً ذهْنِيَةً، كأنْ تقولَ لِمَنْ طلَبْتَ منه اقْتِراضَ مَبْلغٍ من المالِ : لقد وصَلنِي المبلغُ، وفيمَا نحن بصدَدِه نُشيرُ إلى قولِ التِّلِّيسيّ[1] : (من البسيط)

أَعْطانِي الرَّوْضُ مِنْ شَتَّى نَفائِسه
كُلُّ المَواسِمِ جَادَت لِي بِغالِيها
سأشْكرُ الرَّوْضةَ السَّمْحاءَ مَا مَنَحَت
وَأَسْتَزِيدُ مِنَ النَّعْماءِ سَامِيها
لا تَحْزَنِي إنْ بَدَتْ بالجُود مُقْفِرَةً
غَوادقُ الغَيْثِ بالخَيْرَاتِ تُوليها

فوصلاً بما سَبَق ذِكْرُه مِنْ أبياتٍ في الحديث عن الإحالَة الدَّاخليَّة إحالةً قَبْليَّةً بالضَّمائرِ تأتي هذه الأبياتُ التي معنا، مِنْ قصيدةِ (النَّخلة الكريمة)، وفيها نرى الشَّاعرَ يقول : (أعْطانِي الرَّوضُ منْ شَتَّى نَفائِسه)، وهي جُملةٌ فِعْليةٌ خبريَّةٌ ذاتُ فِعْلٍ مُتعدٍّ، مُتَّخذَةً نَمَطَ (الفعْل + المفعول به + الفاعل + الجار والمجرور + المُضاف إليه المُتكرِّر)، ومِنْ خلالها يتَّضح أنَّ الفاعلَ (الرَّوض) مُعرَّفٌ بأل تعريفًا عَهْديًّا، لكنْ مَا حقيقةُ هذا التَّعريفِ العهديِّ؟

بالنَّظرِ فيمَا تقدَّمَ مِنْ أبياتٍ، أُشيرَ إلى مكانِها مِنْ هذا البحث تبيَّن أنَّ ثَمَّةَ معرفةً لدى المُتَلَقِّي بذلكَ الرَّوضِ المُضافِ إلى الضَّميرِ المُحيلِ على النَّخلةِ إحالةً

(١) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ٣٩ / ١، ويُنْظَر به أيضًا :٢٤ / ٥، ٢٦ / ٢، ٢٧ / ٣، ٤، ٥، ٢٨ / ١، ٢٩ / ٢، ٣٣ / ٦، ٤١ / ٣، ٤، ٤٥ / ٣، ٥٦ / ٥، ٨٣ / ٦، ٩٢ / ١، ٩٨ / ٣، ٥، ١٠٢ / ٣، ١١٧ / ٣، ١٨١ / ٤، ٢١٠ / ٦، ٢٥٦ / ٢، ٣، ٢٦٢ / ٤، ويُنْظَر :ديوان زهير بن أبي سلمى ٩٨ / ١، ١٦٦، ١، ١٩٧ / ١.

خارجيَّةً، فكان مُعَرَّفًا بالإضافةِ إلى الضَّميرِ، وذلك في كَلمةِ (رَوْضَكِ) مِنْ قولِهِ(١):

مَا جِئْتُ رَوْضَكِ مُجْتاحًا يُنازعُني
شَوْقٌ إلى زهرةٍ قد عزَّ جَانيها
بَلْ جِئْتُهُ أَتَمَلَّى صُنْعَ خالقِه
والنَّفْسُ يُقْنِعُهَا إعْجازُ باريهَا

وهو مَا يتبيَّن مِنْ خلالِه أنَّ الشَّاعرَ أرادَ أنْ يُلفتَ انتبَاه المُتلَقِّي إلى أنَّ ثَمّة ترابُطًا بين أبياتِ القصيدةِ مِنْ خلالِ هذا التَّعريفِ الذي كان مُحيلًا على كلمةِ (رَوْضَكِ) إحالةً داخليَّةً قبليَّةً، باستخدامِ العَهْدِ الذِّهنيِّ أو العِلْميِّ، مُشيرًا إلى أنَّ هذا الرَّوضَ المُتحدَّث عنه فيمَا سبقَ قدْ أجْزَلَ له العطاءَ، فلَمْ يَبْخَلْ عليه بالنفيسِ، في أيِّ وَقْتٍ؛ ومِنْ ثَمَّ سَيَشْكُرُ الرَّوضةَ على مَا مَنَحَتْه، وعلى الرَّغمِ مِنْ ذلك سيطلُبُ المَزيدَ، وذلك في إطارِ استخدامِ الشَّاعرِ اللُّغةَ الرَّمزيَّةَ في شِعْرِه - في رأينا - وهو مَا تؤيِّدُه إشارةُ الدكتور عبد الإله الصائغ إلى أنَّ ثَمَّةَ استعارةً تصريحيَّةً بالبيت، مُفَادُها أنَّه شبَّه الجمالَ - وهو المحذوفُ - بالرَّوضِ، إشارةً إلى مُعْطَى الغبْطَة، كمَا شبَّه أسبابَ البهجَةِ بالمواسمِ، إشارةً إلى مُعْطَى الاثنين معًا، وهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ أيضًا(٢).

ج - العَهْدُ الحضوريُّ :

تكونُ (أل) للعَهْدِ الحضوريِّ إذا كان مَا دخلَتْ عليه حَاضرًا أو مُشاهَدًا وقْتَ الكلامِ، بين المخاطِبِ والمُتلَقِّي، كقولِكَ لِمَنْ تُخَاطبُه : اليومَ سيُعقَدُ اجتماعُ مَجْلسِ الكُليَّةِ، وهو مَا يستلزمُ تسليمَ مَحْضَرِ مَجْلسِ قِسْمِنا إلى العَميد، فَخُذْ المَحْضَر،

(١) السَّابق ٣٨ / ١ .

(٢) يُنْظَر: الصُّورة الاستعارية في شعر التِّلِّيسيّ، د.عبد الإله الصَّائغ، ص١١٠ .

وأَعْطِه إيَّاه. ولئن كان ذلك كذلك، فانظر إلى الشَّاعر، وهو يتحدَّثُ عن الديارِ (ليبيا)، في رائعته (وقفٌ عليها الحُبُّ)، إذْ يقول[1]: (من الكامل)

تِـلْكَ المـعَـارِكُ مَـا تـزالُ شَـهَـادَةً
مِنْ أمْـسِـهـا والأَمْسُ يَـخْـلُقُ حـاضِـرَا
لا أُفْقَ بـعـدَ الـيَـومِ غَـيْـرُ جَـبِـيْـنِـهَـا
رَسَـمَتْ بِهِ الأَقْـدَارُ نَـصْـرًا بَـاهِـرَا

فالشَّاعرُ يُشيرُ ـ على نَحْو ما سبق بالبحث ـ إشارةً داخليَّةً بَعْديَّةً باسْمِ الإشَارةِ (تلك) إلى المعارك التي خاضَتْهَا ليبيا؛ مِنْ أَجْلِ تَحريرِ أرْضِها، فهي مَا تزالُ شَاهِدةً، ثُمَّ ذيَّلَ ذلك بأنَّ الماضي يخلقُ الحاضِرَ؛ ومِنْ ثَمَّ فإنَّ الشَّاعرَ لا هَمَّ له بعْدَ اليومِ الحاضِرِ الذي يتحدَّثُ فيه غيرُ الوطنِ، ذلك الوطنُ الذي رَسَمَتِ الأقدارُ على جبينه كثيرًا مِنْ الانتصاراتِ الباهرةِ؛ ومِنْ ثَمَّ كان الرَّبْطُ بين الماضي والحاضرِ، مِنْ خلالِ (أل) الدَّالَّة على العَهْدِ الحضوريِّ في كلمة اليوم، مُحيلةً على اليوم المُتحدَّث فيه إحالةً داخليَّةً، وهو ما أسهمَ في التَّرابطِ النَّصِّيِّ مِنْ خلالِ تِلْكَ الإحالَة.

المطلبُ الثَّاني: أل الجِنْسيَّة:

لُوحظَ مِنْ خلالِ مَا سبَقَ عَرْضُه أنَّ (أل) العَهْديَّةَ تكونُ كذلك بالقرينة اللَّفظيَّة أو المَعنَويَّة، وبناءً عليه فإنَّها في غيرِ ذلك تكونُ جِنْسيةً، يُراد بها الدَّلالةُ على الجِنْسِ وتعيينه؛ ومن ثَمَّ قال المُبرِّدُ: "وإذا قُلْتَ: بِئْسَ الرَّجلُ، فمعناه: مذمومٌ في الرِّجالِ، ثُمَّ تُفَسِّرُ مَنْ هذا المذمومُ؟ بقولكَ زيدٌ. فالرَّجلُ ومَا ذكرتُ لَكَ ممَّا فيه الألفُ واللامُ دالٌّ على الجِنْس، والمذكورُ بَعْدُ المُختَصُّ بالحمدِ والذَّمِّ. وهذا هَا هُنَا

(١) ديوان التِّلِّيسيّ ٢٧/ ٣، ويُنْظَر: ٤٧ / ٣، ٤٧/ ٣،٦، ٦٧ / ١ ،٢، ٦٩ / ١، ١٠٢ / ٦، ١٠٣/ ٢، ٢٨٤ / ٦.

بمنزلة قولك: فلانٌ يَفْرَقُ الأَسَدَ، إنَّما تريدُ هذا الجِنْسَ، ولَسْتَ تَعْنِي أَسَدًا مَعْهُودًا، وكذلك: فلانٌ يحبُّ الدينارَ والدِّرهمَ، وأهْلَكَ الناسَ الدينارُ والدِّرهمُ، وأهْلَكَ النَّاسَ الشاةُ والبعيرُ. وقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ** ﴾ [العصر: ١، ٢]، فهو واقعٌ على الجِنْسِ"(١).

هذا، ولَمَّا كانت (أل) الجِنْسِيَّةُ تنقسمُ إلى أل الاستغراقيَّة، و(أل) التي تشملُ خصائصَ أفرادِ الجِنْسِ مبالغةً، و(أل) التي لبيانِ الحقيقة، فإنَّه يمكنُ الاجتزاءُ في بيانِ ذلك بالاستغراقيَّة، والتي لبيان الحقيقة – رجاءَ الإيجازِ والاختصارِ – مع الإحالَةِ على بعضِ المواضعِ في ديوان خليفة التِّلِّيسِيّ، على النَحْو التَّالي:

أ– أل الاستغراقيَّة:

لمَّا كانتْ (أل) العهديَّةُ تكونُ بالقرينة اللَّفظيَّة أو المَعنَويَّة، وهو ما ترتَّبَ عليه كونُها في غيرِ ذلك جِنْسيةً، يُراد بها الدَّلالةُ على الجِنْسِ وتعيينه؛ وقد سبق قولُ المبرِّد: "وإذا قلت: بِئْسَ الرَّجلُ، فمعناه: مذمومٌ في الرِّجالِ، ثُمَّ تُفَسِّرُ مَنْ هذا المذمومُ؟ بقولك زيدٌ. فالرَّجل وما ذكرتُ لك ممَّا فيه الألفُ واللامُ دالٌّ على الجِنْسِ.. .إلخ(٢)، فإنَّه تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ علامَةَ (أل) الاستغراقيَّةَ أنْ تخلُفَها

(١) المقتضب، للمُبَرِّد ٢ / ١٤٠ –١٤١، ويُنْظَر به أيضًا ٤ / ١٣٨، واللامات، للزجاجي ص ٣٨، ونتائج التحصيل، للدلائي ص ٩٠٨ وما بعدها؛ ومن ثَمَّ فإنَّ المعرَّف بأل الجِنْسية معرفة لفظًا ومعنى، على خلافِ ابن مالك، فقد جعلَ المُعرَّف بأل الجِنْسية في معنى النَّكرة، في قوله: "فإنَّه من قِبَل اللَّفظ معرفةً، ومن قِبل المعنى؛ لشياعه نكرة، فلذلك يجوز أنْ يوصف بمعرفةٍ اعتباراً بلفظه، وهو الأكثر، ويجوز أنْ يوصف بنكرةٍ اعتباراً بمعناه "شرح التسهيل، لابن مالك ١ / ١١٦، ويُنْظَر: النَّحْو الوافي، عباس حسن ١ / ٤٢٣ –٤٢٨، ومعاني النَّحْو، د.فاضل السامرائي ١ / ١٠٧ – ١٠٨، واستعمالات الاسم المُنكَّر في العربيَّة، محمد سيدي الزروق الأنصاري، رسالة ماجستير، بكلية الآداب، جامعة سبها، ليبيا، ٢٠٠٦ م، ص ٣٢ – ٣٩، والإحالَة ودورها في دلالة النَّصِّ وتماسكه، د. محمد يونس، ص ١٨٧.

(٢) يُنْظَر: المقتضب، للمُبَرِّد ٢ / ١٣٩ – ١٤٠، ويُنْظَر٤ ١٣٨ /، واللامات، للزجاجي ٣٨، ونتائج التحصيل، للدلائي ص ٩٠٩ – ٩١٠، وشرح الرَّضِيّ على الكافية، للرَّضِيّ ٣ / ٢٧٩، والتَّعريف والتَّنكير بين الدَّلالة والشَّكل، د. محمود نحلة، ص١٢٠.

(كل)، ويمكن التَّمثيل لذلك في ديوان خليفة التِّلِّيسيّ بمَا جاء في قوله[1]: (من الكامل)

لا العِلْمُ يمنَحُكَ المَهابةَ لا الغِنَى
إنْ كانَتِ الأَخْلاقُ غَيرَ وَقَارِ
وَتَرَى الفَقِيرَ يَسِيرُ فِي أَسْمَالِهِ
وَعَلَيْهِ سِيمَا النُّبْلِ والأَحرارِ

فالبيتان السابقان منْ قصيدةٍ للشَّاعرِ بعنوان (ملامح جانبية)، وفيهما نُلاحظُ أنَّ جُمْلةَ (تَرَى الفقيرَ...) جُمْلةٌ فِعْليَّةٌ خبريَّةٌ مُثبتةٌ، مُتَّخذَةً نَمَطَ (الفعل + الفاعل + المفعول + الحال "جُملة فعليَّة")، استخدم الشَّاعرُ فيها الإحالَةَ بأل الجِنْسيَّةِ الاستغراقيَّةِ في الفاعلِ (الفقير)، مُخبرًا المُتَلَقِّي أنَّ كلَّ فقيرٍ تراه مُتحلِّيًا بسمات النُبلاءِ والأحرارِ، على الرَّغمِ ممَّا تراهُ منه، حيثُ الثَّوبُ الخَلَقُ والضَّعفُ وقِلَّةُ ذات اليد[2]، وذلك منْ خلالِ (أل) الجِنْسيَّةِ الاستغراقيَّةِ التي أحالت إحالةً خارجيَّةً على كلِّ جنس الفقير، فاستغرقتْ كلَّ أفراده؛ وبناءً عليه فإنَّ كُلاًّ من العِلْم والغِنَى لا يمنحانِ المهابةَ مَا لم يُتَوَّجْ ذلك بالأخلاقِ والوقارِ، وبذلك تكونُ (أل) قَدْ أوجَدَتْ نوعًا من التَّرابُطِ بين النَّصِّ وخارجِه، وهو ما يُسْهِمُ في خَلْقِه.

ب- أل التي لبيان الحقيقة:

تكونُ (أل) جِنْسيَّةً لبيانِ الحقيقةِ أو الماهيَّةِ إذْ لم تُفِدْ نَوعًا منْ نَوعَي الإحاطةِ

(١) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ٨٠ / ٦، ويُنْظَر: ١٧/ ٤، ١٨/ ١-٥، ٢٠/ ١-٢، ٢١ / ٦، ٢٢/ ١-٦، ٣٠/ ٢، ٢٢٥/ ١ ٢٦/ ١، ٢٧/ ١، ٣١/ ١-٦، ٤٣ / ٣، ٦٠/ ٣، ١٠١ / ٦، ١١٣ / ٣، ١٣٩/ ٤، ٢٥٧/ ٣-٤، ٢٥٩ / ١، ٦ ، ٦٢/ ١، ٢.

(٢) يُنْظَر: مقاييس اللُّغَة، لابن فارس، مادة (سمل)، حيثُ إشارتُه إلى أنَّ السينَ والميمَ واللامَ أصلٌ، يدلُّ على ضعفٍ وقلّة. من ذلك السَّمَل، وهو الثَّوْب الخَلَق. ومنه السَّمَل: الماء القليل يَبقى في الحوض، وجَمْعُه أسمال. وسَمَّلْتُ البئر: نقَّيتها. وأمَّا الإسمال، وهو الإصلاح بين النَّاس، فمن هذه الكلمة الأخيرة، كأنَّه نَقَّى ما بينهم من العَداوة.

والشمولِ الموجودَيْنِ في (أل) الاستغراقيَّة، و(أل) التي تشملُ خصائصَ الجِنْسِ مُبَالَغَةً، فلا تَخلُفُها (كلُّ)، وإنَّما تُفيدُ أنَّ الجِنْسَ يُرادُ منه حقيقتُه القائمةُ في الذِهْنِ، ومادتُهُ التي تكوَّنَ منها في العقلِ بغيرِ نَظَرٍ إلى ما ينطبقُ عليه مِنْ أفراد قليلةٍ أو كثيرةٍ، نَحْو قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ أَفَلا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٠]، أي مِنْ حقيقةِ المَاءِ، فلَيْسَ المقصودُ استغراقَ الماءَ كلَّه في خَلْقِ الإنسانِ[١]. هذا، ويمكنُ التمثيل لذلك في ديوان خليفة التِّلِّيسِيّ بمَا جاء في قولِه[٢]: (من البسيط)

مَا أَضْيَعَ الحُسْنَ لَمْ تُنْصِفْهُ رَائِعَةٌ
مِنَ القَصَائِدِ أَوْ لَحْنٌ يُنَاجِيهِ
أَوْ لَوحَةٌ مِنْ بَدِيْعِ الرَّسْمِ لَوَّنَهَا
مِنَ المَشَاعِرِ فَيْضٌ قَدْ يُدانِيهِ

فالبيتان مِنْ قصيدةِ (المُتكبِّرة)، يُشيرُ فيهما الشَّاعرُ إلى أنَّ الحُسْنَ والجَمالَ يتعرَّضُ للضَّيَاعِ الشَّديدِ، إنْ لَمْ تصادفْهُ قصيدةٌ رائعةٌ، تُعبِّرُ عَنْ تفاصيلِ لَوحته، أو يصادفْهُ لَحْنٌ من الألحانِ يبادلُه الحديثَ، أو لوحةُ رسَّامٍ، ألوانُها فَيْضٌ مِنَ المشَاعِرِ. ولَمَّا كان ذلك مُرادَه، فقَدْ حرصَ على استخدامِ مَا مِنْ شَأنِه ترابُطُ النَّصِّ، وذلك مِنْ خلال الإحالَةِ الخارجيَّة، باستخدام (أل) التي لبيانِ الحقيقةِ، في كلٍّ من (الحُسْن، القصائد، الرَّسم، المشاعر)، فحرفُ التَّعريفِ في كلِّ هذه الكلماتِ لا يصلحُ أنْ تخلفَهُ كلمةُ (كل) في هذا السِّياقِ، سواءٌ أكانَ ذلك على سبيل الحقيقةِ أَمِ المجازِ؛

(١) يُنْظَر: شرح التَّصريح، خالد الأزهري ١/ ١٨١، ونتائج التَّحصيل، للدلائي ص ٩١١، ومعاني النَّحْو، د.فاضل السامرائي ١/ ٧، والنَّحْو الوافي، عباس حسن ١/ ٤٢٧، والتَّعريف والتَّنكير بين الدَّلالة والشَّكل، د.محمود نحلة، ص ١٢١، واللامات دراسة نَحْويَّة، د. عبد الهادي الفضلي، ص ٣٧.

(٢) ديوان خليفة التِّلِّيسِيّ ١٥٦ / ١، ويُنْظَر به أيضًا: ١٧ / ٤، ١٩/ ٢، ٢٠/ ٦، ٢٣ / ١، ٢، ٢٤ / ١، ٣٢/ ٤، ٦٦ / ٥، ٨٠/ ٦، ١٠٢/ ٦، ١٢٥ / ٥.

ومِنْ ثَمَّ كانتْ مُحيلةً على الحقيقة، بقَيدِ حضورِها في الذِّهنِ، بخلافِ اسْمِ الجِنْسِ النَّكرةِ، فهو يدلُّ على مُطلقِ الحقيقةِ، لا باعتبارِ قَيْدٍ(١)، لكنْ هذا لا يمنعُ من الإشارةِ إلى أنَّ الرَّبْطَ مع (أل) التي للعَهْدِ الذِّكريِّ أكثرُ أثَرًا في النَّصِّ من أنواعِ (أل) الأُخرى.

وبناءً على مَا سبقَ ذِكْرُه، ومَا سبقَ تناولُه، فإنَّه - بَعْدَ الفراغِ مِنْ تناولِ الإحالَةِ باستخدامِ الإشارةِ والإحالَةِ باستخدامِ (أل) - قدْ آنَ الأوانُ أنْ أسترشدَ بقولِ الدكتور محمد محمد يونس، حيثُ قال: "ومِنَ الواضحِ أنَّ "أل" التي للعَهْدِ الذِّكريِّ هي أَنْسَبُ أنواعِ "أل" وسيلةً لتماسكِ النَّصِّ؛ لأنَّ إحالتَها إحالةٌ داخليَّةٌ، وهو ما يجعلُها قادرةً على رَبْطِ جملتين بعضِهما ببعض. وعلى الرَّغمِ من أنَّ كُلاًّ من "أل" وأسماءِ الإشارةِ تُبيِّنُ لنا أنَّ المرجعَ الذي تحيلُ عليه موجودٌ في مكانٍ مَّا في السِّياقِ بمفهومِه العامِ الذي يشملُ السِّياقَ الداخليَّ والخارجيَّ، فإنَّ الفارقَ بين "أل" من جهةٍ، وأسماءِ الإشارةِ مِنْ جهةٍ أُخرى، هو أنَّ أسماءَ الإشارةِ - خلافًا لـ"أل" - تُبيِّنُ لنا بالتحديدِ المكانَ الذي نجدُ فيه المرجعَ، حيثُ تصرِّحُ بكَونِ المرجعِ قريبًا أو متوسِّطًا أو بعيدًا من المتكلم. ومِمَّا يسهِّلُ علينا المُهِمَّة أيضًا أنَّها تُبيِّنُ لنا جِنْسَه، وعددَه. أمَّا "أل" فلا تُعطِي أي معلوماتٍ مُحدَّدةٍ عن المرجعِ، بل كلُّ ما تستلزمُه أنَّه يمكنُ معرفةُ المرجعِ من خلالِ الرُّجوعِ إلى معارفنا عن العالمِ الخارجيِّ (في حالة "أل" الجِنْسيَّة)، أو من خلالِ النَّظرِ في السِّياقِ الداخليِّ (بالنسبة إلى "أل" التي للعَهْدِ الذِّكْريِّ) أو في السِّياقِ الخارجيِّ (بالنسبة إلى "أل" التي للعَهْدِ الذِّهْنيِّ)"(٢).

(١) يُنْظَر: شرح التَّصريح على التَّوضيح ١/ ١٨١، والتَّعريف والتَّنكير بين الدَّلالة والشَّكل ص١١١.

(٢) الإحالَة وأثرها في دلالة النَّصِّ وتماسُكه، د. محمد يونس ص ١٩١، وكذلك:

Cohesion in English , p.74

المبحثُ الخامس

الإحالَةُ بالمُقارنَةِ ودَوْرُها في التَّرَابُطِ النَّصِّيّ

تُعدُّ الإحالَةُ باستخدامِ المُقارنةِ Comparative Reference من الأمورِ التي يلجأُ إليها المُبدعُ في نصِّه، وتنقسمُ إلى نوعين : أولُهما عامَّةٌ، ويتفرَّع منها التَّطابقُ والتَّشابُه والاختلافُ، والأُخرى خاصَّةٌ، وتتفرَّع إلى كَمِّيَّةٍ وكيفيَّةٍ، تُسهِمُ في اتِّساقِ النَّصِّ، على نَحْو ما تقومُ به الضَّمائرُ وأسماءُ الإشارةِ، فهي تعبيراتٌ إحاليَّةٌ، لا تستقلُّ بنفسها(١)، وهي "كلُّ عمليةِ مُقَارَنَةٍ، تتضمَّنُ شيئين - في الأقلِّ - يشتركانِ في سمةٍ مُشتَرَكَةٍ بينهما... وتتميزُ ألفاظُ المقارنةِ بأنَّها تعبيراتٌ إحاليَّةٌ لا تستقِلُّ بنفسِها، وهو ما يؤهِّلها لأنْ تكونَ وسيلةً مِنْ وسائلِ التَّماسُك؛ ولذا فأينما وردتْ هذه الألفاظُ اقتضى ذلك مِن المخاطَبِ أنْ ينظرَ إلى غيرِها بحثًا عمَّا يُحيلُ عليه المتكلم. وكما كان الأمرُ مع الضَّمائرِ وأسماءِ الإشارةِ، يحتملُ أنْ يكونَ المرجعُ خارجيًّا، ويحتمل أنْ يكونَ داخليًّا، فإذا كان داخليًّا، فإمَّا أنْ يكونَ المرجعُ متقدِّمًا، أو متأخِّرًا "(٢).

وهو مَا يترتَّبُ عليه صياغةُ مَا سبقَ في القولِ بأنَّها تُسهمُ في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ أو اتِّساقِ النَّصِّ، مِن خلالِ "كلِّ الألفاظِ التي تؤدِّي إلى المُطابقةِ أو المُشابَهةِ أو الاختلافِ أو الإضافةِ إلى السَّابقِ كَمًّا وكَيفًا أو مُقارنةً، وذلك يظهرُ فيما يلي: مِثْلُ، مُشابِه، غَيْر، خلافًا، علاوةً على، بالإضافة إلى، أكبر مِنْ، كبير عن، كبير مثل، ومقارنة بما، أسوةً بـ، فضْلاً عن ...إلخ "(٣).

(١) يُنْظَر: لسانيات النَّصِّ، د. محمد خطابي، ص ١٩، والإحَالَة ودورها في التَّماسك النَّصِّيِّ رواية في سبيل التَّاج للمنفلوطي نموذجًا، دنيا بن قسمي، ص ٣٩ – ٤٠.

(٢) يُنْظَر: الإحالَة ودورُها في دلالة النَّصِّ وتماسكه ص ١٩١ – ١٩٢، وكذلك : Cohesion in English p.76-77، والاتِّساقُ في العَربيَّة، جبار سويس ص ٥٨ – ٥٩.

(٣) يُنْظَر: الإحالَة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٣٤، ولسانيات النَّصِّ، د. محمد خطابي ص ١٩ .

المطلبُ الأوَّلُ: المُقارنة العامة:

لـمَّا كـان حالُ المُقارنة بين عامَّةٍ وخاصَّةٍ، على نَحْوِ ما تقدَّم، فإنَّ ثَمَّةَ ألفاظًا للمُقارَنة العامَّة، يُمكنُ إجمالُها في مجموعةِ الألفاظ المقارِنة التي تعبِّرُ عن التَّشابُه: ومنها "شبيه"، و"مشابه". ومجموعة الألفاظ المُقارِنة التي تعبِّرُ عن التطابق: ومنها "نفسُه"، و"عينُه"، و"مطابقٌ"، و"مكافئٌ"، و"مساوٍ"، و"مماثلٌ" و"قبيلٌ"، و"مثيلٌ"، و"نظيرٌ"، و"مرادفٌ". ومجموعة الألفاظ المُقارِنة التي تعبِّرُ عن التخالف: ومنها "مخالفٌ"، و"مختلفٌ"، و"مغايرٌ". ومجموعة الألفاظ المُقارِنة التي تُعبِّرُ عن الآخريَّة: ومنها "الآخرُ"، و"أيضا"، و"البديلُ"، و"الباقي"(١)، وقدْ وردتْ هذه الأقسامُ جميعُها ـ وليسَتْ بجميع ألفاظها ـ في شعْرِ خليفة التِّلِّيسيّ(٢)، نجتزئ منها بمثالين: أوَّلُهُما يمثِّلُ الإحالَةَ بألفاظ المُقارنَة الدَّالَّة على التَّشابُه، وذلك في قوله(٣): (من الكامل)

وَدَعَوْتُ قَلْبِي لِلْهُدُوءِ وَنَفْضِهَا
نَفْضَ الغُبَارِ أَلَمَّ بِالأَثْوابِ
حَتَّى إذا ظَهَرَتْ شَبِيْهَةُ حُسْنِها
قُرْبِي تَرُومُ عَلاَقَةَ الأَصْحابِ
أَلْفَيْتُهَا كَالنَّمْرِ تَحْمِي حَوْزَةً
حُسِبَتْ لَهَا مِنْ سَالِفِ الأَحْقابِ

(١) يُنْظَر: الإحالَة ودورها في دلالة النَّصِّ وتماسكه، د.محمد يونس ص ١٩١، وكذلك:

A- Cohesion in English , p.78.

B- Discourse approaches to Cohesion: A study of the structure and unity of a Central Bontoc expositony text,pp. 90-92.

(٢) يُنْظَر: ديوانه، الأمثلة: ١٥٣ / ٦، ١٦١ / ١-٢، ٤، ١٦٨ / ٢، ١٦٩ / ٦، ٢٤٢ / ٦ - ٧ - ٨، ٢٤٨ / ١.

(٣) السَّابق ١٥٣ / ٦.

فهذه الأبياتُ مِنْ قصيدة (غَيْرَة)، تلك التي يتحدَّثُ فيها الشَّاعرُ عن امرأةٍ أَخْفَتْ مشاعرَها، ولم ينفعْ معها إبلاغُها عن مشاعره نَحْوَهَا باللَّمْحِ أو بالإسهاب، ففي طَبْعِها صَلَفٌ، ممَّا جعلَهُ ييأسُ، فلا يرجُو جوابًا منها؛ ومن ثَمَّ دعَا قَلْبَه ـ على نَحْو ما توضِّحه الأبياتُ التي معنا ـ للهدوءِ ونسيانها كأنَّك تقومُ بنَفْضِ ثوبٍ مَّا، ثُمَّ يتدرج في الحديث مُحيلاً عليها بلفظٍ من ألفاظ المقارَنَة الدَّالة على التَّشابُه، وهو كلمةُ (شَبيهة)، من خلال الجُمْلَة الفعْليَّة الخبريَّة المُثبتَة (ظَهَرَتْ شَبيْهَةُ حُسْنِها)، المُتَّخذَة نَمَطَ (الفعل + الفاعل +المُضاف إليه المُتكرِّر)، ومنْ خلالها يتَّضحُ إخبارُه إيَّانا بأنَّه استمرَّ على هذا النَّفْضِ إلى أنْ ظهرتْ له أخرى، تُشْبِهُهَا في الحُسْنِ، تتطلَّعُ إلى التَّقرُّب منه؛ ومِنْ ثَمَّ وجدَ الأولى قَدْ أَكَلَتْهَا الغيرة، فنهضَتْ تُحيطُ به، وتمنعُها منه، كأنَّه ملكٌ خاصٌّ لها منذُ زمنٍ بعيد. فمَا كان مِنَ الشَّاعرِ إلا أنْ يُحيلَ المُخاطَبَ إحالةً خارجيَّةً على عالَمِ تلك المرأة التي تَغَارُ عليه؛ ومن ثَمَّ بيانُ حُسْنِها، باستخدام المقارَنَة العامَّة الدَّالة على التَّشابُه، مِنْ خلال كلمة (شبيهة)، فكانت عُنصرًا إحاليًّا على ذلك العالَمِ الخارجيِّ المُتمثِّلِ في تلك المرأة، ومن ثَمَّ كانتْ عُنصرًا إحاليًّا داخليًّا على مَا سبقَ بالقصيدة، ممَّا يتَّصل بالغَيُورَة من أوصاف، حيثُ أعاد عليها الضَّميرَ فيما تلا البيتَ الأوَّلَ من أبيات، وهو ما أسهمَ في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ على مدار النَّصِّ؛ ومن ثَمَّ تحقَّقت الاسْتِمْراريَّة الدَّلاليَّة، تلك الاسْتِمْراريَّةُ التي يكتنفُها الصِّدامُ والصراعُ، ولا نغالي إذا قلنا: إنَّه "صراعٌ بين العقلِ وإرادته وبين الرَّغبة وسلطتها، وهي العلاقةُ المُسيطرةُ على مُعظم قصائد الدِّيوان"(١).

أمَّا المثالُ الآخرُ، فيمثِّلُ الإحالَةَ بألفاظ المُقارَنة التي تعبِّرُ عن التَّطابقِ، وذلك في قوله(٢): (من المُجتث)

(١) هل نمتلك مَنْ نُحب "مقاربةٌ لديوان خليفة محمد التِّلِّيسيّ، معمر الزائدي، مجلة الفصول الأربعة، رابطة الأدباء والكتاب بليبيا، العدد ٦٦، ١٩٩٢ م، ص ١٥٦.

(٢) ديوان خليفة التِّلِّيسيّ ٢٤٣ / ٦ – ٩.

عـــــرَّافَـــــتِي رَصَـــــدَت لِي
أَيَّـــامَ كُـــنْتُ بِـــمَـــهْـــدِي
بِـــأنَّ شَـــأنِـــي كَـــبِـــيـــرٌ
وفَـــــارِسِي هـــــو نِـــــدِّي
شُـــمُـــوخُـــه كِـــبْـــرِيـــائي
وَوَجْـــــدُهُ مِـــــثْـلُ وَجْـــــدِي
وَنَـــــارُهُ مِـــــثْـلُ نَـــــارِي
وَوَقْـــــدُهُ مِـــــثْـلُ وَقْـــــدِي

فهذه الأبياتُ من قصيدة (سَطْوة)، يتَحدَّثُ فيها عن شموخِ المُخاطَبِ وكبريائه، ثُمَّ يتدرَّج في الرَّمزِ مُشيراً إلى أنَّ عرَّافتَه قدْ أشارتْ منذ مَهْدِه إلى أنَّ ثَمَّة شأنًا كبيراً سيكونُ له، وأنَّ فارسَه سيكون نِدَّه، فشموخُ فارسِه من كبريائه، وحُزْنُه من حُزْنِه، ثُمَّ يتدرجُ في المقارنة العامَّة بينه وبين فارسِه مُحيلاً عليها بلَفْظٍ من ألفاظ المقارنة الدَّالة على التَّطابُق، وهو كلمة (مِثْل)، من خلال الجُمْلَة الاسميَّة الخبريَّة المُثْبَتة المُتكرِّرة (وَجْدُهُ مِثْلُ وَجْدِي – نَارُهُ مِثْلُ نَارِي – وَقْدُهُ مِثْلُ وَقْدِي)، المُتَّخذَة نَمَطَ (المُبتدأ + الخبر + المُضاف إليه المُتكرِّر)، ومِنْ خلالها يتَّضحُ إخبارُه إيَّانا بأنَّ استمدادَهُ الشُّموخَ والكبرياءَ من فارسِه هذا، كان من مُنطلَق التَّطابق التَّامِّ بينهما. ومن هنا نُدركُ أنَّ الشَّاعرَ مَا كان ليحيلَ المُخاطَبَ إحالةً داخليَّةً ـ على عالَمِ ذلك الفارسِ الذي يرى ذاته فيه؛ ومن ثَمَّ بيان تلك السَّطوة وذلك الشموخِ والكبرياء ـ إلاَّ باستخدام المُقارنَة العامَّة الدَّالة على التَّطابُق، من خلال كلمة (مِثْل) المُتكرِّرة في الجُمَلِ الثَّلاث، فكانتْ عُنصراً إحاليًّا داخليًّا على مَا سبق بالقصيدة، ممَّا يتَّصلُ بموضوعِها، وهو ما أسهم في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ على مدارِ الأبيات.

المطلبُ الثَّاني: المقارنةُ الخاصة:

لـمَّا كان فيما تقدَّمَ من حديثٍ ما يُشْعرنا بأهميةِ الإحالَةِ من خلالِ المقارَنةِ العامَّة، في ترابُطِ النَّصِّ، فإنَّ فيما هو آت ما يُشعرُنا بأهميتها من خلال المقارَنَةِ الخاصَّة أيضًا، حيثُ "يُؤْتَى بالمقارنةِ الخاصَّةِ للتَّعبيرِ عن الموازنةِ بين شيئين أو أكثر، من حيثُ الكَمِّ أو الكيف. ويقومُ اسْمُ التَّفضيلِ في العربيَّةِ بوظيفة المُقارنةِ الخاصَّةِ"(١)، وهنا أُشيرُ إلى أنَّ اسْمَ التَّفضيلِ في العربيَّة اسْمٌ مشتقٌّ، يدلُّ على أنَّ شيئين اشتركا في صفةٍ، وزاد أحدُهما على الآخرِ في هذه الصِّفة، مثل: محمدٌ أكرم من محمود، فالاثنان كريمان، ولديهما هذه الصفةُ، ولكنَّ محمدًا زادَ على محمودٍ فيها، وذلك من خلالِ وزْنِه الوحيدِ في العربيَّة (أفعل)، ذلك الوزنُ الذي تكفَّلتْ كتبُ النَّحْو بتفاصيلِ صياغتِه وأحواله(٢)، وإنْ كان ذلك لا يمنعُ من الإشارةِ إلى أنَّ لاسْمِ التَّفضيلِ في العربيَّة ثلاثَ حالاتٍ، هي: أنْ يكون مُجرَّدًا من (أل) والإضافةِ، أو مُقترنًا بأل، أو مُضافًا إلى نكرةٍ أو معرفة. ولَّما كان ذلك كذلك

(١) الإحالَة ودورها في دلالة النَّصِّ وتماسكه، د. محمد يونس، ص ١٩٣، ويُنْظَر: Cohesion in English, p.76-77

(٢) يُنْظَر: الكتاب، سيبويه ١ ٢٠٢/ -٢٠٥، ٢/ ٢٤ - ٣٣، ٣/ ٦٤٤، والمقتضب، للمُبَرِّد ٣/ ٢٤٨ - ٢٥٢، وشرح المُفَصَّل، لابن يعيش ٦/ ٩٥ - ١٠٠، وشرح الرَّضِيِّ على الكافية ٣ / ٤٧٧، وشرح التَّسهيل، ابن مالك ٣ / ٥٢ - ٥٧، وشرح التَّصريح، خالد الأزهري ٢ / ٩٢ - ١٠٤، والنَّحْو الوافي، عباس حسن ٣ / ٣٩٤ وما بعدها، والمنهج الصَّوتي للبنية العربيَّة، رؤية جديدة في الصرف العربيّ، د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١١٨ - ١١٩، والتَّعريف والتَّنكير بين الدَّلالة والشَّكل، د. محمود نحلة ص ١٩٥، ويُنْظَر: ظاهرة التَّفضيل بين القرآن الكريم واللُّغَة، أبو سعيد محمد عبد المجيد، مجلة البلقاء، العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة عمّان الأهلية، الأردن، المجلد التَّاسع، العدد الأوَّل، ٢٠٠٢ م، ص٢٣٠، حيثُ يرى أنَّ تعريفات النُّحاةِ لم تذكُرْ وزن (فعلى) مؤنث أفعل، لذلك فإنَّ تعريف اسْمِ التَّفضيلِ عنده هو: "اسم مشتقٌّ من المصدر على وزن أفعل للمذكر وفَعْلى للمؤنث، يدلُّ - في الأغلب - على أن شيئين اشتركا في صفة، وزاد أحدهما على الآخر في تلك الصفة، وقد لا يدلُّ على ذلك، كما يدلُّ - في أغلب صوره - على الاستمرار والدَّوام".

فإنَّه يمكن تناولُ ما وردَ في ديوان خليفة التِّلِّيسيّ من خلال الإشارة إلى أنَّ تلك المقارنَةَ الخاصَّة باسْمِ التَّفضيلِ، الواردةَ بشعره كانت من نوع اسْمِ التَّفضيلِ المُجرَّدِ من (أل) والإضافة، واسْمِ التَّفضيل المُضاف إلى المعرفة دون النَّكرة؛ ومن ثَمَّ محاولةُ بيان مدى إسهامها في التَّرابُط النَّصِّيِّ، وذلك من خلال الاجتزاء بمثالين اثنين، رجاءَ الإيجاز، مُحيلاً على بقيَّة المواضع.

أمَّا أولُهما، فقَدْ جاء فيه اسْمُ التَّفضيلِ مُجرَّدًا من (أل) والإضافة، وذلك نَحْوُ قوله[1]: (من الكامل)

ما حقُّ مِثْلِي أَنْ يَخيْبَ وقَدْ أَرَى
غَيْري يَنَالُ منَ الزُّهورِ نَضيْدَا
وأَنَا القريبُ عَلاَقَةً ومَعَزَّةً
أَفْنَيْتُ عُمْري في الجَمَالِ قَصِيدَا
قَالَتْ له والحبُّ يَسْكُنُ عُمْقَهَا:
إِنِّي أُرِيْدُكَ أَنْ تَمُوتَ شَهِيدَا
لَو قَدْ بَذَلْتُ الرَّوْضَ صُنْعَ غَرِيْرَةٍ
مَا كُنْتَ تُصْبِحُ للقَرِيضِ مُجِيدَا
والفَنُّ أَخْلَدُ مِنْ قَوامٍ فَاتِنٍ
بَذَلَ الكُنُوزَ غَدَائِرًا ونُهُودَا

فهذه الأبياتُ منْ قصيدة (شهيد) يتحدَّثُ فيها الشَّاعرُ عن كونه مُحبًّا لتلك التي تدنُو، وتَبْعُدُ، وتردُّه بالرِّفْقِ حينًا، وبالزَّجرِ حينًا آخرَ، مُتحدِّثًا عن نفسه

(١) ديوانه ١٧٠ -١٧١/ ٦، ١- ٤، ويُنْظَر به أيضًا: ٦٦ / ٥، ٧٠ ٤/، ٨٧ / ٢، ٩٥ / ١٢، ١٣ ٩٦ / ٢ ، ١٠٤ ٢/، ١١٢ / ١، ١١٨/ ٣، ٦، ١/١٤٤، ١٦٢/ ١، ١٧٠ / ٤، ٢٠٧ / ٤، ٢٣٧ / ٣، ٢٤٠ / ٦، ٢٥٢ / ٤، ٢٦٣ / ٤، ويُنْظَر: ديوانُ امرئ القيس ٤٣ / ٣، وديوان زهير بن أبي سلمى ٢٣٣ / ١- ٢ .

بضميرِ الغائبِ (قَالَتْ له)، مُشيراً إلى أنَّها تُريدُ أنْ يموتَ شهيداً، ثُم يلتفتُ إلى نفسِه مُعبِّراً بضميرِ الفاعلِ (لَو قَدْ بَذَلْتُ الرَّوْضَ)، في إشارةٍ منه إلى أنَّه لو كان قَدْ بذلَ أفضلَ مَا لديه في سبيلِ وصالِها – كمَنْ يبذلُ غُرَّة ماله، أي أفضلُه اندفَاعاً منه؛ مِنْ أجْلِ هذه الغريرةِ الحديثةِ التي لم تجرِّبْ بَعْدُ – لَمَا أجادَ الشِّعرَ، ثُم يُريدُ لَفْتَ انتباهَ المُتَلَقِّي إلى أهميةِ ذلك القريضِ، مِنْ خلالِ الجُمْلَةِ الاسميَّةِ الخبريَّةِ المُثْبَتَةِ (والفَنُّ أَخْلَدُ مِنْ قَوامٍ فَاتِنٍ)، المُتَّخِذَةِ نَمَطَ (المُبتدأ + الخبر + الجار والمجرور + المُضاف إليه)، مُحيلاً باسْمِ التَّفضيلِ (أَخْلَدُ=أفْعل) المجرَّد مِنْ (أل) والإضافة، إحالةً داخليَّةً بعديَّةً على القوامِ الفاتنِ، الذي ورد من خصائصِه بالقصيدةِ مَا لا يَخْفَى على المُتَلَقِّي.

ومَا كان ذلك كذلك إلا ليُعْلِمَ المُتَلَقِّي بأنَّه إذا أرادَ أنْ يتعرَّفَ على صاحبةِ القوامِ الفاتنِ ـ التي تريدُه أنْ يموتَ شهيداً؛ ومن ثَمَّ قارَنَ بين فنِّه وغوايَتِها ـ فلْيرجعْ إلى مَا سبَقَ مِنْ أبياتِ القصيدةِ حتَّى تتكاملَ لديه الخيوطُ الدَّلاليَّةُ، وهو الأمرُ الذي ترتَّبَتْ عليه الاسْتِمْراريَّةُ الدَّلاليَّةُ، من خلالِ تلك المُقارَنَةِ الخاصَّةِ بين شيئين اشتركا في صفَةٍ، وزاد أحدُهُما على الآخرِ، فكان فنُّ الشَّاعرِ مَفْضُولاً، وكان القوامُ الفاتنُ مفضولاً عليه.

أمَّا المثالُ الثَّاني، فعلى نَحوِ ما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقولِ الفَرزدق، صَدَد مَدْحِه عبدَ الله بنِ عبد الأعلى الشَّيْبانيّ[١]: (من الطويل)

وَمَا عَدَّ مِنْ نُعْمَى امرؤٌ مِنْ عَشِيْرَةٍ
لِوَالِدِه عَنْ قَوْمِه كَبَلائِهَا
أَعَمَّ عَلَى ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَ نِعْمَةً
وَأَدْفَعَ عَنْ أَمْوَالِهَا وَدِمَائِهَا

(١) ديوان الفرزدق ١ / ٢٠ .

فقَدْ وردَ فيه اسْمُ التَّفضيلِ (أعَمَّ) مُجرَّدًا مِنْ (أل) والإضافة أيضًا، لكنَّه ناصبٌ للتمييزِ بعدَه، وليس بعدَه (مِنْ)، لكنَّها مُقدَّرة، وهو ما عليه قولُ التِّلِّيسيّ(١): (من الكامل)

قَـلْبٌ أَطَـاعَكِ والجَـوَانِحُ أَطْـوَعُ
فَـتَـرَفَّـقِـي إنَّ الـتَّـرَفُّقَ أَنْـفَعُ
ولَـقَـدْ عَـرَفْتُ الحُبَّ قَبْـلَكِ لُـعْـبَـةً
أَسْطُـو بِـهَا حِـيْـنًا وحِـيْـنًا أَخْضَعُ

فهذانِ البيتانِ مِنْ قصيدةِ (مَجْدِ الهوى) يتحدَّثُ فيها الشَّاعرُ عنْ مَجْدِ هواه مع تلك المرأةِ التي يرى أنَّه لم يعرفْ بليلِ هواهَا بدراً يُنيرُ هذا اللَّيلَ، أو نُجوماً ساطعةً(٢)، فيبدأُ قصيدَتَه بالإحالَةِ الخارجيَّةِ على ذلك القلب، قَلْبِه الذي أطاعَها ووقعَ في حُبِّها، ثُم يريدُ أنْ يَشُدَّ انتباه مُتلقِّيه إلى أهميَّةِ هذه الطَّاعةِ وكَيفيَّتِها، فطاوعتْهُ الجُمْلَةُ الاسميَّةُ الخبريَّةُ المُثْبَتَةُ (والجَوَانِحُ أَطْوَعُ) من خلالِ نظامِهَا النَّحْويِّ الذي تحوَّلَ من نَحْوِ الجُمْلَةِ إلى نَحْوِ النَّصِّ، بتلك الإحالَةِ النَّصِّيَّة، باستخدامِ المقارنَةِ الخاصَّةِ، مِنْ خلالِ اسْمِ التَّفضيلِ (أطوع)، ذلك الاسمُ الذي جاء مُجرَّدًا من (أل) والإضافةِ، فلزِمَتْهُ (مِن) الجارَّةِ للمفضولِ عليه المحذوفِ تقديراً؛ ومِنْ ثَمَّ حُذِفتْ مع هذا المفضولِ عليه؛ لدلالَةِ السِّياقِ، فكان التقديرُ : والجوانِحُ أطْوَعُ من القلب. تلك الإحالَةُ البَعْديَّةُ على المفضولِ عليه المحذوفِ (القلب) رجاءَ المُقارنة، مَا كانتْ لتتحققَ إلاَّ مِن خلالِ اسْمِ التَّفضيلِ (أنْفَع = أفْعل) المبنيِّ مِنْ فِعْلٍ ثُلاثيٍّ مُجرَّدٍ مُتصرِّفٍ قابلٍ للتَّفاوت، ليس الوصفُ منه على (أَفْعَل فعلاء)، فكانت خادمةً في اتِّجاهين: أحدُهُما استقامةُ الوزنِ، والوزنُ جزءٌ من إنتاجِ المعنى النَّصِّيِّ، والآخرُ

(١) ديوانه ١١٢ / ١.

(٢) يُفهَمُ ذلك من قوله فيما بعد ١١٣ / ١ :

أمَّا هَواكِ فَمَا رأيتُ بِلَيْلِه بَدْرًا يُنيرُ ولاَ نُجومًا تَسْطَعُ

اتِّجاهُ المعنى؛ لِيُعْلِمَ المُتَلَقِّي بأنَّ الجوانحَ - أي أَوائلُ الضُّلُوعِ تحت التَّرائب، مِمَّا يلي الصَّدْرَ، كالضلوعِ مِمَّا يلي الظَّهْرَ، وهي التي سُمِّيَتْ بذلك لجنُوحِها على القلب(١) - كانتْ أشدَّ حُبًّا وطاعةً للمحبوبةِ مِنْ ذلك القلبِ الذي تحيطُ به، وهو مَا سبقَ ذِكْره بأوَّل القصيدةِ؛ ومِنْ ثَمَّ يطلبُ منها التَّرفُّقَ في الحبِّ، مِن مُنطلقِ أنَّ التَّرفُّقَ أَنْفَعُ له ولها مِن ذلك الوَلَهِ المُستفادِ مِمَّا سبقَ في الشَّطْرِ الأوَّل، وهو مَا أفادَه أيضًا اسْمُ التَّفضيلِ (أَنْفَعُ) مُضافًا إليه إسهامُه في تحقُّقِ القافيةِ برويِّها المُرادِ، وهو الأمرُ الذي ترتَّبَتْ عليه الاسْتِمْراريَّةُ الدَّلاليَّةُ، مِن خلال تلك المُقارنة الخاصَّة بين شيئين اشتركا في صفةٍ، وزاد أحدهما على الآخر، وإنْ كانتْ الاسْتِمْراريَّةُ الدَّلاليَّةُ هُنا مرهونةً بالحيِّزِ الذي وردت فيه، مُضافًا إليها قولُ القائلِ: "تشكِّلُ المرأةُ هاجسًا وجوديًّا كبيرًا في نصوصِ شاعرنا، فتُطِلُّ بوجوهٍ مُتعدِّدةٍ وبحركاتٍ مُوحيةٍ، من خلال ثنايا الصُّورِ، فالمرأةُ هنا محدودةٌ بالجسَدِ مقترنةٌ بالرَّغبةِ، وقولُنا هذا لا يُغلقُ البابَ أمامَ المرأةِ (الرَّمز) في النَّصوص التي درسناها، وقد بدت لنا وطنًا أو قضيةً، لكنَّ الأغلبَ الأعمَّ هو أنْ تكونَ المرأةُ شُحْنَةً، تُغذِّي العاطفةَ المُتوهِّجةَ"(٢)، وهو ما لاحظناه من خلالِ العرضِ للإحَالَةِ بالمقارنة باسْمِ التَّفضيلِ في بداية القصيدةِ موضعِ تحليلنا هذا.

ومن ثَمَّ كان في كلِّ مَا سبقَ ما يُعربُ عن جانبٍ مِن حركةِ نَحْوِ النَّصِّ؛ ومِنْ ثَمَّ التَّرابُطُ، مِن خلال الإحالةِ في ديوان خليفة التِّلِّيسيّ، وهو مَا ينبغي على المُتلقِّي المُتمعِّنِ في النصوصِ أنْ يبحثَ عنه، وعنْ وسائلِه، تلك الوسائلُ، التي مِنْ شأنِها الإسهامُ في تحقُّقِ الاسْتِمْراريَّةِ الدَّلاليَّةِ على مدارِ النَّصِّ؛ ومن ثَمَّ ترابُطُه وعدَمُ ترهُّلِه، وذلك في إطارٍ من فَهْمِ السِّياقِ، و"وَضْعِ النَّصِّ في سياقِه العام الذي يردُ فيه

(١) يُنْظَر: لسان العرب، مادة (جنح).

(٢) يُنْظَر: الصُّورة الاستعارية في شعر التِّلِّيسيّ، د. عبد الإله الصائغ ص١١٦.

ومدى مناسَبَة النَّصِّ لهذا السِّياق العام، فمِنَ المعروف أنَّ السِّياقَ يشكِّلُ جُزءاً مُهِمًّا مِنْ دَلالة النَّصِّ، ويوجِّهُه الوِجهَةَ الصَّحيحةَ"(١)، على نَحْو ما سبقَ مِن تَحليلٍ.

وهو الأمرُ الذي يجعلُني أستأنسُ بنصٍّ يتَّضحُ مِن خلاله أنَّ الإحالةَ عمليةٌ مُهِمَّةٌ في إنتاجِ النصوص، شِعْرِهَا ونَثْرِهَا، تَسْتثيرُ المُتلقِّي، حيثُ قولُ الدكتور أحمد عفيفي: "المُتأمِّلُ للإحالة يرى أنَّها هي الوسيلةُ الأكثرُ قوةً في صُنْعِ التَّماسكِ الشَّاملِ للنَّصِّ وتجسيدِ وَحْدَته العامَّة، وهي لا تقلُّ دوراً وأهميةً عن بقيَّة الوسائلِ، مثلُ: الحذف والتكرار...إلخ، بل إنَّها - في رأيي - تُعدُّ الوسيلةُ الأكثرُ قُدرةً على إيجادِ تماسُكٍ وترابُطٍ وصُنْعِ وَحْدَةٍ نَصِّيَّة؛ وذلك لأنَّها تُقرِنُ بين التَّرَابُط الرَّصفيِّ والتَّرَابُطِ المفهوميِّ، أي بين مَا هو لَفْظِيٌّ ومَا هو معنويٌّ. فالمُتلقي يرى أمامَه أداةً تُحيلُ إلى شيءٍ لابُدَّ أنْ يبحثَ عنه، إمَّا فيمَا سبقَ مِنْ أجزاءِ النَّصِّ في الإحالة القبليَّة، أو فيمَا هو آتٍ في الإحالة البَعْديَّة، أو أنَّ المُتلقِّي يُعْمِلُ عَقْلَهُ في السِّياق والمقامِ في الإحالة إلى غير مذكورٍ؛ ليوجدَ ما تصدقُ عليه الإحالةُ حدَثًا وزمانًا ومكانًا ومنطقًا، وعلى هذا تأتي رُتبتُها في مقدِّمة تلك الوسائلِ؛ لأنَّها تشغلُ عَقْلَ المتلقِّي كثيراً بالبحث عن مَرْجِعِ الأداة خلافًا للتكرارِ الذي يُعطِي الطَّابعَ اللَّفظيَّ غالبًا، وكذلك الاستبدالُ أو البدلُ "(٢).

وكَونُها عمليةٌ مهمَّةٌ في إنتاج النصوص هو ما جعل كثيراً من الباحثين يرون أنَّها "تؤدِّي دوراً مُهمًّا في تحقيقِ مجموعةٍ مِن الوظائف، وهي: التَّلاحمُ النَّصِّيِّ (السَّبك) - التَّماسُك النَّصِّيِّ (الحَبْك) - التَّشكيل النَّصِّيِّ (الوَحْدَة الكُلِّيَّة) - الانسجام النَّصِّيِّ (التَّواؤم) - النَّصِّيَّة بشكلٍ عام"(٣).

(١) كيف نقرأ النَّصَّ القديم، د. محمد حماسة ص٤٧ .

(٢) الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٥٣ - ٥٥٤، ويُنْظَر: لسانيات النَّصِّ، د. محمد خطابي ص ١٦ .

(٣) العناصر المرجعية (الضميرية) في سورة الكهف دراسة نصِّية وظيفية، عبد المهدي الجراح، إبراهيم الكوفحي، ومحمد القضاة، ص ٥٣٩ .

هذا، ومِنَ المُمكنِ الإشارةُ في هذا الصَّدَدِ ـ بعدَ الفراغِ من الإحالةِ ـ إلى أنَّه من خلالِ بيانِ البِنْيَةِ الكُبرى للنَّصِّ موضعِ الإحالةِ، تبيَّنَ أنَّ ثَمَّةَ تطابُقًا بين المُحيلِ والمُحالِ عليه في شِعرِ خليفة التِّلِّيسِيّ، حيثُ اللَّفْظُ والمعنى، إفراداً وغيره، وتأنيثًا وتذكيراً ...إلخ. وقد أمكنَنا التَّعرُّف على المُحالِ عليه، وقَصْدِ المُتكلِّم من استخدام الإحالةِ، وهو مَا أسْهَمَ في نجاحِ الإحالةِ. تلك الإحالةُ التي يمكنُ وصْفُها أيضًا بأنَّها كانت واضحةً بعيدةً عن الغموضِ، وفي كلِّ مَا سبق يكمُنُ ما يهُمُّ مُحلِّلَ الخطابِ(١).

(١) يُنْظَر: الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٣١.

الفصلُ الثَّاني
الاسْتِبْدَالُ ودورُه في التَّرَابُط النَّصِّيِّ

توطئةٌ :

وَصْلاً بما ذُكِرَ بمدخلِ هذا البحث مِنْ كَوْنِ سَعْي نَحْوِ النَّصِّ إلى التَّرابطِ النَّصِّيِّ، مِنْ خلالِ التَّرابُطِ الرَّصْفِيِّ، والتَّرابُطِ المفهُومِيِّ، وأنَّ ثَمَّةَ وسائلَ لتحقيقِ هذا التَّرَابُط، مِنْ بينها الإحالَةُ والاسْتِبْدَالُ، فإنَّه في ضوءِ عنوانِ هذا البحث، وعنوانِ هذا المَبْحث يمكنُنا الإشارة إلى أنَّ الاسْتِبْدَالَ Substitution" صورةٌ من صورِ التَّماسُكِ النَّصِّيِّ التي تتم في المستوى النَّحْويِّ المُعجميِّ بين كلماتٍ أو عباراتٍ، على أنَّ مُعظمَ حالاتِ الاسْتِبْدَالِ النَّصِّيِّ قبليَّةٌ Anaphora، أي علاقةٌ بين عُنْصرٍ مُتأخِّرٍ وعُنصرٍ متقدِّمٍ "(١)؛ ومن ثَمَّ فإنَّه يخلقُ صِلَةً قويةً بين جزءٍ واحدٍ من النَّصِّ وآخرَ سابقٍ عليه(٢).

وبناءً على ذلك أُشيرُ إلى أنَّه لَمَّا كان الاستبدالُ علاقةً بين عنصرٍ مُتأخرٍ وعنصرٍ متقدِّمٍ، فإنَّه منَ المنطقيِّ أنْ يكون في النَّصِّ؛ مِنْ مُنطَلقِ كَوْنِه تعويضَ عُنصرٍ لغويٍّ بآخرَ في النَّصِّ، على أنْ يدلَّ عليه السِّياقُ اللُّغويُّ(٣)؛ ومن ثَمَّ فإنَّه "لابدّ أنْ نتكلمَ عن الاسْتِمْراريَّةِ الدَّلاليَّةِ، أي وجودُ العُنصرِ المُستبدَلِ في الجُمْلَةِ

(١) دراسةٌ لُغويَّةٌ لصور التَّماسك النَّصِّيِّ في لغتي الجاحظ والزيات، مصطفى صلاح قطب، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٩٦ م، ص١٧٣، ويُنْظَر: نَحْو النَّصِّ، د.أحمد عفيفي ص١٢٢، وكذلك : Cohesion in English ,p91.، ويُنْظَر أيضًا عِلْمُ لُغَة النَّصِّ "المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري ص٣٠، والإحَالَة ودورها في التَّماسك النَّصِّيِّ رواية في سبيل التَّاج للمنفلوطي نموذجًا، دنيا بن قسمي، ص ٤٦، حيثُ الإشارةُ إلى أنَّ فكرةَ الاستبدال يرجعُ أصلُها إلى دي سوسير حول العلاقات الرَّأسيَّة المُتحقِّقة على المستوى النَّحْويِّ، والعلاقات الرَّأسيَّة المُتحقِّقة على المستوى الصَّرفيِّ، أي العلاقاتُ بين أبنيةِ الجُملِ والأبنيَةِ الصَّرفيَّة.

(2) see: Text and discourse analysis, p65.

(٣) يُنْظَر: لسانياتُ النَّصِّ، د. محمد خطابي ص١٩ .

اللاحقة"(١)، مِمَّا يترتبُ عليه القولُ بأنَّ مُعظَمَ حالاتِ الاسْتِبْدَالِ النَّصِّيِّ قبليّةٌ بين عُنصرٍ مُتأخرٍ وعُنصرٍ مُتقدِّمٍ؛ ولهذا يُعدُّ مصدراً من مصادرِ تماسُكِ النَّصِّ، شأنُه شأنُ الإحالَةِ، منْ حيثُ إسهامُه في اتِّساقِ النَّصِّ، لكنَّه يختلفُ عنها في كَونه يتمُّ في المستوى المُعْجَمِيِّ بين كلماتٍ أو عباراتٍ، بينما الإحالَةُ عَلَاقةٌ معنويَّةٌ تقعُ في المستوى الدَّلاليِّ(٢).

لكنْ ينبغي أنْ يُشارَ هنا إلى أنَّ الاسْتِبْدَالَ يختلفُ عن الحذفِ، فالعلاقةُ بين عُنصرَيِّ الاسْتِبْدَالِ "تتركُ أثرًا، هو وجودُ أحَدِ عناصرِ الاسْتِبْدَالِ.. .فالمُستبدَلُ يبقَى مؤشِّرًا يسترشدُ به القارئ؛ للبحث عن العنصرِ المُفتَرَضِ، مِمَّا يمكِّنه من ملْءِ الفراغِ الذي يَخْلُفُهُ الاسْتِبْدَالُ"(٣)، أمَّا الحذْفُ، فهو علاقةُ استبدالٍ منْ النُّقطَةِ (صفر) أو مَا يُسمَّى بالاكتفاءِ بالمبنَى العدميِّ Zero Morpheme، كما يراهُ دي بوجراند(٤) أي أنَّ الاسْتِبْدَالَ يتركُ دليلاً، يتمثَّلُ في وجودِ أحدِ عناصرِه، حيث يكونُ

(١) نَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدَّرس النَّحْويّ، د.أحمد عفيفي ص ١٢٣، ويُنْظَر:لسانيات النَّصِّ، د.محمد خطابي ص ٢٠– ٢١ .

(٢) يُنْظَر: لسانيات النَّصِّ ص١٩–٢٠، ودراسة لُغوية لصور التَّماسُك النَّصِّيِّ في لغتي الجاحظ والزيات، مصطفى قطب، ص١٧٣ –١٧٤، والنَّصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص ٣٠٠، والاتِّساقُ في العَربيَّة" دِراسَةٌ في ضَوءِ عِلْم اللُّغَة الحَديث"، جبار سويس ص ١١٣ – ١١٥ .

(٣) دراسة لُغوية لصور التَّماسُك النَّصِّيِّ في لغتي الجاحظ والزيات ص-١٧٥، ويُنْظَر: التَّماسُك النَّصِّيّ من خلال العطف والتِّكرار دراسةٌ تطبيقية في ديوان المواكب لجبران خليل جبران، بوزنية رياض، رسالة ماجستير، كلية الآداب ،جامعة الحاج لخضر، الجزائر، ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨ م، ص ٣٥ صدَدَ إشارته إلى أنَّه في عملية إحداث التَّماسُك يشترك الاسْتِبْدَال مع الحذف في تعلُّقه بعنصرين آخرين، هما التِّكرار والإحالَة، ولكن يختلفُ الأمرُ بالنِّسبة للتكرار، فقد تتمُّ عمليةُ الاسْتِبْدَال لإفادة المعنى وجَعْل اللَّفظ أكثرَ دقَّةً في أدائه، وكذلك لتحاشي التِّكرار المُشين الذي لا يحملُ معه معنىً جديداً، أي معنًى في نفسه.

(٤) يُنْظَر: النَّصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص٣٤٠، ويُنْظَر :

- Cohesion in English , p.88.
- Discourse approaches to Cohesion: A study of the structure and unity of a Central Bontoc expositony text, p. 94.

المُستبدَلُ بمثابَة العلامَة التي يسترشدُ بها المُتَلَقِّي في التوصُّلِ إلى الكلمة المُفترضِ وجودُها؛ ومن ثَمَّ مشاركتُه المُبدعَ في إعادة تشكيلِ البناءِ دَلاليًّا، لكنَّ الأمرَ في الحذف مختلفٌ، من جهة عدمِ وجود أيِّ شيءٍ محلَّ المحذوف غالبًا.

وَلَئِنْ كان فيمَا سبقَ مَا يُشعرُنا بأهمية الاسْتِبْدَال، فإنَّه من الجديرِ بالذِّكْرِ الإشارةُ إلى أنَّ ثَمَّةَ توجُّهًا عامًّا في تحليلِ النَّصوصِ يُسمَّى عِلْمُ لسانياتِ النَّصِّ الاسْتِبْدَالية(١).

وإذا كانَ المُحدثون قَدْ هرعوا إلى كتاب (التَّماسُك في الإنجليزية) لكلٍّ من هاليداي ورقية حسن، فقسَّموا الاسْتِبْدَالَ إلى استبدالٍ اسميّ Nominal Substitution ، واستبدالٍ فِعْلِيٍّ Verbal Substitution، واستبدالٍ قَوْلِيٍّ Clausal Sub-stitution(٢)، فإنَّه تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ ثَمَّة وَعْيًا بذلك لدى القدماءِ العربِ قبلَ هذا اللَّهث(٣)، ينبغي أنْ يَبْحَثَ عنه كلُّ مَنْ يسعى لتأسيسِ منهجٍ عربيٍّ من عُمْق جذورِ لغتنا العربيَّة وتاريخها وإبداعها.

(١) يُنْظَر: تحليل الخطاب، جليان براون ،وجورج يول، ص ٢٤٠، والتَّماسُك النَّصِّيُّ من خلال العطف والتِّكرار، بوزنية رياض، ص ٣٤، والإحَالَة ودورها في التَّماسُك النَّصِّيِّ رواية في سبيل التَّاج للمنفلوطي نموذجًا، دنيا بن قسمي، ص ٥٠ .

(٢) يُنْظَر: لسانيات النَّصِّ، د. محمد خطابي ص ٢٠، ونَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدَّرس النَّحْويّ، د. أحمد عفيفي، ص١٢٣ -١٢٤، وكذلك:

- Cohesion in English ,p91.

- Discourse approaches to Cohesion: A study of the structure and unity of a Central Bontoc expositony text,p.92-93.

(٣) لا يقتصرُ ذلك على الاسْتِبْدَال، بل أذكر أنَّ ممَّا قدَّمه النَّحْو العربيُّ في إطارِ نَحْو النَّصِّ - على الرَّغم من عدمِ استيعابه كلَّ اهتمامات نَحْوِ النَّصِّ؛ لأنَّه نَحْوُ جُملة – الرَّبْطَ بصوره المختلفة، والاستعمالَ العدوليَّ ، على نَحْوِ مَا قُمْتُ به في بحث رَبْط الجُملة الفرعية بالضَّمير أو بالواو ودورُه في تماسُك النَّصِّ " دراسة في كافوريات المتنبي، ويُنْظَر: النَّحْو العربيُّ والنَّصُّ: مدخل لبحث العلاقة بينهما، د. عبد السلام السيد حامد، مجلة كلية دار العلوم - جامعة القاهرة (إصدار خاص) - ٢٠٠٩ م، ص ٤٧، والإحَالَة ودورها في التَّماسُك النَّصِّيِّ رواية في سبيل التَّاج للمنفلوطي نموذجًا ص ٤١ - ٤٥ حيثُ الإحالةُ عند القدماء.

وهنا يحضرُني مَا قالَه الدكتور عبد السَّلام السَّيد حامد، في تعليقه على ما ذكرَه الدكتور محمد خطابي(١)، حيثُ يرى أنَّ " النَحْو العربيَّ - وإنْ لَمْ يكُنْ نَحْوَ نَصٍّ بالمفهومِ الحديث - علْمٌ نصِّيٌّ بالمفهومِ العام؛ لتعلُّقِه الوثيقِ بالقرآنِ الكريمِ والشِّعْرِ، وأنَّ له إسهاماتِه الواضحةَ في هذا. ويدخُلُ مَا قدَّمَه النَحْوُ العربيُّ في هذا الشَّأنِ في بابِ "التَّماسكِ" أو السَّبكِ (Cohesion) أكثرَ منْ غيرِه . ويرى أحدُ الدَّارسينَ أنَّ خُلاصَةَ مَا تقدِّمُه مفاهيمُ المستوى النَّحْويِّ في لسانياتِ النَّصِّ العربيَّةِ لنَحْوِ النَّصِّ منْ هذه الزَّاويةِ يتمثَّلُ في ثلاثةِ جوانبَ هي: العطفُ والإحالَةُ والإشارةُ. وفي مقابلِ ذلك تتلخَّصُ مفاهيمُ المستوى النَحْويِّ الخاصَّةِ بالاتِّساقِ في المقترحاتِ الغربيَّةِ في جوانبِ: الإحالَةِ والإشارةِ والاسْتِبْدَالِ والحَذْفِ والوَصْلِ وأدواتِ المُقارَنَة. ويَقترحُ منْ أجْلِ إقامَةِ دراسَةٍ تطبيقيَّةٍ وَفْقَ خُطَّتِه دَمْجَ خلاصَةِ النَّظْرَةِ العربيَّةِ والنَّظْرَةِ الغربيَّةِ للمستوى النَّحْويِّ بحيثُ تُصْبحُ: الإحالَةَ والإشارةَ وأدواتِ المُقارَنَةِ والعطفِ والحذفِ والاسْتِبْدَالِ. وبناءً على هذا، يكونُ الجديدُ الذي لم يكُنْ في الإنجازِ العربيِّ في تصوُّرِ الباحثِ، وحاولَ أنْ يأخذَه من الإنجازِ الغربيِّ هو: أدواتُ المقارنةِ والحذفُ والاسْتِبْدَالُ. ومُجْملُ هذا في رأيي غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ هذه المفاهيمَ ليستْ بعيدةً عن مقولاتِ النَّحْوِ العربيِّ والبلاغةِ العربيَّةِ، وليس هناك أوضحُ في هذا الشَّأنِ من الحذفِ والاسْتِبْدَالِ. وقدْ نتجَ هذا التصورُ عن أسبابٍ مختلفةٍ، أهمُّها أنَّه أبعدَ معطياتِ النَحْوِ العربيِّ نَفْسِه عن لسانياتِ النَّصِّ "(٢).

وفي سَعْيي إلى تعميقِ جذورِ لُغتنا منْ خلالِ إبداعِ مُبدعيها، نحاولُ التَّمثيلَ لأقسامِ الاسْتِبْدَالِ في شعرِ خليفة التِّلِّيسيّ، باعتبارِه منْ وسائلِ التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ، منْ خلالِ المباحثِ التالية.

(١) يُنْظَر: لسانيات النَّصِّ ص ٢٠٩ – ٢١١ .

(٢) النَّحْو العربيّ والنَّصّ : مدخلٌ لبَحثِ العلاقة بينهما، د.عبد السلام السيد حامد، ص ٤٦ .

المبحثُ الأوَّلُ

الاسْتِبْدَالُ الاسميُّ

الاسْتِبْدَالُ الاسميُّ يكونُ "باستخدامِ عناصرَ لُغَويَّةٍ اسميَّةٍ، مثل (آخر، آخرون، نفس) ...ومن نماذجِه في الشِّعرِ قولُ الشَّاعر :

فتَاتَان أمَّا مِنْهما فَشَبِيْهَةٌ
هِلالا وأُخرى تُشْبِه البَدْرَا

فقد حَذَفَ في الشطرِ الأوَّل، والتقديرُ(أمَّا الأولى منهما)، واستبدَلَ في الشَّطرِ الثاني، والتقديرُ:(والفتاة الأخرى)، فتمَّ الرَّبْطُ بعد جَذْبِ انتباه القارئ"[(1)]، ومنه قولُ امرئ القَيْس[(2)]: (مِنَ الطَّويل)

إذَا قُلْتُ هذا صاحِبٌ قَدْ رَضِيْتَه
وقَرَّتْ بِه العَيْنَان بُدِّلْتُ آخَرَا

فالتَّقديرُ: بُدِّلْتُ صاحبًا آخَرَ، وهو مَا يمكِّنُنا مِنْ القولِ :إنَّ" الاسْتِبْدَالَ بهذا المعنى شكلٌ بديلٌ في النَّصِّ، وهو وسيلةٌ هامَّةٌ لإنشاءِ الرَّابطة بين الجُمَلِ، وشَرْطُه أنْ يتمَّ استبدالُ وَحْدَةٍ لُغويَّةٍ بشَكْلٍ آخرَ، يشتركُ معها في الدَّلالة، حيثُ ينبغي أنْ يدلَّ كلا الشَّكلين اللُّغوييْنِ على الشيءِ غيرِ اللُّغويِّ في نفسه، فكلمةُ (فئة) في قوله تعالى: ﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ** ﴾ [آل عمران: ١٣] -أي: وفئةٌ كافرة- وكلمةُ أخرى (الواقع بينهما الاسْتِبْدَال) دالتانِ على هذه المجموعةِ مِن النَّاسِ، وذلك شيءٌ غيرُ لُغَويٍّ، فتحقَّقَ الشَّرطُ، وظَهَرَ الرَّبْطُ"[(3)].

(١) نَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدرس النحويّ، د.أحمد عفيفي ص١٢٣ .

(٢) ديوان امرئ القيس ٦٩ / ٣ .

(٣) نَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدرس النحويّ، ص١٢٤، بتصرُّفٍ يسير، ويُنْظَر :
Cohesion in English ,p89.

ومثالُه في شعر التِّلِّيسيّ مَا جاء في قولِه[١]: (من البسيط)

كَمْ سَـهِـرْنَـا الـلَّـيَـالـي وَهـيَ نَـائـمَـةٌ
نُـسَـائلُ الـنَّـجْمَ عَنْ أحـوالِ دُنْـيـاهَـا
هَلْ حَـيُّـهـا جَادَهُ غَـيْـثٌ وهَـلْ نَـعِـمَـتْ
عِـنْـدَ الـرَّبِـيْـعِ بِـأحْـوَالٍ رَجَـوْنَـاهَـا
نُـحَـمِّلُ الـرِّيـحَ أشْـواقًـا فَـتَـحْـمِـلُـهَـا
عَـنَّـا الـرِّيْحُ وَأُخْـرَى قَـدْ كَـتَـبْـنَـاهَـا

فالأبياتُ السَّابقةُ من قصيدة (المجانين)، التي تُعَدُّ من القصائد وليدة اللَّحظة الخالدة، لا وليدةَ مناسبَة معيَّنة، بمعنى أنَّها تكتسبُ قيمتَها وجمالَها من كَوْنِهَا لا ترتبطُ بموقفٍ مُحَدَّدٍ أو ظرْفٍ مُعيَّنٍ، تزولُ قيمتُها بزواله، بل تنطلقُ إلى المستوى الإنسانيِّ الرَّحبِ؛ لتُعَبِّرَ عن الإنسانِ في بعضِ مواقفه الشعوريَّة المُختلفة[٢].

وفي إطارِ التَّعبيرِ عن هذه المواقف الشعوريَّة يُشيرُ إلى حالةٍ مِنَ الجنون ـ لا لطَيْشٍ ولا خَبَلٍ، كما سنوضِّح في المَبْحَث الثَّالث من هذا الفصْلِ ـ بجمالِ تلك الفتاة موضع اللَّحظة الشعوريَّة موضوع القصيدة؛ ومنْ ثَمَّ يعترفُ بأنَّ شعرَه كلَّه في وصْفِ غانيةٍ أو معركةٍ خاضَها، وأنَّه كثيراً مَا وقفَ على رَسْمِ دارِها شرقًا وغربًا، وكم بذلَ الغالي والنفيسَ، إلى أنْ يصلَ إلى الأبياتِ التي معنا مُشيراً فيها إلى كَثْرَةِ سَهَرِه اللَّيالي مُسائلاً النُّجومَ عن حالِ تلك الفتاة، على الرَّغمِ من تنعُّمِها في نومِها، ممَّا جعلَهُ يظنُّ أنَّ ثَمَّة غيْثًا صادفَ حيَّهَا، فنَعِمَتْ في الرَّبيعِ، وذلك مَا يرجوه لها؛ ومنْ ثمَّ يلجأُ إلى الإعراب عَنْ هذه النِّيَّة وذلك الرَّجاء منْ خلالِ قوله (وَأُخْرَى قَدْ كَتَبْنَاهَا).

= حيثُ ذكْرهما المثالَ الآتي: My axe is too blant. I must get a sharper one.

وهو ما يعني أنَّ: فأسي غيرُ حادَّةٍ، يجب أنْ أحصلَ على أُخرى حادَّة، ويُنْظَر: الاتِّساقُ في العَربيَّة "دِراسَةٌ في ضَوءِ علْم اللُّغَة الحَديث"، جبار سويس ص ٦٠.

(١) ديوانه ١١٧ / ٤، ويُنْظَر به أيضًا: ٥٠ / ٤، ٥٨ / ٦، ٩٥ / ١٢، ١٠٦ / ١، ١١٢ / ٣، ١٤٢ / ٧، ١٥٢ / ٣، ١٧٩ / ٤، ٢٤٢ / ٧، ٨، ٢٤٨ / ١.

(٢) يُنْظَر: خليفة محمد التِّلِّيسيّ ناقداً وأديبًا، مصطفى محمد جحيدر، ص ١٨٩.

فكلمة (أُخرى) لنْ نتمكَّن مِنْ فَهْمِ المُرادِ منها إلا بالرجوعِ إلى مَا سبقَها في النَّصِّ، وذلك في سَعْي منه إلى استنهاضِ المُتلَقِّي؛ كي يبحثَ عن العُنصرِ المُستبدَل، فإذا به يجدُه في كلمة (الأشواق)، حيثُ كان منَ المُفترضِ أنْ يقولَ: (وأشواقٌ أُخرى قد كَتَبْناها)، تلك الأشواقُ التي تحملُها الرِّيحُ آونةً، ويكتبُها الشَّاعرُ آونةً أخرى، هي أشواقٌ لتلك الفتاة التي إنْ شئْتَ أنْ تتعرَّفَ عليها، فارْجِعْ إلى مَا سَبَقَ من أبياتٍ، تتحدث عمَّا جادتْ به قريحةُ الشَّاعرِ في وصْفِها، ومِنْ ثَمّ كان تحقُّقُ الاسْتِمْراريَّةِ الدَّلاليَّة، على مدارِ الأبيات السَّابقة، من خلال الاسْتِبْدَالِ الاسميِّ - وغيرِه من الوسائلِ، ممَّا لم يُذكرْ هنا - وهو مَا أفضى إلى التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ بين أجزاء القصيدة، حيثُ إنَّنا لم نستَطِعْ إدراكَ المُرادِ مِنْ كلمة (أُخرى) إلا بالرجوعِ إلى ما سبق في القصيدة.

وهكذا كان استدلالُ المُتلقِّي بالكلمة المُستبدَلة للبحثِ عن العُنصرِ المُفْتَرَض، وبذلك يتمكَّنُ من ملْءِ الفراغِ الذي يُخْلِفُه الاستبدالُ، وفي هذا اختلافٌ عن الحذف، إذْ لا يحلُّ محلَّ المحذوفِ أيُّ شيءٍ غالبًا، ومِنْ ثَمَّ يوجدُ في الجُمْلَة الثانية فراغٌ بنيويٌّ، يهتدي القارئُ إلى ملْئه اعتماداً على مَا ورد في الجُمْلَة الأولى أو النَّصِّ السَّابق(١).

هذا، وإنْ كان من قولٍ في هذا الصَّدد، فإنِّي أودُّ القول: إنَّ ضربًا من حَذْفَ الموصوفِ وإقامةِ الصِّفةِ مقامه يدخلُ تحت الاستبدالِ، بشرط وجودِ الوَحْدَةِ اللُّغَوية المُستبدَلَة فيمَا سبقَ من النَّصِّ، على نَحْوِ مَا سبق من تحليلٍ، لكنْ يُلاحظُ أنَّ تعاونَ الحذْفِ ليس مقصوراً على الاستبدالِ، بل قدْ يتعاونُ مع الإحالةِ بالموصولِ أيضًا(٢).

(١) يُنْظَر: الترابُط النَّصِّيّ في رواية النداء الخالد، عيدة العمري ص ١٤٠.

(٢) مثال ذلك قولُه تعالى في الأنعام ١٥٢: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فالمُحالُ عليه هو "الخصلةُ التي هي أحسنُ مَا يُفْعَلُ بمال اليتيم، وهي حِفْظُهُ، وتثميرُهُ" الكشاف ٢/ ٧٥، فالموصولُ هنا صفةٌ لموصوفٍ محذوف، يُقَدَّرُ مُناسبًا للموصول (التي)، فيكونُ تقديره بالحالة أو الخصلة (التَّحرير والتَّنوير ٨/ ١٦٣. أو يكون المُحالُ عليه طريقةً، فيكونُ المعنى "لا يحلُّ أكْلُ ماله، ولا استعماله، ولا أيُّ تصرُّفٍ فيه إلا بالطَّريقة المُتصوَّرة لحفْظه"، فهذا العُنصر الإحاليُّ أشار إلى عُنصرٍ إشاريٍّ عُرِفَ عند المتلقي=

ولذلك فقبلَ أنْ أبرحَ هذا المكانَ أودُّ الإشارةَ إلى أنَّ مجالَ الاسْتِبْدَالِ الاسميِّ مجالٌ رحبٌ للحذف، سواءٌ أكان الحذفُ من الأوَّل أَمْ منَ الثَّاني، وتلك مهارةٌ لغويةٌ لا يلجأُ إليها إلاَّ مَنِ امْتلكَ ناصيةَ اللُّغة، تدلُّ على أنَّ ثَمَّةَ تكامُلاً بين الرَّوابط أو وسائلِ التَّرَابُطِ في ديوان التِّليسيِّ؛ ومِنْ ثَمَّ يُسهمُ هذا التَّكاملُ في وَحْدَة النَّصِّ وتماسُكه وسَبْكِه وكفاءةِ الصِّياغة(١)، على نَحْوِ مَا وردَ في قولِ التِّلِّيسيّ(٢): (من الكامل)

أَخْفَتْ مَشَاعِرَهَا وَرَاءَ نِقَابِ
وَتَحَجَّبَتْ عَنِّي بِأَلْفِ حِجَابِ
لاَ السَّطْحُ أَعْرِفُهُ، ولاَ أَعْمَاقُهَا
تُعْطِي يَداً تُفْضِي إِلَى الأَسْبَابِ
أَبْلَغْتُهَا فِعْلَ الهَوَى فِي خَافِقِي
بِاللَّمْحِ آونَةً وَبِالإِسْهَابِ

فهذه الأبياتُ مِنْ قصيدة (غَيْرة)، يُشيرُ فيها الشَّاعرُ إلى أنَّها أَخفَتْ مَشَاعِرَهَا عَنْهُ، كمَنْ تُخْفِي وَجْهَها خَلْفَ النِّقاب، وأصبَحتْ بالنِّسبة لَهُ عَالَمًا مِنْ الغموض، يحجبُهُ ألفُ حجابٍ؛ ومِنْ ثَمَّ لا يُعرَفُ ظاهرُهَا أو باطنُها، كي يأخذَ بسببٍ مِمَّا يبدو لَهُ مِنْ مَعرفةٍ مَّا.

وأمامَ ذلك لم يجدْ طريقًا إليها إلاَّ أنْ يُبلِّغَهَا بمَا يفعلُه حبُّه لهَا في جوانحه، وفي سبيل ذلك كانتْ وسيلتُه اللَّمْحَ آونةً، والإسهابَ أُخرى، لكنَّه لجأَ إلى حَذْف

= مِنْ سياقِ الكلامِ وما يتطلَّبُه مِنْ دواعي الحُكْم الفقهي. السَّبك النَّصِّيُّ في القرآن الكريم "دراسةٌ تطبيقيةٌ في سورة الأنعام، أحمد حُسين حيال، ص ٧٢.

(١) يُنْظَر: أثر التكرار في التماسك النَّصِّيِّ "مقاربة معجمية تطبيقية"، د. نوال بنت إبراهيم الحلوة، ص١٦، وعِلْمُ لُغَة النَّصِّ، د. عزة شبل، مكتبة الآداب، القاهرة، الطَّبْعَة الأولى، ٢٠٠٧م، ص ٩٩ – ١٠٤.

(٢) ديوانه ١٥٢ / ٣، ويُنْظَر: ٧٠ / ٦، ٧٥ / ٦، ٩٥ / ١٢، ١٠٦ / ١، ٦/، ١٧٩ / ٤ حيثُ حُذِف لَفْظُ الاستبدالِ الاسْمِيِّ في هذه المواضع.

عُنْصرِ الاسْتِبْدَالِ الاسمِيِّ مِنْ الثَّاني (أُخرى)، الذي هو صِفَةٌ لموصوفٍ محذوفٍ أيضًا والتَّقديرُ (آونة أُخرى) اهتمامًا منه بالصِّياغَةِ المُفْضِيةِ إلى إرادةِ وصولِ المُتَلَقِّي إلى أنَّ تلك الآونةَ المحذوفةَ المقرونةَ بالإسهابِ تمثِّلُ نُقطَةَ ارتكازٍ مُهمَّةٍ لدى الشَّاعرِ، حيثُ الإعرابُ عَنْ مشاعرِهِ تِجاهَهَا وَجْهًا لِوَجْهٍ، ومَا ينتجُ عَنْ ذلك مِنْ عَواقِبَ.

وهكذا، كان هذا الاستبدالُ مُسْهِمًا في عمليَّةِ التَّرابُطِ بين أجزاءِ النَّصِّ؛ وذلك مرجعُهُ أنَّنا لم نتمكَّنْ مِنْ فَهْمِ المُرادِ مِنْ كلمةِ (أُخرى) المحذوفةِ إلا بالعودَةِ لِمَا سبقَهَا، وليس ذلك فحَسْبُ، بل إنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ الحذفَ قد يتعاونُ مع الاستبدالِ مِنْ أَجْلِ الحفَاظِ على التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ، بمَا يتضمَّنُه من وَزْنٍ وقافيةٍ، في إطارِ ما يُسمَّى بالنَّصِّيَّة.

وهنا يمكنُ الإشارةُ إلى أنَّه على الرَّغمِ مِن أنَّ التِّلِّيسِيّ "يَنْتَسِبُ إلى مدرَسةِ الدِّيوانِ غيرَ أنَّه يُخالفُ هذه المدرسةَ في موضوعِ بناءِ القصيدةِ وضَرورةِ الالتزامِ بالوَزْنِ والقافية"(١)، تلك القافيةُ التي حافظَ عليها الشَّاعرُ من خلالِ حَذْفِ لَفْظِ الاسْتِبْدَالِ الاسْمِيِّ اعتماداً على السِّياقِ، كي تتحقَّقَ له بالرَّوي المُراد (الباء المكسورة)؛ ومن ثَمَّ التَّركيزُ الدَّلاليُّ على كلمةِ (الإسهاب) ومَغزاها بالنِّسْبَةِ للشَّاعرِ، في إشارةٍ منه إلى أنَّ إبداعَه لا يقومُ على الطَّاقاتِ التَّصريحيةِ فحَسْبُ، دون الاعتمادِ على الطَّاقاتِ الإيحائيةِ المُفضيةِ حتمًا إلى الاختلافِ النِّسبيِّ - بين المتقبِّلينَ للرِّسالةِ اللُّغويَّةِ - طبقًا لاختلافِ تقديراتِهم للأبعادِ الإيحائيةِ؛ ومن ثَمَّ كانت كثافةُ الإيحاءِ، وتقلُّصُ التَّصريحِ، وهو نقيضُ ما يطَّردُ في الخطابِ العاديّ(٢).

(١) خليفة محمد التِّلِّيسيّ ناقداً وأديبًا، مصطفى محمد جحيدر، ص ١٨٨، ويُنْظَر به ص٢٣٣ حيثُ قولُه: " إنَّ مفهومَ الشِّعرِ عنده هو العاطفةُ، والخيالُ، والموسيقى الشِّعريةُ، إضافةً إلى الأسلوب، وعدَمِ مَزْجِ النظرياتِ العِلْميَّة في الشِّعرِ، وأنَّ مقوماتِ العملِ الفنِّيِّ هي التَّجربةُ الشعوريةُ والقدرةُ التَّعبيريَّة ".

(٢) يُنْظَر: المقاييس الأسلوبية في النَّقْد الأدَبِيِّ من خلال البيان والتَّبيين للجاحظ، د. عبد السلام المسدي، ص ١٦٦ - ١٦٧، والأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المسدي ص ٩٥، والبنيوية في اللُّغَة والأدب والخطاب، د. الصادق البصير، منشورات جامعة سبها، ليبيا، الطَّبْعَة الأولى ٢٠٠٦م، ص ١٠٩ - ١٢٦ .

ومِنَ المعروف "سلفًا أنَّ الشِّعريَّةَ تقومُ على القَصْدِ الاختياريّ ، بمعنى أنَّ المبدعَ يتعاملُ مع لُغَتِه تعامُلاً انتقائيًّا، سواءٌ كان ذلك في دائرةِ المفرداتِ أو في دائرةِ التَّراكيبِ "؛ ومن ثَمَّ كان القَصَدُ في اختيارِ (الإسهاب) كلمةً للقافيةِ دون غيرِها، سعيًا إلى التَّركيزِ الدَّلاليِّ(١)، وفي كلِّ ذلك يكمُنُ سرُّ الاسْتِمْراريَّةِ الدَّلاليَّةِ التي أفضَتْ مع غيرِها مِنْ عناصرِ الإحالَةِ ـ مِمَّا يندرجُ تحت نَحْوِ النَّصِّ ـ إلى التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ في الأبيات.

وفي كلِّ مَا سبقَ مَا يدلِّلُ على أنَّ وظيفةَ النَّصِّ تُفهَمُ "على أنَّها تعليماتٌ مُوجَّهةٌ إلى مُتلقِّي النَّصِّ، تُحدِّدُها مقاصدُ المُرسِلِ، وهي الوظائفُ التي تبلِّغُهُ عن كَيْفِيَّةِ الفَهْمِ المرغوبةِ لدى المُرسِلِ؛ لذا لا تكونُ وظيفةُ النَّصِّ مُساويةً لقَصْدِ المُرسِلِ، بَلْ هي القَصْدُ المُشَفَّرُ في النَّصِّ، المَطْبُوعِ في النَّصِّ على أنَّه أداةُ اتِّصالٍ"(٢). وهكذا أسْهَمَ الاستبدالُ الاسْمِيُّ بدونِ حَذْفِ المُسْتَبْدَلِ في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ، شأنُه شأنُ الاسْتبدَالِ الاسْمِيِّ مع الحَذْفِ.

(١) هكذا تكلم النَّصُّ، د. محمد عبد المطلب، ص ٣٠، ويُنْظَر : الجملة في الشِّعر العربيِّ، د. محمد حماسة، ص ٩٧، ١٢٧، ١٣١، وبناء الجملة العربيّة، د. محمد حماسة، ص ٢٥٠، والتَّضمين العروضيّ في الطويل وبناء شعر الأعشى، د. فايز تركي، ص ٦٣ ، والبديع في عِلْم العربيَّة، ابن الأثير ت ٦٠٦ هـ، تحقيق ودراسة د . فتحي أحمد عليّ الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطَّبْعَة الأولى، ١٤٢١ هـ، الجزء الأوَّل، المجلد الثاني ص ٣٢٠، وتجليات الخطاب الأدبيِّ، د. يوسف نوفل،دار الشروق، القاهرة، الطَّبْعة الأولى ،١٩٩٧ م، ص ١٠٨ وما بعدها حيثُ حديثُه عن التَّركيزِ الدَّلاليّ والصور التَّعبيرية في رباعيات محمد حسن فقي.

(٢) مدخل إلى عِلْمِ اللُّغَة النَّصِّيِّ، فولفجانج هاينة من، وديتر فيهفيجر، ترجمة د.فالح العجمي، ص ١٩٤.

المبحثُ الثَّاني

الاسْتِبْدَالُ الفعليُّ

لَمَّا كان الاسْتِبْدَالُ الاسميُّ يكمُنُ في استبدالِ اسمٍ بعُنْصرٍ منَ العناصرِ اللُّغَويَّةِ الاسميَّةِ ـ على نَحْوِ مَا سبقَ ـ فإنَّه من البَدَهِيِّ أنْ يكونَ الاسْتِبْدَالُ الفعليُّ مُختَصًّا بالفعْلِ، يمثِّلُهُ استخدامُ صيغَةُ الفعْل (يَفْعَل)، مثْل: هلْ تظنُّ أنَّ الطالبَ المُكافحَ ينالُ حَقَّهُ؟ أظنُّ أنَّ كلَّ طالبٍ مُكافحٍ (يَفْعَلُ)، فكلمةُ (يفعل) فِعْليَّةٌ، اسْتُبْدِلَت بكلامٍ كان منَ المُفْتَرَضِ أنْ يحلَّ محلَّها، وهو جُمْلَةُ (ينالُ حَقَّه)(١).

وبإمعانِ النَّظَرِ يُمْكِنُ القولُ إنَّ صيغَة (يَفْعَل أو تَفْعَل أو يَفْعَلُون ...إلخ) ليستْ الوحيدةُ التي يُمْكنُ أنْ يَحْدُثَ الاسْتِبْدَالُ الفعليُّ منْ خلالِهَا، حيثُ إنَّ مَنْ نقلوا عن هاليداي ورقية حسن ترجموا (Do) إلى يَفعل فقطْ دون النَّصِّ على بقيَّةِ مَا يُسْنَدُ إليه الفعْلُ، كما أنَّ (Do) بمعنى يَفْعَل هكذا في الإنجليزية، فهي فِعْلٌ مُسَاعِدٌ، أمَّا في العربيَّة، فينبغي أنْ نقولَ: كلُّ مَا كان على وَزْنِ (يَفْعَل أو تَفْعَل أو يَفْعَلُون ...إلخ) من المفرداتِ المُعْجَميَّة، وكان وارداً في سياقِ اسْتِبْدَالٍ، فإنَّه منْ قبيلِ الاسْتِبْدَالِ الفعْليِّ، على نَحْوِ مَا سَبَقَ في المثالِ المذكُورِ آنفًا، أي أنَّه يكونُ بانتفاءِ الوَحْدَةِ الإحاليَّة بين اللَّفظِ الجديدِ واللَّفظِ السَّابقِ الذي يُؤَوَّلُ الأخيرُ بالرجوعِ إليه، وهو مَا يترتَّبُ عليه القولُ بأنَّه لا ينبغي النَّقْلُ الحرفيُّ منَ الإنجليزيةِ أو

---

(١) يُنْظَر: نَحْو النَّصِّ اتِّجاه جديد في الدَّرس النَّحويّ، د. أحمد عفيفي ص١٢٤، ويُنْظَر : Cohesion in English ,p121

حيث ذكْرُهما المثال الآتي: – Has the doctor been called by anyone ?

- I don't know. I haven't done. May be someone else has done.

وهو ما يعني: هلْ استدعَى أحَدَكُم الطَّبيبَ؟ لا أعرفُ . أنا لم أفعلْ، ربَّما فَعَلَ شخصٌ مَّا غيري، ويُنْظَر: الاتِّساقُ في العَرَبيَّة" دِرَاسَةٌ في ضَوءِ عِلْم اللُّغَة الحَديث"، جبار سويس، ص ٦٠ – ٦١ ، وكذلك :

- Text and discourse analysis, pp43-55 .

غيرها مِنَ اللُّغاتِ الأجنبيَّة، أو الاستقراءُ استقراءً ناقصًا دون استقراءِ بقيَّة الأمثلة، بلْ ينبغي أنْ يُردَفَ ذلك بمَا يقابلُه في العربيَّة طبقًا للبناءِ اللُّغويِّ لهذه اللُّغة، فهي بناءٌ حضاريٌّ يختلفُ عن تلك؛ ومن ثَمَّ يكونُ الخروجُ مِنْ دائرةِ التَّرديدِ النظريِّ إلى التَّطبيقِ العَمَليِّ.

أَضِفْ إلى ذلك أنَّ هذا الاسْتِبْدَالَ قدْ يتحقَّقُ في صورةِ صيغةِ الماضي مِنْ (يَفْعَل أو تَفْعَل أو يَفْعَلُون ...إلخ)، بل إنَّ بَدَلَ الفِعْلِ مِنَ الفِعْلِ قَدْ يدخلُ في هذا النِّطَاق، نَحْوُ قولِنا: ﴿**وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ**﴾ [الشعراء: ١٣٢، ١٣٣] (١)، وهو مَا ينطَبَقُ على إبدالِ الاسْمِ مِنَ الاسْمِ أيضًا، نَحْوُ قولِنا: (أرسلَ المُديرُ إليَّ مُعتَذِرًا عن سوءِ تقديرِ المُوظَّف المُخْتَصِّ، مُديرُ مَصلحةِ الضرائبِ العقَّاريَّة بوَزارةِ الماليَّة)، وذلك على الرَّغمِ من أنَّ البدلَ مُكَوِّنٌ يؤدِّي وظيفةً محدَّدةً في بِنْيَةِ الجُمْلَة، بالمُقَارَنَةِ بنَحْوِ النَّصِّ الذي نَتجاوَزُ فيه بِنْيَةَ الجُمْلَة؛ لِنَبْحثَ عن العباراتِ والألفاظِ ذاتِ الإحالَةِ المُشتركة، أيًّا كانتْ وظائفُها النَّحْوِيَّةُ، فنَحْوُ الجُمْلَةِ مُكَوِّنٌ يعتمدُ عليه نَحْوُ النَّصِّ، ولا يُمكنُ أنْ يلغيه؛ ومن ثَمَّ فلا أرى غضاضةً في جَعْلِ بدَلِ الكلِّ مِن الكلِّ، وبدَلَ الجزءِ من الكُلِّ، وبدَلَ الاشتمالِ، من قبيلِ الاسْتِبْدَالِ، باستثناءِ بدَلِ الغَلَطِ والنِّسيان، مِنْ منطلقِ أنَّ نَحْوَ النَّصِّ مؤسَّسٌ على نَحْوِ الجُمْلَة، وهنا يحضرُني قولُ أحدِ الباحثين : " وعَدَا هذا الأخيرَ (بدل الغَلَطِ والنِّسْيان) فإنَّ أقسامَ البَدلِ الأخرى تنضوي تحت مَا يُعرفُ في عِلْمِ لُغَةِ النَّصِّ بالاسْتِبْدَالِ، وَرَغْمَ أنَّ دراسةَ البَدلِ لم تتجاوزْ حدودَ الجُمْلَة أو الجملتين في اللُّغةِ العربيَّة، فإنَّ دَورَه كأداةٍ للرَّبطِ جَلِيٌّ في التراثِ العربيِّ، إذْ عدُّوه مِن التَّوابع، والتَّابع مرتبطٌ به متبوعه ...، فالتَّماسكُ ارتباطُ عنصرٍ بعنصرٍ آخرَ

(١) يُنْظَر: ديوان التِّلِّيسيّ ١٣٤ / ٦، ١٣٦ / ٢، ١٨٢ / ٤ –٥، حيث إبدالُ الاسْمِ مِن الاسْمِ، وشرح الرَّضِيّ على الكافية ٢ / ٣٨٠ – ٣٨١ .

واعتماده عليه"(١).

ومثال ذلك الاسْتِبْدَالِ الفِعْليِّ في شعر التِّلِّيسيّ مَا جاء في قوله(٢): (من البسيط)

وَحِيْدَةً في دُرُوبِ الحُبِّ حائِرةً
كَأنَّمَا فَقَدَتْ أَغْلَى غَوالِيْهَا

فَرَاشَةُ الحَقْلِ كَمْ طَافَتْ بِنَاضِرَةٍ
مِنَ الزُّهورِ وظَلَّ الشَّوْقُ يُضْنِيها

وَذِئْبَةُ الغَابِ كَمْ أَوْدَتْ بِشَارِدَةٍ!
والجُوعُ يَنْشُرُهَا حِيْنًا وَيَطْوِيهَا

وَلَبْوَةٌ تَحْرِقُ الأَدْغَالَ شَهْوَتُها
فَلاَ الضَّراغِمُ والأَشْبالُ تُطْفِيهَا

وَطِفْلَةٌ تَمْلأُ الآفَاقَ غِبْطَتُهَا
لاَ تُضْمِرُ الشَّرَّ لَكِنَّ الأَذَى فِيها

تَلْهُو وَتَلْهُو ولاَ تَنْفَكُّ عَابِثَةً
بِكُلِّ مَا يَحْفَظُ الدُّنْيا ويُبْقِيْهَا

كَأنَّهَا رَبَّةٌ في المَرْجِ راقِصَةٌ
قَدْ كُلِّلت بِزُهُورٍ مِنْ رَوَابِيْهَا

فالأبياتُ السَّابقةُ مِنْ قصيدةِ (جنِّية)، تلك القصيدةُ التي تدعو إلى التساؤل عن (الجنيَّة) "أهي الطبيعة ؟ أهذا الجمالُ المُطلقُ؟ أهو الفنُّ؟ أهو الشِّعرُ؟ أمْ

(١) التَّماسك النَّصِّيِّ من خلال العطف والتِّكرار، بوزنية رياض، ص ٣٥، ويُنْظَر :عِلْم اللُّغَة النَّصِّيِّ بين النَّظرية والتَّطبيق، د. صبحي الفقي ١ / ١٢٠ – ١٢١، ٢٦٧ – ٢٦٩، والاتِّساقُ في العَربيَّة" دِرَاسَةٌ في ضَوءِ عِلْم اللُّغَة الحَديثِ"، جبار سويس، ص ٨٧ – ٩١، ١١٤ .

(٢) ديوانه ٧١ – ٧٢ / ٤ –٦، ١–٤، ويُنْظَر به أيضًا : ٧٤ / ٥ .

مجموع ذلك كلِّه؟ فهو يقولُ ببدايتها : إنَّه لن يذرُفَ الدَّمعَ الحارَّ في مغانيها، ولن يرفعَ صوتَه بالشَّكوى؛ لِمَا سبَّبَتْهُ له من آلامٍ وأشجان، ومِنْ ثَمَّ سيصْبرُ ويصمُدُ، وبالرَّغْمِ من سَهَرِه اللَّيالي، فإنَّه لنْ يلْعنَها؛ لأنَّها سببُ هذا السَّهرِ وهذا الضَّنَى(١).

وذلك وغيرُه يستغرقُ سبعةَ أبياتٍ، إلى أنْ يصلَ للأبيات موضعِ شاهدنا، فيلجأُ فيها إلى الاسْتِبْدَالِ النَحْويِّ المُعجميِّ الفعْليِّ من خلالِ الفعْلِ (تلْهُو) على مثال(تَفْعَل)، في البيت السادس من الأبيات التي معنا، في الجُمْلة الفعْليَّة الخبريَّة المُثْبَتة (تَلْهو) المُتَّخذَة نَمَطَ (الفعْل + الفاعل المُسْتتر)، ومِنْ خلالها يتَّضحُ أنَّه قَدْ استبدلَ بالفعْلِ (تَلْهُو) فعْلاً كان من المُفْترَضِ أنْ يكونَ بمكانه، هو (تَطوفُ)، طبقًا لمعطيات السِّياقِ في البيت الثَّاني من هذه الأبيات، حيثُ يشتركان في جانبٍ من الدَّلالة(٢)؛ وذلك في سَعْي منه إلى تفسيرٍ كثيرٍ من مَاهيَّتها الجماليَّة، ومِنْ ثَمَّ كان استدراجُ المُتَلَقِّي إلى إعادة النَّظَّرِ في فَهْمِ مَاهيَّة هذا اللَّهو وذلك الطَّواف، بالعودة إلى الفعْلِ المُسْتبدَل (طاف يطُوفُ)، ومعرفَة مَا بين الفعلين مِنْ مَعَانٍ في هذه المساحة الشِّعريَّة، ومَا يتعلَّقُ بها، في إطارِ مَا يريدُ الشَّاعرُ التَّركيزَ عليه مِنْ خلالِ وسائلَ مختلفةٍ، مِنْ بينها هذا الضَّرْبُ من الاسْتِبْدَال، فإذا بالمُتَلَقِّي بعد إمعانه النَّظرَ في الأبيات يرى أنَّ "الشَّاعرَ يحاولُ أنْ يرْسُمَها بألفاظه رَسْمًا، يقرِّبُها مِنْ الحقيقة حتَّى تكاد تلمسُهَا لَمْسًا، وتراها رؤيا العين، إنَّها وحيدةٌ، تقطعُ وَحدَها

(١) يُنْظَر: خليفة محمد التِّلِّيسيّ ناقداً وأديبًا، مصطفى محمد جحيدر، ص ١٩٦، وديوان الشَّاعر ٦٩ / ١-٢ .

(٢) يُنْظَر: مقاييس اللُّغَة، ابن فارس، مادة(طوف، لهو) حيث إنَّه إذا كان الطاء والواو والفاء أصلاً واحداً صحيحًا، يدلُّ على دَوَران الشيء على الشيء، وأن يُحفَّ به، ثم يُحمل عليه، يقال طاف به وبالبيت، يطوفُ طَوْفًا وطَوَافًا، ويقولون في الخيال: طافَ وأطافَ. ويُرْوَى:

أنَّى ألَمَّ بكَ الخيالُ يُطيف وطوافُه بكَ ذكرةٌ وشُغوف

ويروى: "ومطافه لك ذكرةٌ وشُغوف، وكانت اللام والهاء والحرف المعتلّ أصلان صحيحان: أحدهما يدلُّ على شُغْل عن شَيءٍ بشيءٍ، والآخرُ على نَبْذِ شيءٍ من اليد، فإنَّ في كلا الجذْرين (طوف، لهو) مَا يدلُّ على الشُّغل واللَّهو .

دروبَ الحُبِّ ومتاهاته في حَيْرةٍ وتردُّدٍ، كأنَّها فقدَتْ أغلى حبيبٍ، فلا تُريدُ أنْ تكتَوي بلَظَى الحُبِّ ثانيةً.

لقد طافتْ كثيراً هذه التي صوَّرَها بالفراشَة؛ لتجْنِيَ ثمارَ الحُبِّ، وتشربَ رحيقَهُ، ولكنَّ الشَّوقَ يُضْنيها، ويؤلِمُها، إنَّها كذئبةُ الغاب، تجوعُ إلى الحُبِّ، ولكنْ لا تُشْبِعُ نَهَمَها فيه؛ لأنَّها حائرةٌ مُتردِّدةٌ، وجِلةٌ خائفةٌ، إنَّها كلبوةٍ، شهوتُها عارمةٌ، فلنْ يستطيعَ أنْ يُطفِئَ هذه الشَّهوةَ، بل ولا يُجفِّفَ مِنْ لَظَاها الضراغمُ والأشبالُ. ولكنْ بالرَّغمِ من ذلك، فإنَّها طِفلةٌ حينما تصيبُها غبْطةٌ لسببٍ مِن الأسباب، لا تُضْمِرُ الشرَّ لأحدٍ، ولكنَّ خَلْف هذا القناعِ أذىً مُتمكِّنًا في طباعِها، إنَّها تلْهُو، وتطوفُ، وتعبثُ بكلِّ المبادئ والقيمِ والمعاني السَّاميةِ التي تَدْعَمُ بناءَ هذه الحياة، كأنَّها ربَّة الجمالِ ترقُصُ في نَشْوةٍ، في مرْجٍ أخضرَ، ويُتوِّجُها زهورٌ شَتَّى، مُختلفةُ الأشكال والألوان"(١).

وهو ما يتَّضح مِن خلاله مدى إسهامِ هذا الاسْتِبْدَال في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ مِنْ خلال ذلك التَّرابُطِ الرَّصْفيِّ بين الأبياتِ السَّابقةِ على موضعِ الاسْتِبْدَال وبين موضعِه، ومَا يحملُه مِنْ معانٍ نصِّيةٍ، كان إيصالُها إلى المُتَلَقِّي هدفًا رئيسًا لدى الشَّاعر.

(١) خليفة محمد التِّلِّيسيّ ناقداً وأديبًا، مصطفى محمد جحيدر، ص ١٩٧ بتصرُّفٍ يسير.

المبحثُ الثَّالثُ

الاسْتِبْدَالُ القوليُّ

الاسْتِبْدَالُ القوليُّ ليس مِنْ قبيلِ اسْتِبْدَالِ الاسْمِ بالاسْمِ أو الاسْتِبْدَالِ الفِعْلِيِّ، بَلْ يتخطَّى ذلك إلى القولِ بأكمله، وذلك " باستخدام (ذلك ،لا) مثلُ قوله تعالى: ﴿ **قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا** ﴾ [الكهف: ٦٤](١)، فكلمةُ ذلك جاءتْ بدلاً مِنْ الآية السَّابقة عليها مباشرةً - ﴿ **أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ...** ﴾ [الكهف: ٦٣]، فكان هذا الاسْتِبْدَالُ عاملاً على التَّرابُطِ النَّصِّيِّ بين الآيات الكريمة. ومن الجدير قولُه: إنَّ الاسْتِبْدَالَ القوليَّ في العربيَّة قد يكونُ - بجانبِ مَا تقدَّمَ - باستخدامِ (كلاَّ)، سواءٌ أكانت حرف جوابٍ، إنْ لم يكن قبلها مَا يَصْلُحُ للرَّدعِ أو للزَّجرِ أم كانت للرَّدِّ والنَّفْي والتَّنبيه(٢). كما أنَّ هذا الاسْتِبْدَالَ قد يكون بأحرف الجواب، نَحْوُ (بَلْ ونَعَم)، وأحرف الاستدراك أيضًا، والنَّفي بأيِّ حرفٍ من حروفِ النَّفي؛ ومن ثَمَّ لا يقتصرُ على (لا) التي هي ترجمةٌ لـ (No) الواردة بالكتب الأجنبية.

وقبل أنْ أبرح هذا المكانَ أودُّ الإشارةَ إلى أنَّ (ذلك) المُتَرْجمة عن الإنجليزية بـ (so) ليس المقصودُ بها كلمةَ (ذلك) التي تَعني الإشارةَ إلى البعيد إشارةً بعديَّةً، نَحْو قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢]، على نَحْو

---

(١) يُنْظَر : Cohesion in English ,p138 حيث ذِكْرُهما النَّصَّ الآتي:

- Is he going to pass the exam? I hope so.

هَلْ سَيجتازُ الامتحانَ؟ آملُ ذَلِكَ، ويُنْظَر : الاتِّساقُ في العَربيَّة" دِراسَةٌ في ضَوءِ عِلْم اللُّغَة الحَديث"، جبار سويس، ص ٦١ – ٦٢ .

(٢) يُنْظَر ديوان خليفة التَّلِّيسي ١٠٢ / ٤، ٢٣٦ / ٥ ، ويُنْظَر أيضًا : شرح المُفَصَّل، ابن يعيش، ٩/ ١٦، ولسان العرب (كلاّ) حيثُ الإشارةُ إلى أنَّها تكون للجواب بمعنى (لا)، ويُكتفَى بها في الردِّ كما يُكتفَى بـ(نعم) و(بلى)، ويُستغنَى عن ذِكْر جملة الجواب بعدها؛ ومن ثَمَّ يُقال إنَّها إذا كانت بمعنى (لا) فهي تدخل على جملةٍ محذوفة فيها نفي لِمَا قبلها، والتقدير: ليس الأمرُ كذلك.

ما سبقَ في مبحثِ الإحالَةِ بالإشارةِ، بل تَعْني (ذلك) المُستَبْدَل بها كلامٌ سابقٌ عليها، كما في الآية السَّابقة من سورة الكهف.

ومثالُ هذا الضَّرْبِ من الاسْتِبْدَالِ مَا جاء في قولِ التِّلِّيسيّ[1]: (من البسيط)

كُلُّ المجانينِ قد قَالُوا وقَد وَصَفُوا
مَا رَاقَ مِنْ حُسْنِها أَوْ مِنْ سَجَايَاهَا
ومَا جُنِنَّا لِطَيْشٍ لا ولا خَبَلٍ
لَكِنْ هُوَ الحُبُّ قَدْ أَمْلَتْهُ عَيْنَاهَا
دِيوَانُنَا كُلُّهُ فِي وَصْفِ غانيةٍ
أَوْ وَصْفِ مَعْرَكَةٍ لِلْحُبِّ خُضْنَاهَا

فهذه الأبياتُ من قصيدة (المجانين) يرى فيها الشَّاعرُ أنَّ كلَّ المُولعين بالحبِّ إلى درجة الجنونِ قدْ قالوا أقوالاً كثيرةً في تلك الفتاة موضعِ الحديث، وأجادُوا وصْفَ مَا أعجبَهم من حُسْنِها أو أخلاقِها، فكأنَّهم أُصيبُوا بالجنون، ثُم يُشيرُ إلى نفسه في صورة الجماعة بأنَّه لم يصلْ إلى مرحلة الجنون بجمالها، بسبب طَيْشِ الشَّباب.

ولكي يؤكِّدَ على ذلك، ويربطَه بمَا سيأتي كانتْ له وقفةٌ من خلال ذلك الاسْتِبْدَالِ القوليِّ المُتمثِّلِ في نَفْي مَا تقدَّمَ منْ قولٍ، باستخدامِ حرفِ النَّفْي (لا)، والتَّقديرُ: لا لم نُجَنّ. ويبرعُ في وصْفِها، وما راق من حُسْنِها وطباعِها بسبب طَيْشٍ، ثُم يعطف أيضًا مُستخدمًا النفي نَفسَه، مُشيرًا إلى أنَّ ذلك لم يكُنْ بسببِ جنونٍ ألمَّ به، أو فسادٍ في أعضائه، ثُم يلجأُ إلى وسيلةٍ أخرى ـ في رأينا ـ من وسائلِ الاسْتِبْدَال القوليِّ، باستخدام الحرف (لكِنْ) المُفيد الاستدراك فقط دون العطف، لوقوع الجُمْلَة بعدَه، مُشيرًا إلى أنَّ مَا سبق منْ قولٍ مُفادُه تفاني الوَلِهين في وَصْفِ هذه الفتاة ذاتِ المنظرِ الجميلِ والأخلاقِ الحسَنَة، كان سببُه ذلك الحُبَّ الذي

(١) ديوانه ١١٦ / ٥، ويُنْظَر به أيضًا : ٦٩ / ٣، ١٠٢ / ٤، ١١٢ / ٤، ١٤٨ / ٥، ٢٣٦ / ٥.

تُبديه عَيْنَاها؛ ولذلك عليك أيُّها المُتَلَقِّي أنْ تَنْتَبه إلى تلك الوسائلِ، التي من شأنها الإسهامُ في تحقُّقِ الاسْتِمْراريَّة الدَّلاليَّة على مدار النَّصِّ؛ ومن ثَمَّ ترابُطُه وعدَمُ ترهُّله، وذلك في إطارٍ من فَهْمِ السِّياق، و"وَضْعِ النَّصِّ في سياقه العامِّ الذي يردُ فيه ومدى مناسَبَة النَّصِّ لهذا السِّياق العامِّ، فمنَ المعروف أنَّ السِّياقَ يشكِّلُ جزءًا مُهمًّا منْ دلالة النَّصِّ، ويوجِّهُهُ الوِجْهةَ الصَّحيحةَ"(١)، على نَحْو مَا سبقَ من تحليلٍ، جذب الباحثَ فتفاعلَ معه مُبيِّنًا مدى إسهامِ نَحْوِ النَّصِّ في التَّرَابُط النَّصِّيِّ، من خلالِ الإحالةِ والاستبدال(٢).

وبناءً على ذلك يُمكنُ القولُ بأنَّ شِعْرَ خليفة التِّلِّيسيّ قد استطاعَ بوصْفه نصًّا أنْ يجذبَ الباحثَ، باعتباره مُتلقيًا، فكان التَّفاعلُ بينهما (النَّص والمُتلقي)، ذلك التَّفاعلُ الذي أسفرَ عن بيانِ ملامحِ الإحالة بقسميها الدَّاخليَّة والخارجيَّة، منْ خلالِ ضروبها المُختلفة، وكذلك كان بَيانُ ملامح الاستبدالِ، بضروبه المُختَلفَة؛ ومن ثَمَّ كان بيانُ التَّرَابُط النَّصِّيّ في نَحْوِ النَّصِّ - من خلالهما - في شعر التِّلِّيسيّ.

(١) كيف نقرأ النَّصَّ القديم، د. محمد حماسة، ص٤٧ .

(٢) يُنْظَر: الإحالة في نَحْو النَّصِّ، د. أحمد عفيفي ص ٥٤٣ حيثُ إشارتُه إلى أنَّه في بعض الأحيان نجد أنَّ الإحالةَ لا تصدق على شيءٍ داخل النَّصِّ، بل تمتدُّ إلى شيءٍ خارج النَّصِّ، ممَّا يدلُّ على وجود علاقات مُتشابكةٍ ومُتفاعلةٍ بين اللُّغَة والمواقف الاجتماعية والثقافية العامَّة، بل بينها وبين الخطاب بشكلٍ عامٍّ؛ لأنَّ الإحالةَ تقومُ على مبدأ التفاعلِ بين المتلقي والنَّصِّ والمواقف العامَّة الخارجة عن النَّصِّ، وبدون هذا التفاعلِ يصيرُ الانتفاعُ بقراءة النَّصِّ شيئًا غيرَ مؤكَّدٍ.

الخـاتمة

هكذا نأتي إلى خاتمة البحث في "التَّرابُط النَّصِّيّ في شِعْرِ خليفةَ التِّلِّيسيّ، دراسةٌ تطبيقيَّةٌ في ضَوءِ نَحْوِ النَّصِّ"، والذي كانتْ غايتُه الإجابَةُ على السؤالين المذكورين في مدْخَله، عن طريقِ تَلَمُّسِ ملاحظِ التَّرابُطِ النَّصِّيِّ مِنْ خلالِ الإحالَة والاسْتِبْدَال، وأثرهما في المعنى النَّصِّيِّ، وعلى الرَّغم مِمَّا بثنايا البحث، فلا مانع مِنَ التَّأكيد على النِّقاط التَّالية:

تَبَيَّنَ أنَّ لكُلٍّ من الإحالة والاستبدال دوراً في تحقُّقِ التَّرابُطِ النَّصِّيِّ، فلَمْ يَكُنِ النَّصُّ قَلقًا؛ ومِنْ ثَمَّ تحقَّقتْ النَّصِّيَّةُ في شِعْرِ خليفة التِّلِّيسيّ، وبناءً على ذلك بَدَتْ صلاحيَّةُ الدِّيوان لأنْ نختبرَ على مَحكِّه مقولات نَحْوِ النَّصِّ مُتمثِّلةً في التَّرَابُط النَّصِّيِّ من خلال مُحدِّدات البَحْث (الإحالة والاستبدال)؛ ومن ثَمَّ، فإنَّ مَا تقدَّمَ على مدار التَّحليلِ يُمكنُ أنْ يكونَ إسْهامًا في إعادة بناءِ النَّصِّ وبَعثه، مِنْ خلالِ إبراز شبكة العلاقات داخلَهُ، تلْكَ العلاقاتُ التي بدا مِنْ خلالِها كَيْفيَّةُ استخدامِ التِّلِّيسيّ اللُّغَةَ في الخطاب الشِّعريِّ، فكانَ أسلوبُه في التَّعبيرِ مَحطَّ نَظَرٍ، مَبْعثُه امتلاكُ ناصيَة أدوات التَّعبير، مِنْ خلال النَّحْو والمُعْجَم، وهو مَا انعَكَسَ على الصورة الشِّعريَّة لديه؛ ومِنْ ثَمَّ النَّصُّ، فكان ذا قيمَة اتِّصاليَّة، طرفاها النَّحْوُ واللُّغَةُ.

ظَهَرَ التَّرابُطُ النَّصِّيُّ الشديدُ بين مكوِّنات النَّصِّ لدى التِّلِّيسيّ، مِنْ خلالِ اهتمامه المُنصَبِّ على تلك الوسائلِ اللُّغَويَّة التَّي تَرْبطُ بينَ العناصرِ المُكوِّنَة للنَّصِّ، كالإحَالَة بصورِهَا المُختَلفَة، والاسْتِبْدال، وغير ذلك مِنَ الوسائلِ التي ورَدَ الحديثُ عنها عرضًا أثناء التَّحليل، نَحْوُ الحذف، والعَطْف، فكان إحكامُ علاقات الأجزاء، في إطارٍ من استدعاءِ المُتَلَقِّي، وهو ما يمكِّننَا مِنَ القول بأنَّ ديوان التِّلِّيسيّ يشكِّل في مُجمله نصًّا ناجحًا، يتضمَّنُ من الوسائلِ التَّرابُطيَّة مَا يجعلُه أنموذجًا يصلُحُ لإيضاحِ هذه الوسائلِ التي تجعلُ منه نصًّا ذا معنًى وفائدةٍ تواصُليَّةٍ، فأمكنَنَا القولُ

بأنَّ النَّصَّ لدى التِّليسيِّ مدينٌ في نُمُوِّه لوسائلِ التَّرابطِ، نَحْوُ الإحالةِ والاستبدالِ موضوع البحث.

تبيَّن أنَّ الإحالةَ مِنْ مُصطلحاتِ النَحْويين واللُّغويين القدماء، لكنَّ النَّصِّيّين توسَّعوا في استخدامها؛ ومن ثَمَّ كان إسهامها في الاسْتِمْراريَّة الدَّلاليَّة لدى خليفةَ التِّلِّيسِيّ، مِنْ خلالِ الإحالةِ بالضَّمائرِ، وأسماءِ الإشارةِ، والاسْمِ الموصول، والإحالَةِ بـ (أل) غيرِ الموصولةِ، والإحالَةِ بالمقارنةِ، في ضوءِ ما حدِّد للبحثُ مِنْ مَسَار . وقد تَبَيَّنَ أنَّ الاستمراريَّةَ الدَّلاليةَ النَّاتجةَ عنِ الإحالةِ بضروبها المُختلفةِ مَدِيْنَةٌ إلى مَهارةِ التِّلِّيسِيّ في توظيفه الإحالَةَ، الخارجيَّةَ والدَّاخليَّةَ، آخذةً بيد المُتَلقِّي سارحًا بين جنباتِ النَّصِّ الشِّعريِّ؛ من أجلِ بيانِ كُنْهِ إسهامها في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ، ودورها في البِنْيَةِ الكُبري للنَّصِّ، مُتَّصِفةً بالوضوحِ وعَدَمِ الغموضِ، مُعْرِبَةً عَنْ قَصْدَ مُنْشِئ النَّص.

هذا، وكانت الإحالة الدَّاخليَّةُ - سواءٌ أكانت قبليَّةً أم بعديَّةً - أكثرَ من الخارجيَّة، وذلك راجعٌ إلى الرَّصْفِ النَّحويِّ في بناءِ الجُمَلِ داخلَ النَّصِّ. وكانت الإحالة الخارجيَّةُ على خارج النَّصِّ أو السِّياق الخارجيِّ، الذي يُعدُّ بمثابة الجُزءِ مِنَ النَّصِّ أو السَّبب فيه . هذا، وقد كانت هذه الإحالة الخارجيةُ أكثرَ مَا كانتْ في مُسْتَهَلِّ القصائد؛ ومن ثَمَّ تكثرُ في القصيدةِ الواحدةِ بعد ذلك، اعتماداً على تلك الإحَالةِ الأُولى، وكثيراً ما كانَ يُشكِّلُ عنوانُ القصيدةِ أو استهلالُها مَلْمَحًا مُهمًّا في إدراك المُحالِ عليه.

انتهى البحث إلى حاجةِ الإحالةَ الخارجيَّةَ إلى إعادة النَّظَرِ في أهميتها، مِن مُنْطَلَق أنَّها تُسْهِمُ في ترابُطِ النَّصِّ أو في خَلْقِه، مِنْ جهةِ رَبْطِه بالعالمِ الخارجيِّ أو السِّياق، فهي تُقدِّمُ اسْتِمْراريَّةً دَلاليَّةً ناتجةً عن إعْمَالِ ذِهْنِ المُتَلَقِّي في كُلِّ جُمْلَةٍ بها إحالةٌ خارجيَّةٌ، مِمَّا يجعلُكَ دائمَ البحث عن هذا المرجعِ، وهو ما يترتَّبُ عليه

أنَّ ثَمَّة قَصْدية مُعينةً، قَصَدَها الشَّاعرُ مِنْ وراء هذه الإحالَة المُفردة في الجُملة الأولى مِنَ النَّصِّ أو المُتكرِّرة في ثناياه . لكنْ ينبغي التنبُّه إلى أنَّ ما تُحقِّقهُ الإحالَةُ الخارجيَّةُ مِنْ استمراريَّةٍ دَلاليَّةٍ لا تتساوى فيه كلُّ الضَّمائر، على نَحْو ما سبق في شعر خليفة التِّلِّيسيّ ، وبذلك يكونُ التِّلِّيسيّ قَد اسْتَطاعَ أنْ يجعلَ للإحالة الخارجيَّة مِنَ الأهمِّيَّة ما يجعلُها مُسْهِمَةً في خَلْق النَّصِّ، مع الاحتفاظ للإحالة الدَّاخليَّة بتفوُّقها في الأهميَّة، مِنْ جهة إسهامها في التَّرابُط الرَّصْفيِّ؛ ومِنْ ثَمَّ التَّرابُط المفهوميّ.

يعدُّ الضميرُ من العناصر المُهمَّة قَصْد دراسة الإحالة في النُّصوص، على نَحْو مَا جاء لدى التِّلِّيسيّ، لاسيَّمَا ضميرُ الغائب، البارز منه والمُسْتَتر، وهنا أُشيرُ إلى مَا لُوحظَ مِن انتشار المُسْتَتر في شعْره، مِمَّا طبَعَهُ بطابع كثافة الإيحاء وتقلُّص التَّصريح، وهذا يَرْجعُ إلى أنَّ موضوعَ الكلام لدى خليفة التِّلِّيسيّ يزاحمُه، مِمَّا جعلَهُ يستغني عن تكرار اللَّفْظ المعبِّر عن موضوع الحديث، ويعبِّرُ عنه بالضَّمائر، في إطارٍ من دَعْمِ سِمَة النَّصِّيَّة، وهنا لابُدَّ مِنَ الإدلاء بأنَّ الضَّميرَ لَم يكُنْ مؤدِّيًا التَّرابُطَ داخلَ الجُمْلَة فقَطْ، بل تجاوزَها إلى التَّرابط النَّصيِّ، مُزيلاً اللَّبْسَ والإبهامَ في كثيرٍ مِنَ المواضع.

مِنْ خلال استقراء ديوان التِّلِّيسيّ لُوحظَ أنَّ الإحالةَ باستخدام ضمَائر الغَيْبَة أكثرُ مِنَ الإحالة بضمَائر التَّكلُّم والخطَاب، وذلك راجعٌ إلى سَرْده أحداثًا مَضَتْ أو سَبَقَ الحديثُ عنها، أمَّا عندما يكونُ النَّصُّ مُتَّصفًا بصفَة الحواريَّة، فإنَّ استخدامَه ضمائرَ التكلُّم والخطَاب يفوقُ ضمائرَ الغَيْبَة، كمَا لُوحظَ في الإحالَة بالضَّمير إحالةً داخليَّةً أنَّها كانتْ أكثرَ مِنَ الخارجيَّة، وأنَّ الإحالةَ القبْليَّة كانتْ أكثرَ مِنَ البعديَّة ، وقد لُوحظَ تفوُّقُ الإحَالَة بالضَّمير على غيرها مِنْ ضرُوب الإحَالَة لدى التِّلِّيسيّ، بغير إسرَاف في الإضمار.

اتَّضح أنَّ للإحالةِ بالضَّمائر في شِعْرِ التِّليسيِّ وظائفَ، تُعزِّزُ مِنْ كَونها ضربًا مِنْ ضروب الإحالةِ مُسْهِمةً في التَّرابُطِ النَّصِّي، تكمُنُ في الرَّبْطِ المُقيَّدِ بالمقصديَّة السِّياقيةِ، وتعزيزَ بنْيَةِ التَّعدُّد المرجعيِّ أو التَّعدُّد الإحاليِّ؛ ومِنْ ثَمَّ تَحفيزُ القارئَ وتنشيطه على فَهْمِ المُحتوى المفهوميِّ للأحداثِ المُتعاقبة عَبْرَ البِنْيَة النَّصِّيَّة وإدْراكه بطريقةٍ جيِّدَة، وتكمنُ كذلك في توجيه الخطابِ نَحوَ النَّصّ نفسه، وأخيرًا توجيه الخطابِ نَحْوَ المقام أو سياق الحال.

هذا، وقد تلَتِ الإحالةُ بالاسْمِ الموصولِ تفوُّقَ الضَّميرِ، ثُمَّ الإحالة باستخدامِ (أل) غيرِ الموصولة. وفي الإحالة بالموصول لوحظَ أنَّ الإحالة القَبْلِيَّةَ بالموصول كانتْ أكثرَ مِنَ الإحالةِ البَعْدِيَّةِ، وذلك مّا يُلْحَظُ في الاستخدامِ العامِّ للإحالة القبليَّةِ في شعر خليفة التِّلِّيسِيِّ؛ بِسَبَبِ طُغْيانِ سَرْدِه أحْدَاثًا مَضَتْ، لكنَّ البعديَّةَ لَمْ تكُن مُسْهِمَةً في إيجادِ نوعٍ مِنَ المعنى غيرِ الواضحِ، بل كانتْ مُسهمة في التَّرَابُط النَّصِّيّ، بسبب أنَّها جعلت المُتلقي مُنْتَبِهًا في حالةِ تَرَقُّبٍ إلى المُحال عليه، الذي يأتي لاحقًا.

تنوعت الإحالة بالإشارة في ديوان التِّلِّيسِيّ، فكانتْ قريبةً ووُسْطى وبعيدة، امتثالاً للمعنى النَّصِّيِّ، وتنوعت بين الإحالةِ الخارجيَّة والدَّاخليَّة، مُسْهِمةً في التَّرابُطِ النَّصِّيِّ في شعر الشَّاعر، لكنَّها كانت أقلَّ استخدامًا لديه من اسْتخدامه الإحالةِ بالضَّميرِ، ثُمَّ الإحالةُ بأل غيرِ الموصولةِ، ثُمَّ الإحالةُ بالاسمِ الموصولِ. لكنْ يُلاحَظُ أنَّ مواضعَ الإحالةِ القُرْبَى كانتْ أكثرَ من الوسْطَى، والوسْطَى أكثر من البعيدة.

كَثُرت الإحالةُ باستخدامِ (أل) غيرِ الموصولةِ في شعرِ التِّليسيِّ، سواءٌ أكانت (أل) العَهْدِيَّةَ، بأنواعها المُختلفةِ أم كانت (أل) الجِنْسيَّةَ بأنواعها المُختلفة، تاليةً الإحالةَ بالضَّميرِ والإحالةَ بالموصولِ، مِنْ حيثُ الاستخدامُ الكَمِّيُّ، وذلك مَرْجِعُهُ

كَثْرَةُ المُعَرَّف بها تعريفًا عهديًّا أو جنْسيًّا؛ ومن ثَمَّ كانتْ مُسْهمةً في تحقُّق الاسْتمْراريَّة الدَّلاليَّة لدى الشَّاعر، لافتةً انتباه المُتلقي إلى الأعماق الوجْدانيَّة الدَّفينة التي عبَّر عنها، ومُبَرْهنَةً في الوقت نفسه على أنَّ الشِّعْرَ ليس خيالاً وموقفًا ووجدانًا وعاطفةً فَحَسْبُ، بل هو- إلى جانب هذا كلِّه- صياغةٌ فَنِّيَّةٌ جميلةٌ، تستجيبُ للقوانين الدقيقة الكامنة في الموسيقى الشِّعريَّة ورَصْف المفردات الشِّعريَّة والالتزام الدَّقيق بالوَزْن والقافية، وهو مَا لا يستطيعُه إلاَّ كلُّ شاعرٍ موهوبٍ، فكان بالإمكان القولُ بأنَّ خليفةَ محمد التِّلِّيسيّ كان ذلك الشَّاعر.

اتَّصَفَ شِعْرُ التِّلِّيسيِّ بكَوْن المُقارنة ضَرْبًا منْ ضروب الإحالة في شِعْره، سواءٌ أكانت عامَّةً أمْ خاصَّةً، باستخدام اسْم التَّفضيل، فاتَّضح أنَّها تعبيراتٌ إحاليةٌ، لا تستقلُّ بنفسها، وهو ما يؤهِّلُها لأنْ تكونَ وسيلةً من وسائل التَّرابُط؛ ولذا فأينما وردتْ هذه الألفاظُ اقتضى ذلك من المخاطَب أنْ ينْظُرَ إلى غيرها بحثًا عمَّا يحيلُ عليه المتكلِّمُ، وهذا ما ابْتَغاهُ التِّلِّيسيّ منْ وراء قَصْد اسْتخدامها.

وكما كان الأمرُ مع الضَّمائر وأسماء الإشارة، من حيثُ احتمال كون المُحال عليه خارجيًّا أو داخليًّا، فقد كان ذلك مع ألفاظ تلك المقارنة، التي يُمكنُ وصْفُها كَمِّيًّا بأنَّها كانتْ أقلَّ ضروب الإحالة اسْتخدامًا في شِعْر التِّلِّيسيّ؛ منْ مُنطَلَق كَون الشَّاعر يتمتَّعُ بنَفْسيَّةٍ لا تقبلُ النَّظَرَ إلى الآخر مُقارنًا به نَفْسَه، بل إنَّه يفعلُ أو يعبِّرُ أو يَقولُ بدون تجريح الآخرَين، فلا يضعهم ـ أعني الموصوفَ أو المنعوتَ أو محورَ الحدَث ـ في مُقابَلة مع غيرهم غالبًا. لكنْ عندما كان الأمرُ يتطلَّبُ ذلك، فإنَّه لا يجدُ مناصًا من استخدامه المُقارنةَ، بألفاظها المُتَّسقة مع السِّياق، في إطار البِنْيَة اللُّغويَّة المُتَّسقَة بدورها مع المعنى النَّصِّيِّ، بما فيه منْ دلالةٍ ووَزْنٍ وقافيةٍ؛ منْ أجْل التَّرابُط النَّصِّيِّ المُبْتَغَى، مُضافًا إليه الرَّغبةُ في تفاعلِ المُتلقِّي مع النَّصِّ، فكان مَا كانَ.

بَدَا مِن خلالِ شِعرِ التِّلّيسيّ أنَّ الاسْتِبْدَالَ صورةٌ مِنْ صورُ التَّرابُطِ النَّصِّيِّ التي تتمُّ في المستوى النَّحْويِّ المُعْجمِيِّ بين كلماتٍ أو عباراتٍ، وأنَّ مُعظمَ حالاتِ الاسْتِبْدَالِ النَّصِّيّ قبليَّةٌ، أي علاقَةٌ بين عنصرٍ مُتأخرٍ وعنصرٍ متقدِّمٍ في النَّصِ، وانتهى البحثُ إلى القولِ بأنَّ الاستبدالَ شأنُه شأنُ الإحالَةِ، لكنَّه يختلفُ عنها في كَوْنِهِ يتمُّ في المستوى المُعجميِّ بين كلماتٍ أو عباراتٍ، بينما الإحالَةُ علاقةٌ معنويَّةٌ تقع في المستوى الدَّلاليِّ.

لُوحِظَ أنَّ الاسْتِبْدَالَ يختلفُ عن الحذفِ، فالعلاقَةُ بين عُنصرَي الاسْتِبْدَالِ تترك أثرًا، هو وجودُ أحدِ عناصرِ الاسْتِبْدَالِ، حيثُ إنَّ المُستبدَلَ يبقى مؤشِّرًا يسترشدُ به القارئُ؛ للبحثِ عن العنصرِ المُفترَضِ، ممَّا يمكِّنهُ مِنْ مِلْءِ الفراغِ الذي يَخْلُفُه الاسْتِبْدَالُ، أمَّا الحذفُ، فهو علاقَةُ استبدالٍ مِن النقْطَةِ (صفر) أو مَا يُسمى بالاكتفاءِ بالمَبْنَى العدمِيِّ، أي أنَّ الاسْتِبْدَالَ يتركُ دليلاً، يتمثَّلُ في وجودِ أحدِ عناصرِه، حيثُ يكونُ المستبدَلُ بمثابةِ العلامَةِ التي يسترشدُ بها المُتَلَقِّي في التوصُّلِ إلى الكلمةِ المُفتَرَضِ وجودُها. ولَمَّا كان ذلك كذلك، فإنَّه من الجدير بالذِّكر أنَّ استخدامَ الاستبدال الاسميّ في التَّرَابُطِ النَّصِّيِّ لدى التِّلّيسيّ كان أكثرَ من استخدامِه الاستبدال القوليِّ والفعْلي، وأنَّ ضربًا من حَذْفَ الموصوف وإقامَةِ الصِّفة مقامَه يدخلُ تحتَ هذا الاستبدالِ (الاسميّ)، بشَرْطِ وجودِ الوَحْدَةِ اللُّغويَّةِ المُستبدَلَةِ فيما سبقَ منَ النَّصِّ، وهو ما ترتَّبَ عليه القولُ بأنَّ مجالَ الاسْتِبْدَالِ الاسْميِّ مجالٌ رَحْبٌ للحذفِ، سواءٌ أكانَ الحذفُ مِن الأوَّل أَمْ مِن الثَّاني، وتلكَ مهارةٌ لُغويَّةٌ لا يلجأُ إليها إلاَّ مَن امتلكَ ناصيةَ اللُّغةِ، على نَحْو مَا ورد في ديوان التِّلّيسيّ.

لَقَدْ أسْهَمَ الاسْتبدَالُ الفِعْليُّ أيضًا في التَّرابُطِ لدى التِّلّيسيّ، لكنْ ينبغي التنبُّه إلى أنَّه إذا كان قَدْ شاعَ بين اللُّغويين أنَّ هذا الضَّرْبَ مِن الاسْتِبْدَالِ يكمُنُ في صيغة

(يَفْعَل)، فإنَّه بإمعانِ النَّظَرِ يُمْكِنُ القولُ إنَّ صيغَةَ (يَفْعَل أو تَفْعَل أو يَفْعَلُون . . .إلخ) ليست الوحيدةَ التي يُمكِنُ أنْ يحدُثَ الاسْتِبْدَالُ الفِعْلِيُّ مِنْ خِلالِها؛ ومِنْ ثَمَّ ينبغي أنْ نقولَ: كلُّ مَا كان على وَزْنِ(يَفْعَل أو تَفْعَل أو يَفْعَلُون . . .إلخ) مِن المفرداتِ المُعْجميَّة، وكان وارداً في سياقِ استبدالٍ، فإنَّه مِنْ قبيلِ الاسْتِبْدَالِ الفِعْلِيِّ، وهو مَا يترتَّبُ عليه القولُ بأنَّه لا يَنْبَغِي النَّقْلُ الحرفِيُّ مِن الإنجليزيةِ أو غيرِها مِنَ اللُّغاتِ الأجنبيَّةِ، بَلْ ينبغي أنْ يُردَفَ ذلك بمَا يقابلُه في العربيَّة طبقًا للبناءِ اللُّغويِّ لهذه اللُّغةِ . أَضِفْ إلى ذلك أنَّ هذا الاسْتِبْدَالَ قَدْ يتحقَّقُ في صورةِ صِيغَةِ المَاضِي مِنْ(يَفْعَل أو تَفْعَل أو يَفْعَلُون . . .إلخ)، بَلْ إنَّ بَدَلَ الفعْلِ مِنَ الفعْلِ قَدْ يدخلُ في هذا النِّطَاقِ، وهو مَا ينطبقُ على إبدالِ الاسْمِ مِنَ الاسْمِ؛ ومِنْ ثَمَّ فلا أرى غضاضةً في جَعْلِ بدَلَ الكُلِّ مِنَ الكُلِّ، وبَدَلَ الجُزءِ مِنَ الكُلِّ، وبَدَلَ الاشتمالِ، مِنْ قَبِيلِ الاسْتِبْدَالِ، باستثناءِ بدلِ الغَلَطِ والنِّسيانِ، مِنْ مُنْطَلَقِ أنَّ نَحْوَ النَّصِّ مؤسَّسٌ على نَحْوِ الجُمْلَة.

تبيَّن أنَّ الاسْتِبْدَالَ القوليَّ يختصُّ باستبدالِ القولِ بأكمَلِه، وذلك " باستخدامِ (ذلك، لا)، وأنَّه يُضافُ إلى ذلك في العربيَّةِ كونُه باستخدام (كلاَّ)، سواءٌ أكانتْ حرفَ جوابٍ، أَمْ كانتْ للرَّدِّ والنَّفْي والتَّنبيه. كما أنَّ هذا الاسْتِبْدَالَ قَدْ يكونُ بأحرف الجوابِ، نَحْوُ (بَلْ ونَعَم)، وأحرف الاستدراكِ أيضًا، والنَّفي بأيِّ حرفٍ من حروفه؛ ومن ثَمَّ لا يقتصرُ على (لا) التي هي ترجمةٌ للإنجليزيةِ (No)، وفي إطار ذلك كان التَّنويه إلى أنَّ (ذلك) المُتَرْجمةَ عن الإنجليزية (so) ليس المقصود بها كلمة (ذلك) التي تعني الإشارةَ إلى البعيد إشارةً بعديَّةً، على نَحْو ما سبق في مَبْحَثِ الإحالَةِ بالإشارةِ، بَلْ تعني (ذلك) المُستَبْدَل بها كلامٌ سابقٌ عليها؛ ومن ثَمَّ كان التَّنبيه على هذا الأمرِ واجبًا؛ للفرق بين العربيَّة والإنجليزية.

تبيَّنَ مِنْ خلال بَحْثِ التَّرابُطِ النَّصِّيِّ في شِعْرِ التِّلِّيسِيِّ أنَّه لا ينبغي اللَّهث وراءَ

كلِّ ما في الكتبِ الأجنبيَّة، بل ينبغي إعمالُ العقلِ فيه والاسترشادُ به في ضوءٍ مِنْ دراساتِ القدماءِ والمُحدثين العرب، فالنَّحْوُ العربيُّ ـ على سبيل المثال، وإنْ لَمْ يكُنْ نَحْوَ نَصٍّ بالمفهومِ الحديث، فإنَّه عِلْمٌ نصِّيٌّ بالمفهومِ العام؛ لتعلُّقه الوثيقِ بالقرآنِ الكريمِ والشِّعرِ، وله إسهاماتُه الواضحةُ في هذا، فمفاهيمَ العطفِ والإحالَةِ والإشارةِ والاسْتبْدَالِ والحذْفِ والوصْلِ وأدواتِ المقارنةِ ليستْ بعيدةً عن مقولاتِ النَّحْوِ العربيِّ والبلاغة العربيَّة.

تبيَّن مِنْ خلالِ كلِّ مَا تقدَّم ـ على مدارِ دراسةِ الإحالةِ والاسْتبْدالِ ـ أنَّ ثَمَّة مسئوليةً على المُتلقِّي، تكمُنُ في أنَّه شريكُ المُبدعِ في جَدْلِ ضفائرِ التَّرابُطِ النَّصِّيِّ؛ ومن ثَمَّ تَفَهُّم النَّشاطِ اللُّغويِّ والمُعجَميِّ، ومَا وراء الدَّلالاتِ الموجَّهَة؛ ولذلك فإنَّ استخدامَ الشَّاعرِ لكلِّ مَا تقدَّمَ تحليلُه أو استقراؤه في ضوءِ ما حُدِّدَ للبحثِ مِنْ مَسَارٍ، لم يكُنْ إلاَّ مِنْ مُنْطَلَقِ قَصْدِه توجيهَ المُتلقِّي إلى مُشاركتِه في تشكيلِ المعنى النَّصِّيِّ، ذلك المعنى الذي أرادَ له الشَّاعرُ أنْ يظهرَ في صورةٍ مُتماسكةٍ، قوامُها كيفيةُ استخدامِ الوسائلِ اللُّغويَّة، في تلك الصُّورةِ المَبْنِيَّةِ على إتقانِ النَّسْجِ الشِّعريِّ. هذا، وإنْ كان التِّلِّيسيّ يتميَّزُ بأنَّه قد اسْتطاع توظيفَ كُلٍّ مِنْ الإحالةِ والاستبدالِ، بضروبهما المُختلفة، في توافُقِ النِّظامِ اللُّغويِّ مع النَّسْجِ الشِّعريِّ، على نحوِ ما سَبَقَ مِنْ إشارةٍ، وإنْ كان يتَّفقُ مع غيره في هذا الأمر، فإنَّه لا يتَّفقُ معه في كَونِ الإحالة أو الاستبدال في مكانه من شعر التِّلِّيسيّ مُعتمداً على ما يُتيحه النِّظامُ العروضيُّ من زحافاتٍ، وما يُتيحه له المعنى المُعبَّر عنه مِن اختيارٍ مُعجميٍّ للألفاظ المُستخدَمَةِ في شِعْرِه أو نَصِّه، مَوضِعِ الإحالةِ أو الاستبدال.

المصادر والمراجع

أوَّلا : المصادر والمراجع العربيّة :

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم .
- الإبداع الموازي "التَّحليل النَّصِّيّ للشعر" ، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للنَّشْر والتَّوزيع، القاهرة، ٢٠٠١ م.
- الإبهام في شعر الحداثة "العوامل والمظاهر وآليات التَّأويل" ، للدكتور عبدالرحمن محمد القعود، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٢ م.
- الاتِّساق في الخطاب الشعري "من شمولية النَّصِّيَّة إلى خصوصية التَّجربة الشعريَّة" ، إبراهيم بشار، مجلة المخبر، العدد السادس، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ٢٠١٠ م.
- الاتِّساقُ في العَربيَّة "دِرَاسَةٌ في ضَوءِ عِلمِ اللغَةِ الحَدِيثِ" ، جبار سويس حنيحن الذهبي، رسالة ماجستير، بكلية الآداب، جامعة المستنصرية، العراق، ٢٠٠٥ م.
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، د.ت.
- الإحالة بالضمائر ودورها في تحقيق الترابط في النَّصِّ القرآني، نائل محمد إسماعيل، مجلة جامعة الأزهر، مج ١٣، ع ١(B)، غزة، فلسطين، ٢٠١١ م.
- الإحالَة وأثرها في دلالة النَّص وتماسكه، د. محمد محمد يونس علي، مجلة الدِّراسات اللُّغويّة، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلامية، السعودية، المجلد السادس، العدد الأول، المحرم – ربيع أول ١٤٢٥هـ – أبريل–يونيه ٢٠٠٤م.
- الإحَالَة ودورها في التَّماسك النَّصِّيّ "رواية في سبيل التَّاج للمنفلوطي نموذجًا" ، دنيا بن قسمي، رسالة ماجستير، بكلية الآداب، جامعة الحاج لخضر، باتنة ، الجزائر، ٢٠٠٩ – ٢٠١٠ م.

– ارتشاف الضَّرْب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي ت ٧٤٥هـ، تحقيق د . رجب عثمان محمد، مراجعة د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م.

– استراتيجيات الخطاب "مقاربة لغوية تداولية"، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت ،دار أويا، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤ م.

– استعمالات الاسم المُنكَّر في العربيّة، محمد سيدي الزروق الأنصاري، رسالة ماجستير، بكلية الآداب، جامعة سبها، ليبيا، ٢٠٠٦ م.

– الانسجام النَّصِّيُّ وأدواته، الطيب العزالي، مجلة المخبر "أبحاث في اللُّغَة والأدب الجزائريّ"، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد الثامن، ٢٠١٢ م.

– الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨ م.

– أثرُ التكرار في التماسُكِ النَّصِّيِّ "مقاربة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات د.خالد المنيف، للدكتورة نوال بنت إبراهيم الحلوة، مجلة جامعة أم القرى، العدد الثامن، السعودية، مايو ٢٠١٢ م.

– أخبار أبي القاسم الزَّجاجي ت ٣٣٧ هـ، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتليّ، دار الرشيد للنشر، العراق، سلسلة كتب التراث (٩٥)، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٥م.

– أساليب الشعرية المعاصرة، د.صلاح فضل، شركة الأمل، القاهرة، ١٩٩٦م.

– أسباب نزول القرآن، للواحدي، "أبو الحسن عليّ بن أحمد ت٤٦٨هـ"، تحقيق ودراسة كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العِلْمِية، بيروت، لبنان، الطَّبْعَةُ الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩١ م.

- أسرار العربية، لأبي البركات بن الأنباري ت ٥٧٧ هـ، تحقيق محمد بهجت البيطار، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.
- الأسلوبية والأسلوب، للدكتور عبد السلام المسدي، الدَّار العربيّة للكتاب، طرابلس-تونس، الطبعة الثَّالثة، ١٩٨٢م.
- الأسلوب وعلم الأسلوب، للدكتور موريس أبو ناصر، الثقافة العربيّة، السنة الثانية، العدد التاسع ، سبتمبر، ١٩٧٥م.
- أصول تحليل الخطاب في النَّظرية النَّحْوية العربية تأسيسُ نَحْو النَّصِّ، د. محمد الشاوش، جامعة منوبة، تونس، الطَّبْعَةُ الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م.
- الأصول في النحو، ابن السَّرَّاج، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م.
- أقنعة النصِّ، سعيد الغانمي، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، العراق، الطَّبعة الأولى، ١٩٩١م.
- أمالي ابن الحاجب، أبو عمرو عثمان بن الحاجب، تحقيق فخر صالح سليمان قداره، عمّان، دار عمار، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م.
- أمالي ابن الشَّجرِيّ، لابن الشَّجرِيّ " هبة الله بن علي العلويّ ت ٥٤٢ هـ "، تحقيق الدكتور محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام " جمال الدين بن هشام الأنصارى ت٧٦١هـ "، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية، بيروت ، لبنان، ١٩٩٥م.
- البديع في علم العربيّة، ابن الأثير ت ٦٠٦ هـ، تحقيق ودراسة د . فتحي أحمد عليّ الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

- البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله محمد الزركشي، ت ٧٩٤ هـ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- بلاغة الخطاب وعِلْم النَّصِّ، للدكتور صلاح فضل، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ١٩٩٢م.
- بناء الجُمْلَة العربيّة، للدكتور محمد حماسة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- البنيات اللِّسانية في الشِّعر، ليفين صمويل، ترجمة الولي محمد والتوازني خالد، المغرب، ١٩٨٩م.
- بنية النَّصِّر في سورة الكهف "مقاربةٌ نصيَّة للاتِّساق والسِّياق، شعيب محمودي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٠ م.
- البنيوية في اللُّغة والأدب والخطاب، د. الصادق إبراهيم البصير، منشورات جامعة سبها، ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ م.
- البيان والتبيين، للجاحظ ت ٢٥٥ هـ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥م.
- تبادل الضمائر في سورة الكافرون دراسة تحليليَّة، د.آلاء طارق محمود، د. عائشة خضر، مجلة كلية التَّربية والعِلْم، ج ١٧، ع ٤، بغداد، العراق، ٢٠١٠م.
- تجليات الخطاب الأدبي،للدكتور يوسف نوفل،دار الشروق، القاهرة، الطَّبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- تحليل الخطاب، جليان براون ،وجورج يول، ترجمة محمد لطفي الزليطي، ومنير التركي، جامعة الملك سعود، دار النَّشر العلمي والمطابع، الرياض، السعودية، ١٩٩٧م.

- تحليل الخطاب الشِّعري من منظور اللِّسانيّات النصيّة، تحوُّلات الخطاب النَّقدي المعاصر، أحمد مداس بن عمار، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٦م.
- تحليل اللَّفظ وتقويم المعنى وأثرهما في التراث النَحْوي ،للدكتور عبد السلام السيد حامد، رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٩٧م.
- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان الأندلسي، تحقيق الدكتور حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ١٤١٩ هـ-١٩٨٨م.
- الترابط النَّصِّيِّ في رواية النداء الخالد لنجيب الكيلاني "دراسة تطبيقية في ضوء لسانيات النَّصِّ"، عيدة مسبل العمري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، السعودية، ١٤٣٠هـ.
- التَّضمين العروضي في الطويل وبناء شعر الأعشى " دراسة نصية في ضوء العلاقات النَحْويّة الرَّأسية والأفقية ، للدكتور فايز صبحي عبد السلام تركي، مجلة الثقافة والتنمية، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، يوليو ٢٠٠٣م.
- التَّعريف والتنكير بين الدَّلالة والشَّكل، للدكتور محمود نحلة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٩م.
- التفكير اللِّسانيّ في الحضارة العربيّة، للدكتور عبد السلام المسدي، الدَّار العربيّة للكتاب، طرابلس- تونس، ١٩٨٦م.
- التِّلِّيسيّ وألمعية الشَّابي، عبد الجواد عباس، ضمن كتاب التِّلِّيسيّ موسوعةٌ وريادة، منشورات مجلس تنمية الإبداع الثقافي، ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- التَّماسك النَّصِّيّ من خلال العطف والتِّكرار دراسةٌ تطبيقية في ديوان المواكب لجبران خليل جبران، بوزنية رياض، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨م.

- الجُمْلَة الفعليّة بسيطة وموسعة "دراسة تطبيقية على شعر المتنبى، للدكتور زين الخويسكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م.
- الجُمْلَة في الشِّعر العربيّ، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- الحذف التركيبي وعلاقته بالنَّظم والدَّلالة، للدكتور فايز صبحي عبد السلام تركي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
- حوار يوسف الشريف لخليفة التِّلِّيسِيّ، مجلة الفصول الأربعة، رابطة الأدباء والكتاب بليبيا، ملف العدد (خليفة التِّلِّيسِيّ) العدد ٦٦، ليبيا، ١٩٩٢م.
- الحيوان، أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥م.
- الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية " القدامة وتحليل النَّص "، للدكتور عبد الإله الصائغ، المركز الثقافي العربيّ، الدَّار البيضاء ،بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- خليفة محمد التِّلِّيسِيّ، ثبتٌ بيوغرافيٌّ ببليوغرافيّ، مجلة الفصول الأربعة، رابطة الأدباء والكتاب بالجماهيرية الليبية، ملف العدد (خليفة التِّلِّيسِيّ)، العدد ٦٦ ، ليبيا، ١٩٩٢م.
- خليفة محمد التِّلِّيسِيّ ناقداً وأديبًا، مصطفى محمد جحيدر، الدَّار الجماهيرية للنشر والتوزيع، مصراتة، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، للدكتور سعيد حسن بحيري، مكتبة الآداب، القاهرة، الطَّبْعَةُ الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- دراسة لُغوية لصور التَّماسك النَّصِّيّ في لغتي الجاحظ والزيات، مصطفى صلاح قطب، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٩٦م.

- الدَّلالة والنَّحْو، للدكتور صلاح الدين صالح حسنين، مكتبة الآداب، الطَّبْعَةُ الأولى، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.
- ديوان خليفة التِّلِّيسِيّ، خليفة التِّلِّيسِيّ، الدَّار العربيّة للكتاب، تونس- ليبيا، ١٩٨٩م.
- ديوان ذي الرُّمَّة، رواية ثعلب، بشَرْح الإمام أبي نصر الباهلي، تحقيق الدكتور عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢م.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، شَرْح أبي العبَّاس ثَعلب، قدَّم له ووضَعَ فهارسه د. حنا نصر الحِتِّي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٤م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، د. ت.
- رَبْط الجُمْلَة الفرعية بالضَّمير أو بالواو ودوره في تماسك النَّص " دراسة في كافوريات المتنبي"، للدكتور فايز صبحي عبد السلام تركي، مجلة علوم اللُّغة، العدد الأوَّل (٤١)، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- الربط والروابط بين نَحْو الجملة ونَحْو النَّصِّ، للدكتور حسن محمد نور المبارك، ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النَّحْوية، دار العلوم، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- الرمز والرمزية في الشِّعر المُعاصر، للدكتور محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثَّالثة، ١٩٨٤م.
- سر صناعة الإعراب تحقيق د.حسن هنداوي، دار العِلْمُ، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥م.

- شرح التسهيل، ابن مالك ت ٦٧٢هـ، تحقيق د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، دار هجر، القاهرة، د. ت.
- شرح التصريح على التوضيح، للشيخ خالد الأزهري، تحقيق محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.
- شرح جُمل الزجاجي، ابن عصفور الإشبيلي ت ٦٦٩ هـ، تحقيق علي مؤمن وأنس بديوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطَّبْعَةُ الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- شرح ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- شرح الرضي على الكافية، للرضي " رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذى النَحْوي ت٦٨٦هـ "، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، جامعة بنغازي، ليبيا، ١٩٧٨م.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار التراث، القاهرة، الطبعة العشرون، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.
- شرح المُفَصَّل، لابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، د. ت .
- شرح المُفَصَّل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، صدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي ت ٦١٧ هـ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن العثيمين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- شهادة الأستاذ حسن عريبي، ضمن كتاب التِّلِّيسِيّ موسوعةٌ وريادة، منشورات مجلس تنمية الإبداع الثقافي، ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- الصورة الاستعارية في شعر التِّلِّيسِيّ، للدكتور عبد الإله الصائغ، مجلة الفصول الأربعة، رابطة الأدباء والكتاب بليبيا، العدد ٦٦، ١٩٩٢م.

- الضَّمائر في اللُّغة العربيّة، للدكتور محمد عبد الله جبر، دار المعارف، بيروت، الطبعة الأولي، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.
- ظاهرة الاستغناء في قضايا النَحْو والصرف، للدكتور زين الخويسكي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٦م.
- ظاهرة التفضيل بين القرآن الكريم واللغة، أبو سعيد محمد عبد المجيد، مجلة البلقاء، العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة عمّان الأهلية، الأردن، المجلد التَّاسع، العدد الأوَّل، ٢٠٠٢ م.
- ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، للدكتور طاهر سليمان حمودة، الدَّار الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
- العلامة في النَحْو العربيّ، للدكتور محمود ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٦م.
- العلامتية وعلم النَّص، إعداد وترجمة د.منذر عياشي، المركز الثقافي العربيّ، الدَّار البيضاء، المغرب - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤ م.
- عِلْمُ لُغَة النَّصِّ، د.عزة شبل، مكتبة الآداب، القاهرة، الطَّبْعَةُ الأولى، ٢٠٠٧م .
- علم لغة النَّص: المفاهيم والاتجاهات، للدكتور سعيد بحيري، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- عِلْمُ النَّصِّ "تحريات في دلالة النَّصِّ وتداوله "، فهيمة لحلوحي، مجلة كلية الآداب واللغات، العدد العاشر والحادي عشر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ٢٠١٢م.
- عِلْمُ النَّصِّ "مدخل متداخل الاختصاصات"، فان دايك، ترجمة د. سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، الطَّبْعَةُ الأولى، ٢٠٠١م.

– علم اللُّغة النَّصِّيّ بين النَّظرية والتَّطبيق، للدكتور صبحي إبراهيم الفقى، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م.
– علم اللُّغة النَّصِّيِّ بين النَّظرية والتَّطبيق الخطابة النبوية نموذجًا، للدكتورة نادية النجار، مجلة علوم اللُّغة، مجلد٢، ع ٣٤، ٢٠٠٦م.
– عِلْمُ اللُغَة النَّصِّيّ ودوره في شرح الحديث وفهمه "أحاديث الجهاد والسير في صحيح البخاري نموذجًا، د. عاصم شحادة علي، المجلة العربية للدراسات اللغوية، معهد الخرطوم الدولي للُغَة العربية، العددان ٢٩، ٣٠، الخرطوم، السودان، ديسمبر ٢٠١١ م .
– العمدة في محاسن الشِّعر، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م.
– عناصر السَّبك بين القدماء والمحدثين، للدكتورة نادية النجار، ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النَّحْوية "العربية بين نَحْو الجملة ونَحْو النَّصِّ، دار العلوم، القاهرة، ٢٠٠٥ م .
– المرجعية (الضميرية) في سورة الكهف دراسة نصِّية وظيفية، عبد المهدي الجراح، إبراهيم الكوفحي، ومحمد القضاة، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٥، ع ٣، الأردن، ٢٠٠٨ م .
– عيار الشِّعر، ابن طباطبا "أبو الحسن محمد بن أحمد ت ٣٢٢هـ "، تحقيق د.عبد العزيز بن ناصر المانع، دار العلوم، الرياض، السعودية، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
– فتنة النَّص "بحوث ودراسات"، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٨م.
– قراءةٌ في شعر الانتماء عند التِّلِّيسِيّ، جمعة الفاخري، ضمن كتاب التِّلِّيسِيّ

موسوعةٌ وريادة، منشورات مجلس تنمية الإبداع الثقافي، ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

- قراءة نَحْوية نصِّية في سورة ص، للدكتور عرفة عبد المقصود عامر، ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النَّحْوية، دار العلوم، القاهرة، ٢٠٠٥ م.

- قصيدة البيت الواحد، لخليفة التِّلِّيسِيّ، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ- ١٩٩١م.

- القضايا التركيبية في شعر الأعشى الكبير وعلاقتها بالدلالة في ضوء الدرس اللغويّ الحديث، للدكتور فايز صبحي عبد السلام تركي، رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م.

- قضايا التقدير النَحْوي بين القدماء والمحدثين، للدكتور محمود سليمان ياقوت، دار المعارف١٩٨٥م.

- قلق النص وحرية الإبداع ، د. عناد غزوان إسماعيل، مجلة اللغة العربية وآدابها، العدد السادس، العراق، حزيران، ٢٠٠٨ م.

- الكتاب، سيبويه " أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت١٨٠هـ "، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨م.

- كتابُ الصناعتين "الكتابة والشِّعر"، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ- ١٩٥٢م.

- كشاف اصطلاحات الفنون: محمد علي التهانوي (ت ١١١٩هـ)، بتصحيح المولوي محمد وجه وآخرين، كلكته، الهند، ١٨٦٣م.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري "جار الله أبي القاسم محمود ت ٥٣٨"، تحقيق ودراسة عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض،

مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، الطَّبْعَةُ الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٨٨م .
- كيف نقرأ النَّص القديم، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي، ج٢١، مج ٩، رجب ١٤٢٦هـ ، جدة، السعودية، سبتمبر٢٠٠٥ م.
- اللامات، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (ت٣٣٧هـ)، تحقيق د. مازن المبارك، دار الفكر - دمشق، الطبعة الثَّانية، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.
- اللامات "دراسة نَحْويّة شاملة في ضوء القراءات القرآنية، د. عبد الهادي الفضلي، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.
- لسان العرب، لابن منظور " أبو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم بن منظور، ت ٧١١ هـ "، طبعة جديدة محققة ومنقحة، دار المعارف، القاهرة، د . ت.
- لسانيات النَّصِّ أو "لسانيات ما بعد الجملة وما قبل الخطاب "، كورنيليا فون راد صكوحي، ضمن كتاب "مقالات في تحليل الخطاب"، تقديم حمادي صمُّود، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، ٢٠٠٨ م.
- لسانيات النَّص"مدخل إلى انسجام الخطاب"، د.محمد خطابي، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، الدَّار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩١ م.
- لسانيات النَّصِّ، "نَحْو منهجٍ لتحليل الخطاب الشعري، د. أحمد مداس، عالم الكتب، إربد، الأردن، الطَّبْعَةُ الثانية، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
- لغة الشِّعر " دراسة في الضرورة الشِّعرية "، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م.
- مدخل إلى عِلْم لُغَة النَّصِّ: روبرت دي بوجراند، وإلهام أبو غزالة وآخرين، مطبعة دار الكاتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

– مدخل إلى علم اللُّغة النَّصِّيّ، فولفجانج هاينة، وديترفيهفيجر، ترجمة د، فالح ابن شبيب العجمي، نَشْر جامعة الملك سعود، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م.
– مدخل إلى عِلْم النَّصِّ "مشكلات بناء النَّصِّ" زتسيسلاف واورزنياك، ترجمة د. سعيد بحيري، الطَّبْعَةُ الأولى، مؤسسة المختار، ٢٠٠٣ م.
– مرجع الضَّمير في القرآن الكريم "مواضعه وأحكامه وأثره في المعنى والأسلوب"، للدكتور محمد حسنين صبرة، دار الهانى للطباعة والنشر، شبرا الخيمة، القاهرة، ١٩٩٢م.
– المسافة بين التنظير النَّحْوي والتطبيق اللغوي، د. خليل عمايرة، دار وائل، عمان، الأردن، الطَّبْعَةُ الأولى، ٢٠٠٤م.
– معاني النَحْو، للدكتور فاضل السامرائي، شركة العاتك لصناعة الكتاب، درب الأتراك، القاهرة، د.ت.
– مغني اللَّبيب، ابن هشام، تحقيق: مازن المبارك، وآخر، مراجعة: سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م .
– مفهوم الشِّعر " دراسة في التُّراث النَّقديّ"، د . جابر عصفور، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
– المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والتبيين للجاحظ، للدكتور عبد السلام المسدّي، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد ١٣، ١٩٧٦م.
– مقاييس اللُّغة، لابن فارس " أبو الحسين أحمد بن فارس، ت ٣٩٥ هـ "، تحقيق عبد السّلام هارون، دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م.
– المقتضب، للمبرِّد، تحقيق محمد عبد الخالق عُضَيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثَّالثة، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م.

– من الأنماط التحويلية في النَحْو العربي، للدكتور محمد حماسة، مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ م.
– من ظواهر الأشباه والنَّظائر بين اللُّغويات العربية والدَّرس اللساني المعاصر "التَّرادف"، د. عبد الرحمان بودرع، حوليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٥، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، مارس، ٢٠٠٥م.
– المنهج الصوتي للبنية العربيّة، رؤية جديدة في الصرف العربيّ، د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.
– منهجٌ في التَّحليلِ النَّصِّيِّ للقصيدة، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، مجلة فصول، ج ١٥، ع ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦ م .
– موقف النقد العربي التراثي من دلالات ما وراء الصياغة اللُّغويّة، ضمن كتاب (قراءة جديدة لتراثنا النقدي)، للدكتور تمام حسّان، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، العدد ٥٩، ١٩٨٨م.
– نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل،لمحمد بن محمد بن أبي بكر المرابط الدلائي، مع دراسة شخصية مؤلفه، تحقيق الدكتور مصطفى الصادق العربيّ، نَشْر الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع، بنغازي، ليبيا، د . ت .
– نَحْو أجرومية للنَّص الشِّعريّ، للدكتور سعد مصلوح، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد العاشر، العددان الأوَّل والثاني، يوليو، أغسطس ،١٩٩١م.
– النَّحْو العربيّ والنَّص : مدخل لبحث العلاقة بينهما، للدكتور عبد السلام السيد حامد، مجلة كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة (إصدار خاص)، ٢٠٠٩م.
– نَحْو النَّص اتِّجاه جديد في الدرس النَحْوي، للدكتور أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.

- نَحْوُ النَّصِّ بين الأصالة والحداثة، للدكتور أحمد محمد عبد الراضي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطَّبْعَةُ الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- نَحْو النَّصِّ في ضوء التحليل اللِّساني للخطاب، د.مصطفى النحاس، دار السلاسل، الكويت، الطَّبْعَةُ الأولى، ٢٠٠١م.
- النَّحْو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، الطبعة الثَّالثة، د. ت.
- النَحْو والدَّلالة "مدخل لدراسة المعنى النَحْويّ الدلالي"، د.محمد حماسة عبداللطيف، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٣م.
- نسيج النَّص "بحث فيما يكون الملفوظ به نصاً"، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربيّ، الدَّار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
- النَّص والخطاب والإجراء، دي بوجراند، ترجمة د.تمام حسان ،عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.
- النَّصُّ والسياق "استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"، فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٠ م.
- نظرية عِلْم النَّصِّ، د.حسام أحمد فرج، مكتبة الآداب، القاهرة، الطَّبْعَةُ الأولى، ٢٠٠٧ م.
- نقد الشِّعر، قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- هكذا تكلم النَّص، للدكتور محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.
- هل نمتلك مَنْ نُحب " مقاربةٌ لديوان خليفة محمد التِّلِّيسِيّ، معمر الزائدي، مجلة الفصول الأربعة، رابطة الأدباء والكتاب بليبيا، العدد ٦٦، ١٩٩٢م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لجلال الدين السيوطي، تحقيق أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.

- وصف اللُّغة العربيّة دلالياً في ضوء الدَّلالة المركزية "دراسة حول المعنى وظلال المعنى"، للدكتور محمد محمد يونس، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، ليبيا، ١٩٩٣م.
- الوظائف الخطابية للضمائر العربيّة مع مقارنة لنظام الضَّمائر في كلٍّ من العربيّة والإنجليزية، للدكتور محمد خضر عريف، مركز بحوث اللُّغة العربيّة، جامعة أُم القُرى، السعودية، ١٤١٩هـ.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

- Halliday (M.A.K.) and Ruqaya Hassan,(1976) Cohesion in English , Longman, New York.
- Keith Laurence and Hazel Wrigglesworth,(1991) Discourse approaches to Cohesion: A study of the structure and unity of a Central Bontoc expositony text, Studies in Philippine Linguistics, Volume 8 Number 2 , Linguistics Society of the Philippine and Summer Institute of Linguistics.
- Raphael salkie, (1995) Text and discourse analysis, Richard Hudson , London and New York.